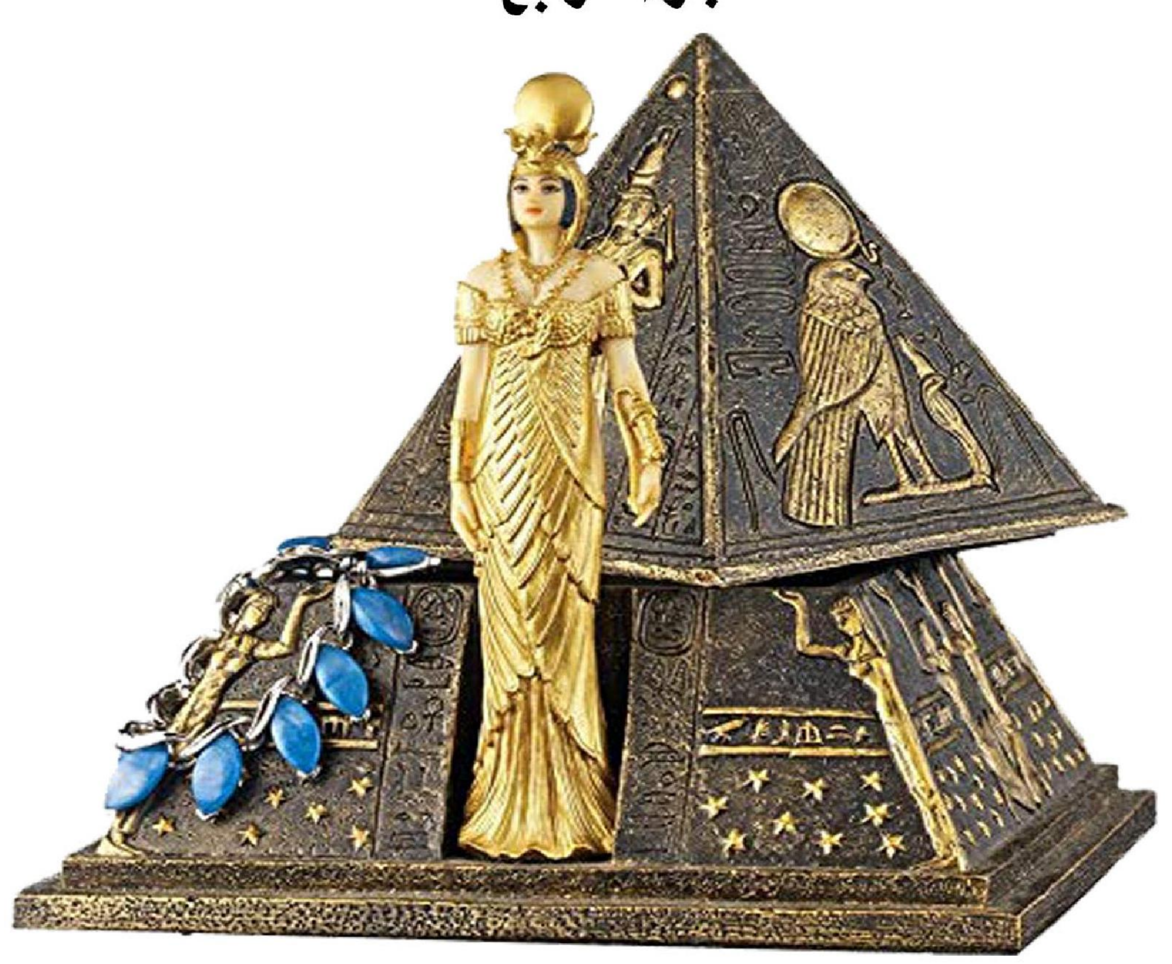
ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور ديني

الجزء الرابع



تأليف

محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور ديني

الجزء الرابع

تأليف/ محمد مبروك أبو زيد
مستشار قانوني
باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

كافة حقوق الطبع محفوظة

First Version 2019 Egypt

Mr, Mohamed Mabrouk Abozaid

Copyrights reserved

المحتويات

باب تمهيدي ٣
الإضاءة الأولى: مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور ديني ١٦
الإضاءة الثانية: مسقط رأسي بين الفقه والفقهاء ـ المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي ٧٤
ـ المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي في الفقه ٧٩
ـ عبقرية قواعد الحكم على الحديث ٩٤
ـ عبقرية قواعد تدوين القرآن ١٠٣
ـ إشكالية المعيار الشخصي ١٢٣
ـ كذب الصحابة على رسول الله ١٣٠
ـ ظاهرة الخنزير البري ١٣٦
ـ "فقه الوطء والركوب في الإسلام" ١٦٣

باب تمهيدي

لا يمكن للعقل أن يتحرر أو يتحرك في ظل تقديسه للتاريخ العربي، فالتاريخ العربي صار جزءا عقائديا مُقدسا من الدين ما جعل المسلمين يؤمنون بأفكار وآراء وسلوكيات إجرامية وقعت خلال حقب التاريخ ويعتبرونها سلوكيات نموذجية بل وينبغي على المسلم الالتزام بها واحترامها باعتبارها شعيرة دينية، بينما هي في الواقع جريمة ضد الإنسانية.. مثال؛ أبي بكر الصديق في الواقع بدأ تأسيس دولته على بيت المال الحرام من عوائد السبي والنخاسة والسلب والنهب وخطف وبيع الأطفال، ولم يكن له مصدر دخل قومي من داخل بلاده، أي لم يكن له مصدر دخل وطني محلي قائم على العمل والبناء والإنتاج، لأن الصحابة العرب لا يدمنون سوى الإغارة، وحتى وإن كان مصدر الدخل القائم على عوائد السبي والنخاسة حلال، فهذا لن يصلح في عصرنا، وإن صلح في بلاد العرب فلن يصلح في إيجبت لأنها دولة مدنية تحترم الإنسان وتقدر قيمته ولا تقبل بيع أطفال الناس وبناتها في أسواق النخاسة كما كان يفعل العرب..

إن التاريخ يكتبه المفتخرون به والمؤمنون بعظمته، وهو يعكس الجانب المضيء من حياتهم، من سياسة وحروب وانتصارات وحالة مجتمعية وسيرة رجال حكم تلك الحقبة. وربما يتسرب في كتاباتهم بعضا من جوانبه المظلمة خلال محاولاتهم لتبرير الجوانب الأخرى لتبدو أكثر إشراقا. وتاريخ العرب كتبه العرب من زاويتهم ورؤيتهم الذاتية ومجّدوه في أنفسهم ومدحوا أسلافهم باعتبارهم أصحاب الانتصارات والأمجاد والفتوحات وزادوا من تقديسهم فمنحوا تاريخهم مسحة دينية كي يقدسه أحفاد المسلمين عبر الزمن، لكن نظرة واقعية بداخل الذات تجعلنا نقف لحظات لقياس الأمور والأفعال على المبادئ الإسلامية لا على ما نراه محببا إلى نفوسنا ومصرفا لكروبنا ومصدرا لثقتنا بأنفسنا وفخرنا أمام الأمم، فخير موارد العدل القياس على النفس. ومنذ فجر التاريخ وكل شعبٍ يحتفظ بحضارته وتاريخه وقوميته المستقلة، فنحن المصريون دائما ما نفتخر بحضارتنا الفرعونية، وهكذا كثير من شعوب الشرق الأوسط، العراق والشام وإيران واليمن وغيرها، ما عدا شبه الجزيرة العربية (أرض الحجاز)، فليس لها ماضٍ تفتخر به سوى بعثة النبي عليه السلام، وما بعده حيث اندمجت القوميات الشرق أوسطية في قومية عربية واحدة منذ انتشر الإسلام في شعوبها وحلت اللغة العربية محل لغاتها المحلية.

في الواقع، فقد بدأ تأسيس دولة العرب في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، واستمر في التأسيس على منهجه عمر الخطاب، ولم تبدأ دولة العرب في عهد الرسول لأن الرسول لم يكن حاكما بالمعنى السياسي ولم يكن فارسا ولا إمبراطورا، لم يؤسس دولة وإنما أسس مجتمع. يقول تعالى: فذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ (٢١) لستَ عليهِم بمُصيطِرٍ (٢٢)/الغاشية؛ أي ليست لك عليهم سُلطة ولست مسلطا عليهم، فلم يكن النبي مرخصا له بممارسة أي سلطة على المجتمع سوى تنفيذ الأمر الإلهي، وحتى لا تختلط سلطته البشرية أو سلطته السياسية لو كان حاكما بالمعنى السياسي وتندمج في التعاليم الدينية التي تتسم بطبيعة الديمومة. فالمجتمع لن يكون قادرا بعد ذلك على التفرقة بين ما كان سلطة دينية للرسول وما مارسه الرسول كسلطة سياسية حاكمة، ولذلك قال له الله " لست عليهم بمصيطر، بل إن ذات الإشكالية حدثت فيما بعد حينما تولى أبو بكر منصب الأمير في المدينة، وتبعه عمر الخطاب كحاكم سياسي، لكن بدأ توسع واندماج السلطة الدينية في السلطة السياسية فحصل عمر الخطاب على لقب " أمير المؤمنين" (برغم أنه كان في الواقع أميرا للمؤمنين وغير المؤمنين) ثم استمر اللقب حتى معاوية كان أميرا للمؤمنين(مع أنه في هذا الوقت كان حاكما لدولة أغلبها غير مؤمنين لكنه تمسح بالدين ظاهرا)، ثم بتضخم حجم الفساد السياسي في المجتمع العربي بدأ التحصين بالسلطة الدينية فظهر برز على السطح " الخليفة" ! باعتباره نائبا حل محل الرسول (وهذا خطأ). وبالتالي فإن المسار التاريخي لدولة العرب يبدأ عقب وفاة الرسول وانصراف نية العرب الجماعية إلى اختيار أمير حاكم لهم، هذا الأمير أدار شؤون دولة العرب وأسس جيشا نظاميا وظفه بصورة دائمة وأسس ميزانية عامة "بيت المال" لينفق منها على مصالح الدولة، ومن هنا بدأ يظهر رويدا رويدا مفهوم الدولة ونظام الحكم المركزي في العقل العربي للمرة الأولى في تاريخه، أما النبي فكانت مهمته دينية دعوية وليست سياسية إستراتيجية. فقيام دولة العرب (سياسيا واقتصاديا وعسكريا) لا صلة له بالدين سوى في توحيد كلمة القبائل العربية في المدينة ومحيطها، كما لو خرج الناس من صلاة الجمعة ثم اتفقوا على فعل شيء ما بصورة جماعية، فالطبيعي أن ينفصل هذا الفعل عن الصلاة حتى وإن كانت الصلاة هي المناسبة التي جمعتهم.

وطبيعة المجتمعات لا تسير على خطٍ أفقي مستقيمٍ من حيث العادات والأعراف والتقاليد والثقافة الشعبية، ومن حيث مستويات التحضر والرقي الاجتماعي والتقدم العلمي كذلك. فلو تتبعنا شعبا من الشعوب على مدار التاريخ سنجد منحنيات رأسية في تاريخه، بما يعني أن صوت الحكمة يعلوا ويهبط أحيانا كثيرة، فلا يوجد شعب في التاريخ بدأ حياته متقدما متحضرا واستمر على تقدمه وحضارته،

ولا يوجد شعب في العالم بدأ متأخر وظل على تأخره، بل إن الشعوب تصعد بحضاراتها قمما وتهبط قيعان متتالية بمرور الزمن، وهذه طبيعة العقل البشري أنه متموج لا يسير في خطٍ مستقيم أبدا.

فما حدث في شبه الجزيرة العربية عند بعثة الرسول كان حدثا مفاجئا للمجتمع من الناحية الإنسانية، لكن بمجرد وفاته تغيرت الحال، وأصبح دور المجتمع المسلم هو السطو على الشعوب المجاورة وقتل المخالفين في الدين والعقيدة، فقد توهموا أوامر من الله بقتل المخالفين لهم مرضاة لله!، حتى أن خالد الوليد قتل سبعين ألف أسير كي يبر يمينه أمام الله لأنه عقد نذرا على نفسه وقطع وعدا لله بذبحهم جميعا إذا نصره الله عليهم! كانت هذه عقيدة الفاتح الأكبر في التاريخ العربي! وعلى هذا الأساس انتشرت حركات التوسع الجغرافي باحتلال الشعوب ونهب ثرواتها وقتل واغتصاب نسائها، والكارثة أن هذه الممارسات غير الإنسانية ترسخت في العقلية العربية وأصبحت هي التراث الديني. أصبح واجبا على كل مسلم أن يقتل كافرا كي يرضى عنه الله!

وليس دورنا توجيه أصابع الاتهام لمن كانوا حول رسول الله عليه السلام وأتباعه أو تحديد المخطئ من المصلح أو الإساءة إلى الصحابة الذين قاموا على رأس السلطة ومصدر القرار بعد رحيله، إنما الأمر يتعلق بمسألة عامة وهي الفصل بين (الدين والتاريخ) بداية من نشأة فلسفة الحرب الهجومية بعد وفاته عليه السلام، هذه الفلسفة تربعت في عقول المجتمع بأغلبيته دون أن ينتبه أحدهم إلى الفارق بين فلسفة الحرب في عقل الرسول وغايتها التي تمحورت جميعها حول حق الدفاع الشرعي، فتسربت هذه الفلسفة الرديئة المتعصبة تجاه غير المسلم دون وعيٍ وتدبرٍ لحقوق الإنسان التي كفلها الإسلام بوجهٍ عام قبل الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ربما عادت وسادت طبيعة العربي في الفروسية والحرب والسطو والهجوم قل الإسلام عادت مرة أخرى، ومن هنا جاءت القناعة نفسية اجتماعية اعتمادا على الخلفية الثقافية والبيئة المنشأ وليس المنهج، فكان في نفوس العرب ما يزال طيف اغتراب بين المنهج والمنشأ لم يستطيعوا التخلص منه كليا، ومن هنا تسربت (أعراف المجتمع العربي وفلسفته المنشأ) أفكار التعصب والتشدد والنرجسية والحربية والفروسية إلى الفقه بذات الوتيرة لتبرير ما اقترفه الجيش العربي بحجج متنوعة، ربما من بينها " إزالة العقبات من طريق نشر الدعوة، مع أن هذا لا يحتاج إلى حصد الشعوب المجاورة بسلسلة من الحروب المتواصلة والمتصلة زمانا ومكانا كما الحصّادة الدموية الأقرب فالأقرب، مع اقتران السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية على هذه الشعوب، لأن تلاميذ المسيح عيسى عليه السلام

انتشروا في بقاع الأرض ونشروا دينهم دون عقبات ودون جيوش، وربما تظهر حجج أخرى مثل تخليص الشعوب من ظلم حكامهم !

مع أن هذه الحجج والمبررات الواهية لم تعد تنطلي على العقول التي انفتحت على العالم وطالعت صفحات التاريخ لكل الشعوب والحضارات وأخذت الدرس مبكرا. فهي ذات الحجج المطعونة التي ساقها تحالف الغزو الأنجلو أمريكي على العراق عام ٢٠٠٣ بزعمهم تخليص الشعب العراقي من ديكتاتورية وغطرسة صدام حسين، فاستبدلوا هذا الحاكم الوطني الظالم باحتلال بلاده ونهب ثرواته وقتل ما يزيد عن ثلاثة ملايين إنسان ونهب القصور والمتاحف والكنوز.. وهو ما فعله خالد الوليد والصحابة رضوان الله عليهم عند فتح فارس وأرسلوا بالبشرى والمنهوبات والأسلاب والخمس من الغنيمة إلى الخليفة أبي بكر الصديق! حتى متعلقات الملك الشخصية ومعها فيل جلبوه من هذا البلد، فرفض أبو بكر هذه الأفعال ورفض نهب قصور كسرى ورد الفيل إلى أهله.. (ابن كثير) ثم يأتي العرب ليقنعونا بأن أجدادهم الصحابة حاربوا واستشهدوا في سبيل الله ولنشر دينه! فليس للسعوديين اليوم أن يتفاخروا ويتباهوا على شعوب الأرض بأنهم من سلالة الصحابة، أو أنهم جاهدوا في سبيل الله، لأن هذا التاريخ يمثلهم هم وأجدادهم ولا يمثل الإسلام في شيء، فلهم أن يتفاخروا في حدود قوميتهم وتاريخهم وإرثهم الثقافي دون المساس بأصول الدين ومبادئه، ودون خلط بين تاريخهم وديننا، فالدين ليس من ثقافتهم ولا نتاج حضارتهم وإنما جاء من عند الله موجها لهم ولغيرهم.

"إن أكثر شخصٍ مكروه عند الناس هو الذي يقول الحقيقة، مع أن مواجهة الحقيقة، رغم فداحة وصعوبة الأمر، أفضل من الهروب منها؛ لأن الهروب يعني استمرار التيه والضياع. فمواجهة الواقع بالحقيقة هو القرار الأصعب في حياتنا من ناحية والأكثر وطأة على نفوسنا من ناحية أخرى، وفي ذات الوقت هو الأهم من الناحية الموضوعية، فأحيانا لا يميل الناس إلى معرفة الحقيقة، حفاظا على مشاعرهم، وذلك لأنهم لا يرغبون برؤية " أيقوناتهم " التي رسموها وآمنوا بها وطافوا حولها مئات السنين تتحطم في لحظة أمام أعينهم! من جراء مقالة أو من خلال ندوة في ملتقىً فكريٍ، وكأن الأمر كمن يُفقد المرء ثيابه ليتركه عاريا فجأة، ولكن أن تبقى عاريا مدهوشا لدقائق أفضل من أن تبقى أعمى طول العمر. وأصعب شيء على الإنسان هو اختيار طريق خاطئ وقرار الاستمرار فيه؛ لأنه يصبح بذلك مضطرا لأن يدافع عن هذا الاختيار طول الوقت وبكل الطرق " فتاوى واجتهادات وتبريرات" حتى لو كانت عن غير قناعة،

ليكتشف بعد فوات الأوان أنه أخطأ في حق نفسه بعجرفته وكبريائه الزائد.. خالف ضميره خوفا من أن يظهر للآخرين بموقف ضعفٍ فعالج خطأه بكارثة.. هي استمرار هذا الخطأ.

وليس الغاية من هذه المقدمة المؤلمة نبش الجروح أو جلد الذات باعتبار انتمائنا للقومية العربية واندماجنا فيها، بل فقط للوقوف على أرضٍ صلبة، فأول طريق النجاح هو الاعتراف بالفشل ومصالحة الذات، ولن يُجدِ استمرار الفخر والاحتفاء بأمجاد ماضٍ فارغ من كل معاني الإنسانية، وليس من المقنع أبدا وقف التساؤل حول ممارسات المسلمين الأوائل أو النبش في خلافاتهم وقتلهم بعضهم البعض، ثم في ذات الوقت اعتبار منهجهم وأفعالهم تطبيقا نموذجيا للإسلام رغم ما بها من أخطاء فادحة؛ كل ذلك فقط من أجل تقديس مروياتهم التاريخية وتحصين نسبتها لرسول الله ! لأن ذلك يعد افتئاتا على الله ورسوله وتقويل بما لم يقل به.

غير أن الفلسفة الكلاسيكية لفقهاء الدين بوجه عام والتي تقوم على حظر التساؤل حول أمورٍ دينية مُعينة، فهذا غير منطقي لأن الله تكفل بالرد على كل تساؤلٍ صحيح قد يخطر على عقول البشر الأسوياء ولم يترك ثغرة في القرآن، أما امتداد فلسفة الصمت هذه إلى العصور التاريخية لتحصين المسلمين الأوائل من الأخطاء فهو افتئات على الله، لأن الله شرع منهجه في القرآن وليس في سلوك الصحابة، وأرسل رسوله هاديا ومنبرا ومنفذا عمليا لمبادئ القرآن، وطالما اختلفت سلوكيات الصحابة والمسلمين الأوائل عن سلوكيات النبي ومبادئ القرآن فلا يجب تذكيتها على الله بأي حال. فما علينا إلا الرجوع للأرض الصلبة وهي عصر النبي وحده لضبط مسارنا ومنهجنا حتى لا نسئ إلى الإسلام من باب مجاملة العرب واحترام تاريخهم. لأن مجرد وجود أشخاص حول رسول الله لا يعصمهم طول العمر من الابتلاء والتغيرات النفسية.

إن العمل على تقويم مجتمعاتنا ينبغي أن يبدأ من حاضرنا لا من تاريخنا، لأن الشعوب التي تفتخر بماضيها لن ترتقي بأي حالٍ أكثر مما ارتقى ماضيها إذا كان قد ارتقى أصلا، وينبغي التفرقة بدقة بين مفاهيم النقض والنقد أو الهجوم على ثقافة أو فترة حضارية ما، لأنه لا قيمة للنقد دون الخروج بنتائج تساهم في بناء حاضرنا، ولا قيمة من النقض إلا إذا أدى إلى هدم موروثٍ خاطئ ترسب في عقولنا وما زال يعوق حركة التقدم، إنما موروث خطأ لا يعوق حركة التقدم فلا فائدة من نقضه أو نقده بل هو محض شهوة تعييب الآخرين.. فينبغي أن نعيد ترتيب التربية الثقافية في هذا الجيل والأجيال القادمة

ونذكرهم أن هذه المهمة ما هي إلا تكليف سوف يوضع أصحابه على منصة المساءلة أمام مجتمعاتهم، ولا ينبغي أن يتوقف الصراع الفكري بين المحافظين والحداثيين في العالم الإسلامي عند حدود النقد والتجريح في التراث، بل فقط النقد البناء الذي يهدف إلى تقويم المسار دون تجريح.

فهناك منعطف كبير حدث في مسار التاريخ، هذا المنعطف الخطير وقع عقب وفاة النبي عليه السلام، فكلما عاودت قراءة التاريخ السالف للدولة الإسلامية اكتشفت أن وقائعه تتنافى تماما مع ما دعا إليه رسولنا الكريم عليه السلام، وكلما بعدت عن عصره وجدت انحرافا أشد وتناقضا فجا مع مبادئه الإسلامية الصحيحة، فعلى ما يبدو أن التاريخ الفقهي لأحكام الشريعة الإسلامية أخذ مسارا منحرفا عقب وفاة النبي عليه السلام واستمر هذا الانحراف في التزايد شيئا فشيئا على مدار ألف وأربعمائة عام.

سنتتبع مجرى التاريخ ونرصد التحولات الفقهية الفادحة في المفاهيم والقيم والمعايير، هذه التحولات جاءت متزامنة مع تحولات نفسية عميقة في طبيعة العقل الجمعي للمجتمعات والشعوب المسلمة، فدوام الحال من المحال، وثبات العقل مستحيل، فحتى وإن كانت الحقائق غير قابلة للتغيير فالعقل ذاته تتغير نظرته للحقائق بمرور الوقت، ومن ثم تتغير الغايات وتنحرف الأهداف التي يسعى إليها. وهذا ما جعل الخلف يقيدون عقولهم عن الفكر استنادا إلى ما بذله السلف، برغم علمهم بطبيعة الاجتهاد البشري القابلة للانحراف، ولكن بمرور الوقت تبين انحراف السلف عن صحيح المنهج في مواطن كثيرة، ومن ثم وجب استبعاد الشوائب التي حلت في عصورهم والعودة إلى عصر النبي عليه السلام لاستقاء الغايات والمبادئ من جديد. فعصر النبي عليه السلام هو المحور الرئيس الذي تدور حوله كل العصور، وقد ينحرف عصر يمينا فلزمه العودة إلى المحور الأصلي لتصحيح مساره، وقد ينحرف عصر آخر يسارا فيلزمه العودة إلى عصر النبي لتصحيح مساره واستقاء صحيح الدين وأهدافه وغاياته المثلى، لكن مسألة اعتبار عصر السلف هو عصر نموذجي للإسلام فهذا ليس صحيحا على أي حال، فقد يكونوا قد انحرفوا يمينا وربما إذا اجتهدنا للعودة إلى منهج النبي عليه السلام نقع في انحرافٍ آخر يسار، فهذا وارد، لكنه على كل حال لن يختلف عن انحراف السلف إلى اليمين مثلا، بل إنه من الوارد أن نعود نحن إلى طريق الصواب دون انحراف، وهذا أفضل من انحرافنا المستمر في اتجاه السلف.

سيساعدنا ذلك في دراسة الآثار التي امتدت من المجتمع العربي إلى المنهج الإسلامي، فالمنهج لم يعد في أيدينا كما تركه النبي محمد عليه السلام، بل تأثر كثيرا بطبائع المجتمع العربي واندست الكثير من

المرويات وحصلت على صك القدسية بما جعلها من ثوابت الدين بينما هي محض عادت وأعراف المجتمع العربي قديما. سنحاول قدر الجهد الغوص في طبيعة التكوين النفسي للمجتمع العربي لنعرف مدى رقي أو انحطاط العقلي العربية كي ندرك الأثر التاريخي الذي امتد من المجتمع العربي إلى المنهج الديني. ولم يكن ذلك ممكنا دون دراسة طبيعة الشخصية العربية ذاتها بعمقٍ شديد، والتعرف على طريقة التفكير منذ البداية وطريقة الصعود الحضاري وحجم النتاج العلمي والإبداع الحضاري الذي وصله العرب خلال مرحلة الحضارة التي سادوا فيها على العالم من حولهم، وذلك بمقارنة حضارة المجتمع العربي بالحضارات السابقة عليها وليس المعاصرة لها أو اللاحقة.

وفي هذا الكتاب أيضا سنلقي نظرة من مسقط رأسي على المجتمع العربي للمقارنة بين حالة المجتمع وثقافته الدينية وأعرافه وتقاليده في ثلاث عصور متتابعة ومتقاربة (قبل الإسلام – عصر النبي محمد ـ عصر ما بعد وفاة النبي) لنتبين بدقة حالة المجتمع من حيث الثقافة الدينية قبل الإسلام، وكيف تأثر المجتمع بنزول الوحي على الرسول، ومدى الأثر الذي تركه الإسلام على المجتمع العربي والذي تجلى بوضوح في عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم، ونتبين هل عاد المجتمع إلى حالته الأولى أم بقي على حالته الثانية أم دمج بينهما، ثم في نهاية هذا المسقط الرأسي نقف على مدى تأثر المجتمع العربي بعاداته وأعرافه وتكوينه النفسي على التراث الدين والذي تمثل في الثقافة الدينية المنقولة شفويا من جيل لآخر بما حملت من (أقوال مأثورة عن النبي محمد ـ إدخالات بعض المتحدثين بالدين – عادات المجتمع – الاندماج والدمج الثقافي بين أعراف المجتمع العربي وتعاليم الدين الإسلامي) بما أخرج لنا في النهاية كتب الحديث الستة والتي يميل بعضها لأن يكون أقرب إلى ما ورثه العرب عن الرسول الكريم، بينما البعض الآخر يميل إلى كونه ثقافة المجتمع العربي وأعرافه وتقاليده وثقافته الشفوية وحالته النفسية بعد عهد الرسول.

كل ذلك في محاولة لدراسة أثر المجتمع العربي على المنهج الإسلامي وتحديدا الفقه. فهناك من تاريخ العرب وعاداتهم القديمة ما أصبح دينا للناس لمجرد أن أعجب به الفقهاء ووجدوا فيه العزة والسيادة ومصدر الفخر، بينما هذا التاريخ في الواقع لا يصلح أن يكون سلوكا اجتماعيا لشعب من الشعوب المتوسطة في الحضارة الإنسانية. ولا ينبغي أن يؤخذ سياق الفكر على أنه إنكار لسنة النبي محمد عليه السلام، بل فقط إسقاط دائرة الضوء على ما نسب إليه ظلما من تراث العرب، وربما أدى إلى انحرافاتٍ فقهية أساءت إلى النبي وإلى منهجه الشريف.

يرى فقهاء الشريعة أن مسار الدولة الإسلامية قد تحول جذريا بعد مرحلة الخلفاء الأربعة الأول وانتقال الخلافة إلى أيادٍ غير أمينة في الغالب سوى ما كان في عهد عمر عبد العزيز، فلقب بخامس الخلفاء الراشدين، ولقب الأربعة الأوائل بالخلفاء الراشدين. وهذا ما يعني أن المسار السياسي للإسلام انحرف عن منهجه فعليا بنهاية عهد عليَ أبي طالب، فهل انحرف الفقه كذلك أم سار معتدلا برغم انحراف السياسة؟ وهل فعلا أن عصر الخلفاء الأوائل كان عهدا راشدا أم لقب كذلك لمجرد كونهم من كبار الصحابة ولا يجرؤ أحد على تناول تاريخهم بالنقد ولو كان موضوعيا؟ فمن أكون أنا أو غيري لانتقد عمر وأبا بكرٍ الصديق وعليَ أو عثمان؟ فهم أعمدة الدعوة وأوتادها منذ فجرها. وهذا حق لا يشقه غبار، لكن هل كان تاريخهم أبيض بياضا ناصعا؟ يضعه في منصب النبوة؟ أم أن الأخطاء السياسية والتشريعية أو الفقهية التي وقعت في عصورهم أقل من أن تذكر؟ قد تكون هذه حقيقة، لكن على كل حالٍ سنحاول تقييم عصر الخلفاء الراشدين قياسا على عصر النبي محمد عليه السلام لا قياسا على عصرنا، من حيث المفاهيم والممارسات والتطبيقات الفقهية والعملية في عصره وعصرهم، لربما تكون تلك الأخطاء الطفيفة التي وقعت في عصرهم قد استمرت في العصور التالية واستفحلت وتضخمت طوال عصور الانحراف والفساد السياسي الذي غص به تاريخ الدولة طوال عصورٍ مديدة، وفي سبيلنا لإجراء هذه المقارنة سنحاول ضبط خيط من الخيوط وتتبعه في عصر النبي عليه السلام وصولا إلى عصر الصحابة لتبيان ما قد طرأ عليه من تغيرات أو تحولاتٍ أو انحرافٍ ولو بسيط، فليس من المنطق القول بداهة بالمساواة والتطابق بين عصر النبي عليه السلام وعصر الصحابة وإلا كان ذلك افتئاتا على الله ورسوله؛ لأن الرسول في سياسته للمجتمع لم يكن شخصا عاديا ولا حتى عبقريا موهوبا، بل كان نبيا ورسولا مُرسلا، أما الصحابة فهم بشرٌ عاديون قد اجتهدوا قدر طاقتهم في تلمُس طريق الحق والصواب، وربما وقعت منهم بعض الأخطاء واستفحلت بمرور التاريخ، ولذلك سنحاول إجراء مقارنة بين عصر النبي وعصور الصحابة من حيث التحليل الاجتماعي للمسلمين خلال عصره وبعده والتقاط خيوط فقهية مثل مسألة الجزية والعبودية والاسترقاق والسبي والحرب الهجومية في الإسلام وأساليب نشر الدعوة وفكرة الجهاد في سبيل الله وحرية العقيدة وحقوق الإنسان.

من حيث وجه المقارنة، سنحاول وضع الإصبع على ((التطبيقات العملية التي باشرها النبي خلال حياته)) في مواجهة ((التطبيقات العملية للمسلمين بعد وفاة النبي)) حيث سار عهد النبي في وئامٍ وانسجام بين كافة طوائف المجتمع، ما أدى إلى وصول المدينة في عهد النبي إلى حدود الأمن القومي لكل المسلمين

في شبه الجزيرة العربية، وبعد وفاته، بدأت المعارك السياسية وتبعتها الفتوحات التي أسقطت ما يقارب ٤٠٠ ألف إنسان خلال عام واحد على يد خالد الوليد، ثم تبع ذلك انكماش مفاجئ لحركة الفتوحات واضطرابات وقلاقل وفتنٍ داخلية، ما أدى إلى وقوع ما يقارب المائة ألف قتيلٍ بين صفوف الصحابة أنفسهم، وهذا ما ينمّ عن تحولٍ جذري في العقلية العربية وتركها لمنهج الإسلام وعودتها إلى تراثها الجاهلي القائم على الصراعات القبلية والفروسية وأرض المنشأ الاجتماعي.

ومن الواضح أنه مع تزايد الانحراف السياسي تزايد الانحراف الفقهي بضخ مزيد من الأكاذيب والروايات الخرافية على تراث رسول الله عليه السلام وخصوصا خلال فترة الصراعات السياسية، إذ حاول كل فريقٍ تلمُس ما قد يؤيد جانبه فلجأ إلى اختراع أقاويل ونسبها إلى الرسول، وآخرون دخلوا من باب المجاملة أو النفاق السياسي لإضفاء اللمسة الدينية على الحكام، وغيرهم دخلوا من باب الخوف على الإسلام وتشديد عقوباته وإبراز حدوده، وغيرهم دخلوا من باب التأكيد على نبوة الرسول ولهذا ظهرت مؤلفاتٍ لا حصر لها تتناول معجزات الرسول وحديثه مع الجان والحيوان وغير ذلك من الخرافات، حتى تنبَه البعض إلى توثيق الحديث وعلى رأسهم الشيخين البخاري ومسلم وأقرانهم، لكن ذلك جاء بعدما تراكم التدليس وبلغ السيل الزبا، وتم التدوين على عجلٍ دون تمحيصٍ كافٍ، حتى أن الخرافات تم تدوينها ووصلت إلينا سالمة رغم مرور أكثر من ألفٍ وأربعمائة عام، وهذا يعني أن لها حظا من الاهتمام والعناية ولها نصيب من الاعتقاد والتصديق وربما التطبيق العملي الذي استمر طوال الألفية السابقة. ولو تم إعدام هذه الخرافات مبدئيا لكان الفقه قد هجرها منذ البداية حتى انقرضت، لكن ما حدث كان عكس ذلك. ومن هنا بدأت مرحلة جديدة وهي مرحلة الانشطار الفقهي على خطٍ أفقي بلا أي قيمة إبداعية أو سموّ في الفكر الديني، سار الفقه على ذات الوتيرة السياسية المتخبطة والاجتماعية المنهارة، فبقدر استقامة الحاكم تأتي استقامة المجتمع وبقدر استقامة المجتمع تكون استقامة الحاكم وكلاهما من بعضهما لا ينفصلان أبدا، وبقدر رُقيّ المجتمع يرتقي علمه وبقدر انحطاطه يهبط فكره. غير أنه لا منطق يقول بأن هناك مجتمع يعيش مثاليا على الإطلاق، سوى الأنبياء والرسل، وبالتالي فإن مجتمع الصحابة مهما حظي بقدر من النقاء اختصهم الله به وغفر لهم بما قدموه من خيرٍ للبشرية بمساندتهم للنبي، لكننا مع ذلك لا نذكي أحدا على الله، فالطبيعة البشرية لا ترقى إلى درجة المثالية في سياسة أمورها الدنيوية والسياسية، فكيف بأمورها الدينية؟

وعلى كل حال، فنحن لن نستفيد شيئا بنبش الماضي ولا من التعرض لرموزه، وإنما نحن نريد فقط توجيه العدسة على فترة من فترات التاريخ كان لها أثرا قويا فيما تلاها من عصور التاريخ وبخاصة على المستوى التشريعي، إذ أن المجتمع بأسره قد أجمع على استقامة التاريخ خلال فترة الخلفاء الراشدين ومن ثم أصبحت خطواتهم السياسية والدينية الأولى بمثابة تشريع ديني دائم إلى ما لا نهاية من الزمان، وهذا ما يدفعنا إلى إعادة النظر في طبيعة هذه المرحلة التاريخية مراتٍ ومرات للتأكد من سلامة المبادئ التي أصبحت بمثابة تشريعاتٍ ومبادئ دينية ثابتة، فما وقع خلال هذه المرحلة التاريخية حتما شابه ولو قدرٌ طفيف أو هامشٌ من الأخطاء البشرية أثر حتما على مسار الحياة والمجتمع على مدار عصورٍ طويلة، واستمرار هذه الهوامش من الخطأ بمرور الزمن قد يؤدي إلى انحرافاتٍ تشريعية فادحة، لأنها نبعت من نقطة ارتكازٍ تاريخية تحيطها دوائر تشريعية، هذه الدوائر تظل في التمدد والاتساع والانتشار بمرور الزمن مثل حجرٍ تلقيه في بحيرة فيبدأ الموج في الاتساع وانتشار دائرته حتى يغطي سطح البحيرة بأكمله، ولا يخفى ما لهذا الأثر من تغيير في شكل البحيرة بكاملها.

فعقب وفاة النبي عليه السلام بلحظاتٍ وقع أول خطأ في تاريخ الإسلام، وتتابعت الأخطاء وإن اختلف حولها المؤرخون، لكنها وصلت في عهد الخليفة الثالث عثمان عفان إلى اقتتال المسلمين ورفعهم السلاح في وجه بعضهم البعض في صراعاتٍ سياسية مُسلحة كانت نتيجتها مقتل الخليفة في غضون ما لا يجاوز عقدين من الزمان، ثم تطورت الأحداث إلى أن تجاوزت أعداد القتلى من المسلمين أنفسهم مائة ألفا بينما نجد عدد الأعداء الذين قتلوا على يد المسلمين في عهد الرسول لا يتجاوز المائة !، وهذا ما يؤكد وقوع أخطاء تاريخية فادحة لم تبدأ فجأة وإنما بدأت لحظة وفاة النبي عليه السلام.

ونحن لا نفتح تحقيقا تاريخيا أو نعيد محاكمة الشخصيات التاريخية، وإنما نعيد وزن الأمور لمعرفة ما أدت إليه هذه الأحداث ونتيجتها وآثارها على الحالة التشريعية وتحديدا (مسائل الحرام والحلال والواجب والفرض في الفقه الاجتهادي) ذلك لأن مسألة انقلاب الصحابة على أنفسهم واشتعال أعمال العنف والقتل داخل صفوفهم لا ينبئ عن استقامة في العقل الجمعي بعد وفاة الرسول، وإنما حتما قد حدث انحراف واضطراب في مسار العقل الجمعي، وهي ذات المرحلة التي وقع فيها أول صراع سياسيٍ على السلطة (في اجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة) وأول حربٍ أهلية داخلية سياسية عقائدية (حرب الردة) وهي أول حربٍ هجومية في تاريخ الإسلام. فلا بد أن هناك تغيّر جمعي في مسار التاريخ ومسار العقل الجمعي عما كان عليه الوضع حال حياة النبي عليه السلام، والعبرة ليست في التحقيق التاريخي

وإدانة آحاد الصحابة أو إثبات التهمة على أحدهم وتبرئة الآخر، وإنما العبرة في التحقق من ماهية الخطأ ودراسة الآثار التي ترتبت على هذه الأحداث من تحولٍ في مبادئ الإسلام وانجرافها فقهيا وفلسفيا بقدر الانحراف في المسار السياسي. ولا تذكية لأحدٍ من الصحابة على الله، وما علينا إلا أن نعيد معايرة هذه المرحلة التاريخية وما نشأ خلالها من آراءٍ وأحكام فقهية وما ترتب عليها من مبادئ فقهية قد تكون تأثرت بهذا الانجراف الذي حدث، فما زالت جموع المسلمين تتخذ هذه المرحلة التاريخية كنموذج مثاليَ للإسلام برغم ما علِق بها، غير أن لدينا المصدر الأصلي للتشريع وتطبيقاته العملية؛ القرآن وأفعال النبي عليه السلام في الوقائع الثابتة تاريخيا خلال فترة حياته الدعوية.

في هذا الكاتب سنحاول رصد المشهد من مسقط رأسي، من زاوية مفقودة على مدار التاريخ، هذه الزاوية العلوية ستوضح لنا مدى التأثيرات الاجتماعية التي دخلت على منهج الإسلام بعد وفاة الرسول، وكيف انقلب المسلمون على المنهج وتغلبت عليهم طبائعهم العرفية الاجتماعية واندمجت في الثقافة الدينية، حتى صارت أعراف المجتمع العربي القديم جزءا مقدسا من الدين، وصارت الوقائع التاريخية نموذجا مثاليا لمنهج الإسلام، بينما هي في الواقع لا تعدو كونها جرائم حربٍ ارتكبها العرب ضد الإنسانية، لكن من خلال بوابة تقديس التاريخ صارت جرائمه بوابة لدخول الجنة! حتى وإن كان من قام بها هم كبار الصحابة، فالعرب هم مجتمع وليسو أفراد، مجتمع له عقلية جمعية وله منظومة من الأعراف التي تغلغلت بعمق في النفس البشرية عبر عصور طويلة من الزمان، ولا أحد بمنأى عن الفتنة والخطأ والزلل، ولا أحد معصوما من البشر مهما كان، ولا نذكي أحدا على الله. فكثير من عادات وأعراف المجتمع العربي القديم اندمجت في الثقافة الدينية واختلط بالتشريع الفقهي والأحكام، دخلت هذه المؤثرات من باب المرويات والاجتهاد الفقهي والحديث المأثور عن رسول الله، وأبرز هذه المؤثرات الاجتماعية نجد ظاهرة النرجسية، فالعرب كمجتمع بدوي بدائي همجي فقير من الناحية الحضارية، لا يعرف العمل ولا البناء ولا الإنتاج ولا النظام، ومع ذلك سيطرت عليه نزعة النرجسية العرقية، هذه النرجسية أصابت الفقه في مقتل وأخلت بميزان العدالة الاجتماعية والحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم وصار من الصعب على الفقهاء استخلاصها في ظل أعراف وثقافة مجتمع نرجسي لا يعترف بها.

وأما الظاهرة الأخطر، فهي ظاهرة الحربية، إذ أن الحروب والإغارة هي من طبيعة المجتمع العربي في الجاهلية، هذا المجتمع لم يعرف الإقامة والاستقرار والبناء والمعمار أو الحضارة والإنتاج، بل كانت حياة المجتمع العربي قائمة الفروسية والإغارة والسطو بين القبائل وبعضها البعض، وكانت هذه من الغرائز

النفسية المغروسة بعمق في طبيعة المجتمع العربي، ولهذا أثرت هذه النزعة الحربية الفروسية على التراث الفقهي الإسلامي وحولته عن مساره من كونه جاء رحمة للعالمين إلى أن أصبح سيفا مسلطا على العالمين، فهذه النزعة الحربية ليست من الإسلام في جوهره وإنما من أعراف وتقاليد المجتمع العربي التي اندمجت في التراث الديني فحازت القدسية عبر الزمان. وهذا الكتاب ليس دفاعا عن أعداء العرب ولا هجوما على العرب ولا تعاطفا معهم ولكن رد الاعتبار للإنسانية التي أمرنا ديننا الحنيف أن نحافظ عليها، فهو محاولة لتحرير العقلية من قيودٍ فرضها السلف على الدين بما أخرجه من دائرة التسامح الإنساني في غفلة منهم.



الإضاءة الأولى

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور ديني

بُعث النبي محمد عليه السلام في شبه الجزيرة كي يهدي العرب إلى الإسلام.. وتضامن حوله أغلبهم بنهاية المرحلة.. فهل انقلبوا بعد وفاته وعادوا لنظامهم القديم وتركوا منهجه؟ أم أنهم استمروا بعده على ذات الخطوة؟.. فالراصد لحركة التاريخ يلمح بوضوح أن العرب ارتدوا عن الإسلام في عهد بني أمية .. فهل وقع هذا الارتداد مفاجئا أم بدأ تدريجيا حتى اكتمل؟

في اليوم الأول من شهر "توت" على التقويم المصري الفرعوني، كان أجدانا المصريون يقفون في الصباح الباكر لرصد حركة الفلك ومشاهدة نجم الشعرى اليمانية باتجاه الشرق جنوبا.. وكانت هذه عاداتهم كل عام، فهو اليوم الذي يظهر فيه الشعرى لدقائق معدودة عقب شروق الشمس، وعلى هذا الأساس وضعوا خريطة الأبراج الفلكية، وهو الوقت ذاته الذي ينزل فيه الفيضان هادرا من أعالي الجبال الإثيوبية، ويظل زاحفا لأكثر من ستة آلاف كيلومتر عامرا بالطمي الأسمر عبر السهول والوديان حتى يصل إلى قلب القاهرة.. كانت مصر حافلة بالحضارة والعمارة والعلوم.. وأبناؤها مليئون بالحيوية والنشاط.. يحملون قلوبا خضراء مثل سهول الوادي.. يحبون العمل والبناء والإنتاج، ويدمنون أوراق البردي.. ولذالك كانت حضارتهم علمية عملية تطبيقية.. كانوا يستيقظون مبكرا هذا اليوم لانتظار حلول الفيضان.. لأنهم ما أن تظهر بوادر الفيضان من بعيد، فعليهم أن يخلوا بيوتهم وحقولهم ويصعدوا إلى قمم جبل المقطم أعلى قمة بالقاهرة حتى يأخذ الفيضان فرصته ليروى أرض الدلتا وينعش زهور اللوتس الخضراء والحمراء كما وعدهم في عيد وفاء النيل كل عام... القدماء الفراعنة أول من احتفلوا بالهلال بأغنية "واح وى واح وى.. إياحا".. ومعناها بالعربية " اظهر أيها الهلال.. فلك وحشة " وكانوا يصومون تقربا للآلهة ٤ أيام من الشروق إلى الغروب فى موسم الفيضان..

لكن مياه الفيضان رغم عشق المصريين لها ما كانت للتجاوز سهول الدلتا الخضراء إلى صحراء الشرق... فعلى مسيرة أميال من المقطم تدور عدسة الرصد

باتجاه شبه جزيرة العرب.. فتبدوا الرؤية غائمة شيئا ما... ربما كان اليوم الذي توفي فيه النبي محمد عليه السلام قبل أن يتم زيارته لمصر.. وكانت مصر بأشد الحاجة إليه لكنه ترك رسالته بيد العرب ورحل مبكرا.. فكر المصريون أن يرسلوا بعض شبابهم بحزمة من لفائف البردي لتدوين الرسالة عليها وحفظها من التلف بيد العرب.. لكنهم مزقوها..

وبداية لا بد من الفصل بين منهج الإسلام وبين الشعوب، فقوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ليس خاصا بقومية العرب أو الشعوب المسلمة، ولا بجيل معين من أجيال هذه الشعوب، ولا بمذهب، ولا بطائفة، فالكينونة " كنتم " وليس أنتم " تعني فعل شرط يؤدي إلى الانتقال من حال إلى حال إذا تحقق جواب الشرط، ولا علاقة لها بالزمان ولا الجنس ولا العرق، لأنها تتعلق بمنهج الله، فالله تعالى يقول " أعطيتكم أفضل منهج" بدليل أنه تحدث في ذات الآية عن أهل الكتاب وهم "عرب" كذلك، فكلمة أمة تتعلق بالمنهج لأن الإخراج يتعلق بتخريج شرائع متعددة في سياق دين واحد هو الإسلام الدين الحنيفي، والله يقول أن شريعة محمد التي أخرجت لكم هي أفضل وأشمل وأكمل هذه الشرائع، فكلمة " أمة " تعني المنهج والطريق أو الشريعة.. بمعنى : هذا المنهج الإلهي، بتعاليمه وكينونته – في كلِّ زمانٍ ومكان – بإمكانه أن يجعلكم خير أمة أخرجت للناس إن آمنتم بالله وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وبالتالي فكلمة أمة تختلف كثيرا في دلالاتها عن كلمة " قوم" أو شعب أو عرق بشري، فيقول جل وعلا: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)/ الزخرف. وفي هذه الآية نجد سياق الخطاب القرآني يدور حول المنهج والكتاب والمضمون العقائدي، لا حول القوم والقومية أو الشعوب ذاتها، فقوله: ما آتينا هؤلاء كتابا من عندنا يعبدون به هذه الأوثان، ولكنهم قالوا: وجدنا أسلافنا وأجدادنا يعبدونها، فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها؛ ومعنى قوله :(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ). أي بل وجدنا آباءنا على دين وملة ومنهج، وذلك هو عبادتهم الأوثان.

فالله يذكر رسوله الكريم أنه ما أرسل من رسول أو نذير إلى قرية سابقة إلا قال كبراء أهلها بأنهم يعبدون الله وفق ما وجدوا عليه أجدادهم وأسلافهم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (: إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين) وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ (يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعل كما فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون؛ يقول جلّ ثناؤه للنبي: فإنما سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم من إخوانهم المشركين فما عليك إذا دعوتهم لعبادة الله.

ففي العصر الحالي نجد أن كافة شعوب الشرق الأوسط تقريبا تدين للإسلام، ومع ذلك تختلف ثقافتها ولغاتها وسلوكياتها الاجتماعية وأعرافها وتقاليدها عن مبادئ الإسلام؛ ذلك لأنها تأثرت بفعل العوامل الاقتصادية والظروف الاجتماعية والثقافية التي تعيش فيها، ولذلك نجد هناك خلط غير متعمد ما بين قيم ومبادئ الإسلام وما بين ثقافة وسلوك الشعوب التي تنتمي للإسلام، فالإسلام منهج وعقيدة، أما الشعوب فهي محض ظروف اجتماعية واقتصادية وبنى ثقافية تأثرت بالثقافة الإسلامية لكنها لم تتشكل كلية وفق منهج الإسلام. وبالعودة إلى بداية التفاعل الاجتماعي والثقافي ما بين منهج الإسلام وما بين ثقافة الشعوب، سنجد هذا التفاعل قد بدأ على يد النبي محمد عليه السلام في مكة المكرمة مع بداية البعثة ونزول الوحي عليه، ثم بدء انتشار قيم الإسلام بين أصحابه الذين ضحوا بحياتهم والتزاماتهم الاجتماعية والاقتصادية في سبيل توطين هذا المنهج ونشره في المجتمعات، وأخلصوا نيتهم وأسبغوا إيمانهم وعقيدتهم، ولذلك تآلفت قلوبهم واقترنت عقولهم، حتى اكتملت أركان الدعوة الإسلامية واتخذت من المدينة عاصمة ومقرا لها، وقد أكمل سيّد الخلق محمد عليه السلام رسالته باكتمال نزول الوحي وإعلانه اكتمال رسالة الإسلام التي جاءت رحمة للعالمين. وبوفاته عليه السلام انتهت مرحلة من انصهار المجتمع في ثقافة المنهج، ثم بدأت مرحلة جديدة بعد وفاته لانصهار المنهج في ثقافة المجتمع.

باختفاء الرسول والقدوة والمعلم النبي من حياة المجتمع العربي، عاد الانفصال بين المنهج الإسلامي وبين المجتمع، وعادت ثقافة المجتمع العربي القبلي وعاداته وتقاليده وأعرافه لتسيطر على جانب من حياة العرب، ذاب التآلف بين القلوب وعاد الشقاق جزئيا حينما اختلف المسلمون وعلت أصواتهم حول النبي عند احتضاره، وفي سقيفة بني ساعدة في أوّل صراع طائفي قبلي على تولي مقاليد السلطة بعد رحيل النبي عليه السلام وقبل أن يواري الثرى في مثواه الأخير. ثم استمر الشقاق بين فئات المجتمع وحلت

العصبية القبلية والطائفية محل الوحدة والتآلف والانسجام. اشتعلت الحرب ضد المعارضين السياسيين والعائدين عن الدين بعد وفاة الرسول عليه السلام، وقع فيها ما يجاوز الألف ومائتي مسلم نتيجة الخلاف والصراع السياسي على السلطة فيما عرف بحروب الردة، ثم استمرت الخلافات والشقاق حتى وقعت الفتنة الكبرى الأولى والتي انتهت بمقتل الخليفة عثمان عفان، ، ثم وقعت الفتنة الثانية والتي راح ضحيتها ما يزيد عن سبعين ألف مسلم. ثم مقتل الخليفة عليَ أبي طالب، ثم مقتل ابنه الحسين، ثم تحول الحكم إلى النظام الوراثي، هذا في جانب المسلمين أنفسهم أي خسائر بشرية ناتجة عن الصراع السياسي على السلطة، هذا غير الصراع الذي امتد إلى الشعوب المجاورة فيما عرف بفترة الفتوحات.

وعلى كل حال، عندما نعود إلى عصر النبي لفحص مدى التناسق والانسجام بين المنهج الإسلامي الصحيح وبين حياة المجتمع وثقافته وسلوكياته الاجتماعية، سنجد اختلافات واضحة عنها في عصر الخلفاء وما بعد وفاة النبي عليه السلام ، حيث تنافرت القلوب واختلف وتصارعت سياسيا وحلت الأعراف القبلية والعادات العربية محل المنهج الإسلامي الصحيح. وسنجري في هذا المقال مقارنة بين عصرين؛ الأول هو عصر النبي محمد عليه السلام، والثاني هو عصر المسلمين من بعد وفاته، وستجري المقارنة على الأوجه التالية؛ فلسفة الحرب – الدعوة وحرية العقيدة – نظرية الفقه، ثم نتبع ذلك بتحليل استقرائي للفروقات بين العصرين مع تشخيص لأسباب الأزمة الفقهية الواقعة بين الفقهاء الأصوليين والحداثيين المعاصرين والمجددين، وهل جاء الخلاف بين الفئتين على خلفية التجديد باعتبار المبادئ الدينية ثابتة لا تتغير بتغير المجتمعات، أم أن المفاهيم الدينية ذاتها تتغير بفعل تغير الثقافات والأعراف والمجتمعات، وهل أن السبب في هذا الصراع جاء بسبب انحراف المسلمين الأوائل عن منهج رسول الله بعد وفاته أم انحرافنا نحن عن منهج الإسلام باتجاه العلمانية والتسامح مع الآخر؟ فما هي معايير الانحراف عن المنهج؟.

وفي هذه الإضاءة سنلقي ضوءا كاشفا على ظروف المجتمع في عهد النبي وما بعد رحيله في عهد الخلفاء من الناحية السياسية والاجتماعية والتحولات التي حدثت في المنهج الإسلامي بفعل تدخل العوامل النفسية البشرية الخاصة بمجتمع شبه الجزيرة تحديدا، وتغير مفاهيم الجهاد وغاياته بعد وفاة النبي، فدوام الحال من المحال، ولا بد لكل مجتمع أن تتغير عاداته وتقاليده ومفاهيمه، فكيف تغيرت المفاهيم الدينية بالتبعية وكيف كانت آثارها على المجتمع وتأثيراتها على التاريخ من بعد، وكيف تحولت السياسة إلى تشريعات دينية مقدسة، وفي النهاية كيف أثرت عادات وأعراف العرب وتاريخهم على المنهج الإسلامي. لأنه ببساطة فالمجتمع العربي كان موبوء بفيروس النفاق والشرك، ولهذا

جاء القرآن علاجا روحانيا لترويض هذه النفوس المتمردة على الله، لكن عدوى الفيروس انتقلت من فم المريض الأبخر إلى طاولة العلاج. وهذا ما يعني أنه حدثت هناك ردة فعل قومية قوية على منهج الإسلام بعد رحيل النبي، ويجب البحث بدقة في ردة الفعل هذه ومداها وآثارها ونتائجها. خاصة أن المجتمع العربي بداية البعثة بدا عليه حالة رفض شديد لمنهج الدعوة وهو رفض لتقبل العاج ورفض من المريض للاعتراف بمرضه، واستمرت حالة الرفض هذه ثلاثة عشر عاما حتى هاجر النبي عليه السلام ولم يستجب له سوى ٣٠٠ شخص تقريبا، ثم بعد ذلك بدأ إقبال المجتمع العربي على الإسلام لكنه في المجمل لم يكن إقبالا عقائديا اختياريا كاملا لأنه حدث بعد تغير الظروف السياسية والعسكرية، ما دفع كل أعرابي لإعادة حساباته مرة أخرى، وهذا ما يعني حتما حدوث ردة فعل قوية في حال زوال هذه الظروف السياسية والعسكرية.

وبداية فإن الاختلاف بين النسيج الذهني والاجتماعي لكل شعب هو ما يشكل خصوصية وقومية الشعوب، ومن ثم تتشكل الخريطة المعرفية والثقافية لهذه الشعوب كلٌ حسب إمكاناته... فبين جبل المقطم بالقاهرة وجبل أحد شبه الجزيرة تكمن مسافة شاسعة، ليست بالمساطر والأقلام بين الجبلين، وإنما المسافات شاسعة بين الشعوب ذاتها، بين المصريين والعرب، فإذا كانت مصر هبة النيل فالأعراب هبة الصحراء.. غير أن المقولة التي أطلقها المؤرخ اليوناني هيرودوت عند زيارته لمصر حيث قال بأن : " مصر هبة النيل" هذه المقولة ليست صادقة في الحقيقة، لأن مصر هبة الله والنيل والمصريين، فكثيرٌ من شعوب العالم لديها أنهار مثل نهر النيل قامت عليها حضارات مماثلة، لكن الحضارة المصرية تفردت بعبقرية بارعة، فهناك نهري دجلة والفرات بالعراق، ونهري بردي والعاص بالشام، ونهري المسيسبي والأمزون بأمريكا ونهري يانغتسي والأصفر بالصين، بل إنه يوجد فى الصين وحدها شبكة متشعبة من الأنهار تصل إلى أكثر من١٥٠٠ نهر ولكل نهر حوض مساحته أكثر من١٠٠٠ كيلومتر مربع. وبالفعل قامت حضارة في الصين من ذات الطابع الذي قامت عليه حضارات شعوب الأنهار الأخرى في فارس والعراق والشام ومصر، لكن الحضارة المصرية تميزت بالعقلية المصرية. إذن مصر ليست هبة النيل، وإن كان النيل هو عمودٌ رئيس من أعمدتها، لكن هناك نسيجا ذهنيا مصريا يقف خلف هذه الحضارة العجيبة، وقد تفرد بطابعه على شعوب العالم الأخرى التي تمتلك أنهارا مثله.. هذه العقلية المصرية ما كان لها أن تقترن بعقلية الصحراء أبدا.

فعندما نجري مسقطا رأسيا على الشعب المصري بعدسة عربية خالصة وعلى تجربة سابقة للمصريين تجسدت في مرحلة دخول الديانة المسيحية في مصر، فإن العدسة العربية من المتوقع أن ترصد بجلاء ما لا يمكن أن ينكره منصف.. فقد انتقل أحد رجال الدين من فلسطين إلى مصر حاملا نسخة من الإنجيل نسخها ونشرها في مصر كلها خلال خمسين عاما فقط، ولم تظهر حملات وحلقات من المنافقين والأفاقين والكذابين، ولم تقع غزوات في مصر على هذا الرجل الذي حمل دينا جديا نشره في البلاد كلها وليس في القاهرة والإسكندرية وحدها، إنما امتد ليشمل جميع القرى والمدن المصرية في سلامٍ وهدوءٍ تام، ولم نر أبناء الصعيد يشنون غزوة على أتباع الديانة الجديدة عند جبل المقطم، كما حدث عند جبل أحد، ولم نر أبناء الإسكندرية يشنون غزوة على أتباع الدين الجديد في وادي النطرون كما حدث في غزوة بدر، ولم نر أبناء الشرقية والدلتا يشنون غزوة في عين شمس كما حدث في غزوة الخندق.. فالمصريون شعب مدني يحب العلم والمعرفة ويعرف السلام، ويقبل أو يرفض في سلام، لأنه ليس شعبا بريا وليس شعبا حربيا بالفطرة، وليست حرفته الرعي والتجارة والإغارة ولا يعرف الدعارة.

وبتدوير عدسة الرصد من القاهرة إلى شبه الجزيرة العربية من مسقطٍ رأسي علوي بين جبلي المقطم وأحد، مع بداية بعثة النبي عليه السلام في مكة المكرمة، وبدأت دعوته الشريفة تنتشر سرا وعلى استحياء بين أفراد المجتمع المكي، بدأت بالمقربين من النبي عليه السلام على المستوى الشخصي ثم توسعت والتف حولها بعض الناس لكنهم كانوا في الغالب من الضعفاء والعبيد، ولذلك عانى النبي عليه السلام ومن حوله الويلات من قريش وعتاة الشرك في مكة، كانوا مرضى مستعصين على العلاج، حتى قرر الهجرة إلى المدينة المنورة بعد تحالفه وتعاهده مع بعضٍ من أهلها لاستقباله وأتباعه في المدينة "يثرب" ثم بدأت تتشكل معالم المجتمع الإسلامي تدريجيا حتى تمكن من صد الكثير من غارات العدو عليه، حتى قويت شوكته وصار كفيلا بحماية أفراده من العدوان بعد أن تعرض لأكثر من سبع حملات وغزوات عدوانية، وتقريبا لم يدخل الإسلام بلدا في السعودية قبل أن تشن عليه غزوة.. ثم تنهزم، ومن هنا أصبحت المدينة مركز قوة بين العرب فتكالب عليها عِلية القوم وأصحاب النفوذ كنوعٍ من تحالفات القوى، ومن هنا ظهرت فئة المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويضمرون الشرك، فقد جاء إيمانهم كنوعٍ من التحالف السياسي والاجتماعي مع مركز القوة فقط وليس إيمان بالعقيدة.

وبعد وفاة النبي عليه السلام بدأ العرب تأسيس دولتهم، وتعاظمت قوة المسلمين العرب في المدينة فتحولوا من فلسفة الدفاع والتأمين إلى فلسفة الهجوم والإغارة على المجتمعات والشعوب المجاورة فامتدت رقعة الدولة العربية لتضم بلاد الشام والعراق وفارس والهند ومصر وشمال أفريقيا والأندلس. هذا على مستوى الجانب السياسي والأمني والعسكري في دولة العرب.

وبداية، لم تكن الحرب وسيلة لنشر الإسلام ولا حتى وسيلة لإزاحة العقبات أمامه في عهد النبي عليه السلام، وإنما فقط وسيلة شرعية لصد الظلم والعدوان الواقع على المسلمين، وبطبيعة الحال كان هذا الظلم والاضطهاد واقعا بسبب دينهم الجديد. بل إن هناك حدود فاصلة دقيقة في هذا الأمر لا بد من التعرض لها؛ إذ أن النبي قد بدأ رحلته الدعوية من محور الدفاع عن حق الوجود في ظل الموانع والعقبات التي لاقاها في مكة خلال ثلاثة عشر عاما منذ فجر دعوته، ثم باجتيازه مرحلة الهجرة وانتقال أصحابه من مكة إلى المدينة، حيث أصبح لديه مجتمع متآلف تكفي عناصره وإمكاناته المتواضعة لمباشرة حق الدفاع الشرعي، وبمرور الوقت وذيوع صيت انتصاراته في صد العدوان بدأ يتوفر عنصرٌ جديد غاية في الأهمية لهذا المجتمع الوليد وهو عنصر الأمان، ومن هنا بدأت الوفود تتوالى عليه عارضة الصلح وأيادي التحالف سواء دخل أفرادها في الإسلام أو لم يدخلوا، باعتبار أن النبي قد أصبح في مركز قوة، ومجرد توافر عنصر القوة والأمان هذا فقد نتج عنه إشكالياتٍ أخرى تبعية من بينها تحالفات ظاهرية مع المسلمين، دون النظر إلى الإسلام كرسالة دينية، وهو ما يعني عدم اندماج وانخراط هذه العناصر الداخلية في الدين اندماجا حقيقا، وهو ما أدى لبروز ظاهرة المنافقين في أواخر حياة النبي عليه السلام لأن انضمامهم إلى مجتمعه لم يكن قائما على قناعة دينية برسالته، وإنما على اعتبارات وموازين القوى التي رجحت في جانبه. وبرغم ذلك فقد توفي النبي عليه السلام وقد أكمل رسالته على خير وجهٍ من الناحية الدينية والتشريعية، وبقى له فقط سد الثغرة التي ما زالت قائمة جهة الشمال متمثلة في الإمبراطورية الرومانية وتحالفات نصارى الشام المحتملة معها، ولذلك أوصى عليه السلام قبيل وفاته بإنفاذ بعث أسامة.

وما نود التأكيد عليه هو أن تحركات النبي المدنية والعسكرية لم تكن بغاية تأسيس دولة ونظام حكم ومؤسسات مركزية للحكم والإمارة أو الولاية، لكنه فقط كان نبي واتخذ ما يمكنه من تمكين دعوته السلمية وضمان حدود أمنه وأمن مجتمعه، لأن كافة تحركاته المدنية والعسكرية (الهجرة –الغزوات – السرايا الاستطلاعية وحملات التأمين) كانت جميعها دون استثناء

رد فعل على فعل معادي سابق عليه، إذن لو سقط الفعل البادي لما كان هناك رد فعل النبي، إنما تحركاته الدعوية جميعها كنت فعل ومبادرة منه، فهو الذي تحرك إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام، وهو الذي بعث بسفرائه إلى الشعوب المجاورة له يدعوهم للإسلام، وهذه التحركات الدعوية التي فيها عنصر المبادرة ليس من شأنها أن تبني دولة ولكن مجتمع، أما التحركات العسكرية التي من شأنها أن تؤسس لدولة فكانت رد فعل وليس فعل ابتدائي وبالتالي هذا ما يؤكد أنه ليس مؤسس دولة، وإنما فقط مجتمع يتمتع بعنصر الأمن والسلام الاجتماعي، فلم تكن رسالته سياسية وإنما كانت دينية اجتماعية، وكانت الحرب في عهد النبي وسيلة للدفاع والتأمين، ثم بعد وفاته تحولت من أهدافها النبيلة (الدفاع والتأمين) إلى غاياتٍ سياسية بدأت أولى خطواتها بحرب الردة، فهذه الحرب التي اكتسحت قبائل العرب في شبه الجزيرة لم تكن قائمة على أساس ديني من الحرام والحلال أو عقوبة للمرتدين عن الإسلام، وإنما حرب سياسية ضد الخارجين عن الدولة ونظام الحكم المركزي، وهذا الخروج تمثل في منع الزكاة أي الامتناع عن الولاء للدولة والخضوع لسلطة الأمير، ولذلك كانت الزكاة هي أداة هذا الخروج السياسي عن الدولة إذ أنه امتناع عن دفع الضريبة لبيت المال، ولذلك لم يتم محاربتهم بتهمة الامتناع عن الصلاة أو الصيام مثلا بل فقط الامتناع عن الزكاة لما لها من طابع سياسي. ثم استمرت الحرب بطابعها السياسي التوسعي بغض النظر عن مقتضيات الدين ومسألة نشره، لأن الحرب التي بدأت بالقتل والذبح لتحصيل مصدر دخل قومي في عهد أب بكر، هي ذاتها الحرب التي استمرت على الشعوب المجاورة، وعادت بعائدات للدخل القومي العربي دون أي عوائد دينية تذكر.

وفي البدء بعد عودة جيش أسامة ابن زيدٍ من معركة مؤتة التي حقق فيها نصرا رائعا على جيوش الروم ((ولم يدخل بلادهم ولم يهجم على الأهالي ولم يخطف الأطفال والنساء كما اعتاد خالد الوليد أن يقفز بالجيش داخل القرى والمساكن للخطف والنهب والقتل)) وعاد أسامة بالجيش إلى المدينة مكتفيا بتحقيق الأمن القومي كما رآه النبي، فبدأ الصحابة في استعمال الحرب كوسيلة لإزاحة العقبات التي تعوق انتشار العرب وسيادتهم، ربما ركز الصحابة على إزاحة سلاطين الشعوب باعتبارهم العقبة لنشر الإسلام، وفي الواقع فهي لم تكن عقبة فعلية؛ ذلك لأن الإسلام دين وليس نظام حكم، فكر وليس سلطة، ما يعني أن المطلوب لنشر الدين هو محض تحقق عنصر الاستقرار والأمان الداخلي للدولة (مقر هذا الدين) بما يضمن الأمان للداخلين في الدين. وكل ما يلزم بعد ذلك هو التخطيط لإعداد الدعاة والفقهاء والمحدثين والخطباء والمبشرين ونشرهم في البلاد لتعريف الشعوب بالدين

الإسلامي، وهذه الغاية لم تكن صعبة المنال على أي حال؛ فلم يكن معهودا على مدار التاريخ أن يرد الزائرون والضيوف والعابرون عبر الدول والرحالة، فقد تمكن الكثير من العلماء والهواة من دخول كافة دول العالم وممارسة نشاطاتهم وهواياتهم دون أي عوائق أو موانع، وتمكن الرحالة المغربي ابن بطوطة من اجتياز معظم دول العالم المعروف في عصره، بدأ رحلته من أفريقيا وساح في الهند والصين والجنوب الشرق أسياوي ودخل أوربا ومارس رياضة التزلج على الجليد في جبال سيبريا. وكذلك الجغرافي العربي المسلم الشريف الإدريسي دار حول الكرة الأرضية بالكامل وجمع خرائطه من كل البلدان التي دخلها، وحينما انتهت رحلته جمع خرائطه وحاول التأمل في محتوياتها ومدلولاتها، فوجد الأودية والأنهار تكمل بعضها بعضا وتمتد بين الدول المتجاورة، رصد معلوماته فتوصل إلى نظريته الجديدة، وهي كون الأرض كروية وليست مسطحة. كانت هذه ضربة العصر في عصره، إذ كان الاعتقاد السائد أن الأرض مسطحة، فما أن دار حول العالم مبحرا من الخليج العربي باتجاه الشرق وعائدا إليه من اتجاه الغرب مع تواصل التضاريس الجغرافية فيما بينها لتتشكل الخريطة الأرضية على شكل كرة دائرية، رسم خريطته الكروية لأول مرة في التاريخ وتوجه بها إلى الخليفة العباسي. هذا بغض النظر عن قنوات التوصل الاجتماعي والاقتصادي بين الدول والشعوب، بالإضافة إلى خطوط التجارة العابرة للحدود، وليس فقط قوافل الحج والتجارة العابرة بسلامٍ في صحارى ووديان شبه الجزيرة العربية دون أي موانع أو عقباتٍ رسمية سوى ما قد يعترضها من قطاع الطرق وصعاليق الصحارى من العرب أنفسهم. أما من الناحية الرسمية وعلى مستوى الحكام والسلاطين والولاة، فلم تكن ثمة أي عوائق للتواصل الاجتماعي والتبادل المعرفي والثقافي بأي حال.

وكان بإمكان الصحابة أن يجلسوا مجموعات حول الكعبة وفي سوق عكاظ حيث المركز التجاري في شبه الجزيرة، وكان بإمكان الصحابة أن يستقبلوا الشعوب والقبائل التي تأتي للحج والتجارة من بقاع الأرض لينشروا دين الله فيهم ويعرفونهم بأحكام هذا الدين الحنيف، وكان بإمكانهم إرسال مجموعات منهم إلى الشام ونشر الإسلام في المنطقة هناك بسلام، وكان بإمكانهم التنكر في زي تجار والانتشار في أرجاء العالم كله لنشر الإسلام دون أية عقبات كما حدث في إندونيسيا وجنوب غرب آسيا، لكن الصحابة الكرام تركوا الكعبة بيت الله الحرام وأسواق التجارة وتركوا الدعوة وتحركوا بالجيش مباشرة إلى العراق ! دون حتى أن يكشفوا عن نوعية العقبات التي قابلتهم وعن كيفية إزالتها وآلية هذه الإزالة وحساب الأضرار الناتجة عن الحرب، فالنبي عندما استخدم

الجيش في معركتي تبوك ومؤتة قبل الشام لم يكن ذلك بغرض إزالة العقبات أمام انتشار الدين لأن العقبة وقتها كانت في سلطة الحكم الروماني في هذه البلاد ، وإزالة العقبة كانت تقتضي إزالة هؤلاء الحكام عن مناصبهم واحتلال بلادهم، لكن النبي لم يفعل ذلك ولم يدخل بلدا بجيشه، كان يقف في الخارج وينتظر إذا خرج له جيش أن يهزمه فقط لتحقيق الأمن القومي للمسلمين داخل هذه البلاد وخارجها، ولم يكن النبي يقفز بالجيش داخل المساكن والقرى والمدن كما فعل الصحابة الكرام بعد ذلك.

وكافة الرسل والأنبياء المبعوثين من عند الله جاؤا بالسلام هدى ورحمة للعالمين، فلم يستخدم أي نبي أو رسول منهم القوة لإكراه الناس أو تهديدهم وترويعهم بالسلاح، وكان عيسى عليه السلام يعلم تلاميذه وينشرهم في البلاد المجاورة دون أي تهديد ودون استخدام أي نوع من القوة، لكنهم في الحقيقة تم قتلهم جميعا إلا واحد منهم مات بشكل طبيعي، وحتى سيدنا عيسى تم قتله، وبالتالي فإذا جاء النبي محمد خير أنبياء الله ورسله، فلا يعقل أبدا أن يكون بعث بقوة السلاح، فالمنطقي أنه تكملة لمنهج من سبقوه من الأنبياء والرسل، وهو منهج الله الإسلام الذي يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، إنما أن يحدث تحول خطير بهذا الشكل ويتحول مسار الرسالة فجأة من الدعوى إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الهجوم بالسيوف والجيوش والقتل والذبح وخطف الأطفال واغتصاب النساء ونهب الثروات ! هذا هو أثر العرب ودور الصحابة الذين أخرجوا الدين عن مساره بحركة الفتوحات هذه وقالوا أنهم هكذا يجاهدون في سبيل الله، بينما في الواقع هم يجاهدون في سبيل طموحاتهم ويتصرفون وفق أعرافهم العربية الوحشية التي هي بيئتهم ونشأتهم البرية، حتى أصبحت سيرة هذه الفتوحات هي العقبة الكبرى في سبيل انتشار الإسلام في العالم، ليس فقط بسبب الحكايات التاريخية، وإنما بما انتقل منها إلى كتب الفقه وصار جزء من الدين وعقيدة لدى أغلب المسلمين، بعضهم يؤمن بها ويطبق عمليا والبعض الآخر يؤمن بها نظريا لكن تجزع نفسه عند مجرد رؤية الواقع... إنما النبي فقط صرح له بالمقاومة نظرا لأنه بعث في شعب همجي بهذا الشكل، وخصوصا أنه مكلف بمهمة في الأدغال الحارة وبها أفاعي وثعابين قريش ما لا حصر له وكانوا يشنون عليه حملات عسكرية متكررة، فالأمر كان أخطر بكثير جدا مما تعرض له سيدنا عيسى من اليهود في القدس برغم أنهم قتلوه في النهاية لكن عرب شبه الجزيرة كان حالهم أشد خطورة على النبي محمد من خطورة اليهود على عيسى، ولذلك صرح له بالجهاد الذي يرتكز على المقاومة لأنها حق مشروع.

لكن الصحابة بدؤوا في استخدام الحرب كوسيلة سياسية عسكرية فانقلبت أهدافها وآلياتها، بدأت كوسيلة سياسية لإعادة تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي عقب وفاة النبي عليه السلام وما نتج عن ذلك من ظهور فرق المنافقين وانكشاف أقنعتهم وارتدادهم عن الإسلام وخروج الكثير من القبائل العربية الأخرى عن الدولة الإسلامية، حتى وإن استمرت عليه كدين لكنها حاولت الانفصال عنها سياسيا وذلك برفض دفع الزكاة للخليفة الأول أبا بكرٍ الصديق، وفريق آخر رفض الخضوع لإمارة الصديق بشخصه، وفريق ثالث تمسك بأحقية على أبي طالب في الولاية بدلا عن الصديق، مما اضطر الخليفة أبا بكرٍ الصديق إلى استخدام الحرب كوسيلة سياسية في بادئ الأمر لإعادة حفظ النظام وتماسك الدولة، وساعده في ذلك الكفاءة الحربية التي تمتع بها القائد العربي الداهية خالد الوليد، ثم استمرت الحرب بعد ذلك كوسيلة لإزاحة العقبات في طريق نشر الإسلام من خلال نزع سلطات الحكام والحلول محلهم واستعمال مراكز القوى والسيادة العسكرية في المنطقة حتى اتسعت رقعة الدولة العربية أفقيا وامتدت أطرافها من الهند شرقا إلى الأندلس غربا مرورا بفارس والعراق والشام ومصر والشمال الأفريقي وحتى أوروبا الغربية حيث دخل محمد الفاتح الأستانة عاصمة الدولة البيزنطية في منتصف القرن الخامس عشر، فقد اتسعت رقعة الدولة العربية أفقيا وامتدت لمسافاتٍ شاسعة، لكنها هبطت رأسيا في ذات الوقت الذي بدأت فيه التوسع الأفقي بوفاة النبي عليه السلام فصارت كما شهابٍ حارق نفث ضوءه في السماء ثم هوى في الأرض وكلما اتسعت رقعته أفقيا زاد انحطاطه رأسيا في الأرض.

وخلال هذا الباب سنحاول أن نرصد مسقطا رأسيا تقف بؤرته في السماء تزامنا مع خطبة الوداع لنرصد حركة الدولة والمجتمع العربي وكيف كان في عهده وإلى أي مدى انحرفت بوصلة المجتمع بعد وفاته، وسنحاول رصد مدرج الانحراف الذي بدأ تدريجيا بخطأ سياسي من الخليفة الأول أبا بكر حتى وصلت ذروتها، فالمتأمل في حقيقة المشهد سيشعر أن أبي بكر وكأنه زعيم عشيرة من الغجر لا يستقرون على رأيٍ أبدا، ولا يجتمعون على حاكم ولا يتفقون على دين ولا مبدأ.. ثم هدأت درجات الانحراف في عهد عمر الخطاب، ثم تسارعت مرة أخرى في عهد عثمان عفان حتى مقتله ثم عليٍ حتى مقتله ثم تصلبت شرايين الدولة على نظام الحكم الوراثي وبداية عصرٍ جديد من الفساد السياسي والصراعات المسلحة للسيطرة على الحكم بالقوة، وهو ما يمثل طبيعة المجتمع العربي دون أي صلة بالإسلام، فنظام الخلافة ما هو إلا نظام سياسي حكم به العرب أنفسهم، وسواء كانت نظرية الحكم لديهم بالخلافة أو بالملكية أو النظام الجمهورية أو الإمبراطوري، حتى وإن توافق مع الدين فهذا شأنهم

وتاريخهم وليس تشريعا في الدين، وليس تكلمة تطوعية من العرب للإسلام، وليس مجرد نجاح العرب في حكم بلادهم بنظرية الخلافة الراشدة أن يكون هذا النجاح سببا لإقحام نظرية الخلافة في الدين أو أن تنتقل مسلماتها ومبادئها للدين حتى وإن كانت ناجحة، لأنه في النهاية نظام الحكم هو شأن مجتمعي ولكل مجتمع سماته وملامحه ومقوماته التي تمثله.

وخلال حركة الرصد هذه سنحاول قدر الإمكان إلقاء الضوء على الحركة الفقهية كي نلمح بوضوح مدى الانحرافات السياسية العسكرية وأثرها على حركة الفقه، وفي الغالب فإن الانحراف الفقهي من حيث الأحكام الشرعية وتفسير القرآن والأحكام قد جاء بذات القدر من الانحراف الذي وقعت فيه الدولة على المستوى السياسي والعسكري، لأن الفقهاء والعلماء خلال هذه الحقبة جميعهم أصيبوا بعدوى "متلازمة ستوكهولم" أي الإيمان بفكر المعتدي والتعاطف والتضامن معه.

فكل سياق اجتماعي له ملامح إنسانية تميزه، وهي عادة ما تكون نابعة من داخل الطبع البشري ذاته، سواء كان إنسانيا أو غير إنساني، وهناك معايير للسلوك الإنساني مغروسة بالفطرة داخل البشر ولا يختلف عليها أحد في أي عصر من العصور وفي أي مجتمع، وتتوارثها الأجيال جينيا جيلا بعد الآخر، لكن هذه المعايير قابلة للانحراف من عصرٍ لآخر، بما يجعل حياة المجتمع تسير بخطٍ متموج لا مستقيم أفقيا على صراط الأخلاق والفضيلة، فيميل الطبع البشري إلى الانحراف عن الخط الوسطي، أي الصعود إلى أعلى درجات الفضيلة، ثم الهبوط إلى أدنى درجات الرزيلة، وهكذا تعيش المجتمعات البشرية عصور ازدهارٍ أخلاقي واضمحلالٍ متتالية، كما الليل يتبعه نهار، والنهار يتبعه ليل ثم يتجدد النهار.

والتدين هو غريزة إنسانية مثل غريزة الأمومة، لا يمكننا إيجادها بداخلنا، لكن يمكننا تنظيمها إن تواجدت. فإذا نظرنا إلى المجتمع العربي قبل ظهور رسالة النبي محمد، كان المجتمع يعيش في فوضى عقائدية وانحدار أخلاقي -رغم وجود الديانة المسيحية واليهودية- ، وانتشر الضلال والفساد في شبه الجزيرة وعمَ الفجر والعدوان بأشكاله حتى صار عرفا وتقليدا من تقاليد العرب، وعند بعثة النبي محمد انضوي أغلبية المجتمع العربي تحت لواء الإسلام، انتقلوا فجأة من الضلال إلى الهداية والإيمان، وشربوا من طلاوته حتى ارتووا إلى درجة الثمالة، ثم بدأت حالة التشبع الديني تشيع في المجتمع حتى أنف الدين ونفر منه. فالمجتمع العربي- كأي مجتمع- تعرض لصدمة نفسية نقلته من

الضلال إلى النور فارتبك عقله، وبمجرد أن تشبع بروح الدين نفر منه، فعادة الإنسان عندما يشعر بالعطش يتكالب على الماء بنهم حتى إذا ما ارتوى زهد الماء وشعر بتغير في طعمه، وهكذا الغريزة الدينية قابلة للإشباع والارتواء بذات الآلية النفسية. وكما يقول استأذنا الفقيه الشافعي: ما طار طيرٌ وارتفع.. إلا كما طارَ وقعَ. فقد جاء النبي محمد لينتشل المجتمع العربي من القاع ويرفعه في القمة، فهذا المجتمع لم يرتفع ولم يرتق بنفسه وبإرادة ذاتية جمعية نابعة من داخله لترتقي ارتقاءً ذاتيا تدريجيا، وإنما جاء الارتقاء مفاجئا بقيادة قائد، هو الرسول محمد الذي قاد صحوة دينية أخلاقية، وطالما كانت الصحوة بقيادة قائد فلا بد أن يختل المسار بمجرد غياب هذا القائد، وذلك على عكس ما إذا كانت الصحوة في العقل الجمعي بإرادة جمعية ذاتية، لكنهم كانوا أبعد من ذلك، ثم بعد رحيل النبي عاد المجتمع العربي ليهوى مرة أخرى، وهذه سنة الله في الكون.

والتحولات النفسية هي طبيعة في النفس البشرية غير ممكن تجنبها، وهذا ما حدث عقب وفاة النبي إذ تحول المجتمع العربي بعد رحيله، ففي أثناء وجود الرسول كانت الوفود تتدفق من كل اتجاه متحالفة معه ومعلنة اعتناقها دينه (في عام الوفود)، وبمجرد رحيله، توافدت الوفود ذاتها على الخليفة أبي بكر لتعلن انشقاقها عنه. وهذه لمحة بسيطة من التحولات في المجتمع العربي والتي لا يمكن إنكارها أو تفسيرها بمعزل عن الطبيعة النفسية، لأن النبي لم يكن يمثل لهم أي تهديدات من أي نوع، وإنما هم الذين بعثوا الوفود للتحالف معه. وهذه التحولات الاجتماعية لم تكن فقط في مجموعة المنافقين أو المؤمنين ظاهريا كافرين باطنيا، لكن في الواقع هذه التحولات هي من الطبيعة النفسية لأي مجتمع، وقد طالت كافة شرائح المجتمع حتى كبار الصحابة -نسأل الله لهم المغفرة، حتى أن أبي بكر شخصيا، تغيرت شخصيته وضاق صدره في اتخاذ قرار التعامل مع المعارضين، وكان عصبيا على غير عادته، وهذا من طبيعة الحكم والمسؤولية، كثير من الحكام تتغير نفسياتهم عقب تولي مقاليد الأمور مباشرة- فشملت هذه التحولات جميع فئات المجتمع العربي وعلى فترات متتالية وبدرجات متفاوتة نسبيا، بدأت بارتداد البعض عن الإسلام وإعلانهم ذلك صراحة، ثم تطورت إلى محاولات بعض المؤمنين الانفصال السياسي عن الدولة، شيعة علي أبي طالب في عهد أبي بكر، ثم الخوارج بعد ذلك، ثم تطور التحول المجتمعي إلى مرحلة الفتنة الكبرى، ثم تطورت إلى مرحلة الحرب الأهلية بين كبار الصحابة، ثم توارى الحديث باسم الدين وبرز صوت السياسية عاليا حتى سيطر على المشهد.

وعلى الجانب الأخلاقي، استمرت حركة المجتمع وتحولاته على ذات الوتيرة، وهذا ما يؤكده قول الرسول لهم: " أحسنكم أخلاقا في الجاهلية أحسنكم أخلاقا في الإسلام".. فلو تدبرنا هذه العبارة سنكتشف عمقها النفسي، فقد عبر الرسول الكريم عن حقيقة وسنة كونية من سنن الله، وهي أن الأخلاق مبعثها النفس البشرية وليس الدين (المنهج النظري)، وأن الانتقال لا يكون كليا من الضلال إلى النور، بل يأتي تدريجيا فيستمر ويستقر، أو مفاجئا فينقلب، والنبي لم تأت أخلاقه النبوية مفاجئة، وإنما كان طوال حياته نموذج للأخلاق الفاضلة حتى لقبه قومه بالصادق الأمين، وحتى وإن بدأت البعثة والوحي فجأة ببلوغه سن الأربعين، وانتهت الرسالة فجأة بوفاته، لكن مساره الخلقي لم يتغير قبل وبعد البعثة، فكان قبل البعثة نبي وتميز بأخلاق النبوة، فقط زادت عليه الرسالة ببدء البعثة، على عكس الكثير من الصحابة الذين كانوا في أسوأ حال من الأخلاق والدين، ثم اهتدوا فجأة، وهذا ما يعني حتما تعرضهم لموجة ارتدادية نفسية، لأن النفس البشرية من طبيعتها أن تتوازن، فالإنسان الفاضل الخلوق يحب الفضيلة والأخلاق أيا كان دينه، فمن كانت أخلاقه حسنة قبل ظهور الدين ستكون أفضل مع الدين، وهذا ما يعني أن الإنسان لا يمكنه السيطرة كليا على أخلاقه وميوله النفسية بمجرد اعتنقاه الدين أو إعلانه ذلك، بل هناك نوازع نفسية عميقة تؤثر على تدينه وتحدد مساره ومستواه، هذه النوازع مبعثها النفس والمنشأ الاجتماعي والجينات الوراثية المتوارثة بين الأجيال، خصوصا في هذا المجتمع المتوحش ماديا ومعنويا. ما يعني في النهاية أن التدين غريزة كما غريزة الأمومة، وأن الفضيلة غريزة نفسية عميقة لا يصنعها الدين، وإنما ينظمها فقط إن وجدت في النفس بداية، فإذا تغيرت النفسية تغيرت معها الأخلاق والمبادئ. ولذلك ليس من المنطق العقلي أو النبوي القول بأن الصحابة انتقلوا من أسوأ حال في الجاهلية إلى أفضل حال في الإسلام مع استمرارهم على ذلك ليكونوا قدوة تشريعية للمسلمين بعدهم، بل إن المنطق النبوي يقول أن أخلاقه هو نفسه لم تتغير وإن تطورت عبادته، فكانت أخلاقه قبل النبوة أخلاق نبوة، أما الصحابة فكانوا عكس ذلك وتسري عليهم القواعد الاجتماعية لعموم العرب.

فبعض المسلمون تحول إلى الارتداد عن الإسلام كلية وزهد شعائره وتعاليمه بعدما شبع وارتوي منها، والبعض تحول إلى المرحلة الوسطى، حيث ظل على الدين من حيث الهيكل والنصوص، لكن أخلاقه ومبادئه في العمق النفسي تراجعت دون إرادته، وهو ما حدث في الفتوحات، إذ كان الجيش العربي يقوم بأبشع عمليات القتل والنهب والسرقة والتخريب والخطف والاستعباد والاغتصاب بحجة

ملك اليمين، أي نكاح السيدات التي تم خطفها لا بعقد زواج وإنما بمبرر ملكية هذه السيدات كما تباع الحيوانات وتشترى في الأسواق، وكل ذلك تحت مظلة الهيكل والنص الديني، وأبرز مثال لذلك هو خالد الوليد الذي مارس أبشع أنواع البلطجة باسم الدين. ارتكب جرائم حربٍ ضد الشعوب المجاورة شملت كل أنواع الإهانة والاستهانة بالإنسانية وانتهاك كل حقوق الإنسان.. لم يكتفي بالقتل والذبح للأسرى والأبرياء وإنما مثل بجثث قتلاه (مالك نويرة مثال، حيث قطع خالد رأسه ووضعها في النار وطبخ عليها طعامه وأكل ببشاعة ليرهب الناس واعتبر ذلك نشرا للدين) وصار الفقهاء يشرعنون سنته في وضع أحكام الجهاد وأحكام الرقيق والعبيد اقتداءً بما فعله العرب بعد الرسول.. وكل هذا من تاريخ عصر البلطجة المسماة بعصر الفتوحات، وقد مورست فها كافة جرائم الحرب وأبشعها، لكن لا أحد منا يجرؤ على القول بذلك لأن من قام بذلك هم الصحابة المرضي عنهم، ومن قتلوا بعضهم في حروب أهلية هم الصحابة المرضي عنهم أيضا، مع إن الله جل وعلا يقول من قتل مؤمنا عامدا متعمدا فجزاءه جهنم خالدا فيها.. فهذا التاريخ هو تاريخ العرب وقوميتهم وليس من الإسلام، وعلى السعودية وحدها أن تختص بتدريسه في جامعاته ومدارسها أو أن تحجبه عن عقول أطفالها، لا أن يصبح جزء من تعاليم الدين الإسلامي، وهذا ما يؤكد حتمية وضرورة الفصل بين الدين والتاريخ العربي لأن الصحابة يمثلون المجتمع العربي أكثر مما مثلوا الإسلام.. أما نحن في مصر فما يخصنا هو فقط الدين الإسلامي وليس تاريخ السعودية.

وقع ذلك بسبب ما حدث من تغيرات نفسية للمجتمع العربي، ونحن لا نريد أن تكون للتقلبات النفسية والاجتماعية للعرب تأثيرا على التشريع الديني. وقد كان معدل الفساد عاليا قبل الإسلام فارتفعت موجة التدين العاطفي في الإسلام بالقدر المقابل، ثم بعد وفاة الرسول حدث انقلاب، جاء تدريجيا من إنكار الدين والخروج عنه وهو ما حدث من ارتداد الكثير من القبائل العربية بعد وفاة النبي لأن ضلالها كان طاغيا قبل الإسلام ولم يثبت الإسلام في نفوسهم ولذلك ارتدوا كليا، وأما الطائفة الثانية فهي تلك التي لم ترتد كليا ولكن حدث عندها مزج من الطبائع النفسية بين ما هو قبل الإسلام وما هو في الإسلام، فتغلبت الدوافع النفسية على المبادئ الدينية التي أصبحت نظرية، فصاروا يباشرون حياتهم الجاهلية ممزوجة بشعائر الإسلام، كما يحدث في عصرنا أن ينقلب شاب من البلطجة والفسق إلى التدين السلفي، ثم سريعا يدمج بين القديم والحديث فيلجأ لممارسة البلطجة بغطاء ديني، وهو ما نشهده في العمليات الإرهابية التي تمارس القتل والترويع والخطف والنهب والعدوان على الأبرياء باسم

الدين أو لخدمة الدين وتحت غطائه، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، هذه النوع من التحول النفسي هو الأخطر لأن المتحول يعيش طورا نفسيا مشبعا بالبلطجة والعدوان ممزوجة مع المشاعر الدينية، وهو ما يخلق لديه انفصاما عقليا وتشوهات فكرية، كل ذلك يأتي مندمجا في نوستالجيا التاريخ العربي، حتى أننا نجد الشباب الإرهابيين يأخذون لأنفسهم مسميات وألقاب وكنى تعود لعصر الصحابة، حتى أنهم لا يمارسون الجهاد (المقتنعين به) بلغة عصرنا وبوسائل عصرنا وإنما يعيشون في كهف التاريخ الذي يتبناه الأزهر باعتباره إسلامي.

وهذا ما حدث في المجتمع العربي عقب وفاة الرسول مباشرة، إذ نجد الفئة الأولى وهم من ثبتوا علي دينهم، والفئة الثانية وهم من ارتدوا عن الإسلام تماما، وأما الفئة الثالثة وهي الأخطر هم الذين دمجوا الاثنين معا فمارسوا عاداتهم الجاهلية ممزوجة بالشعائر الدينية، وهذا ما نجده واضحا في ممارسة الكثير من الصحابة لأعمال القتل والعدوان والاغتصاب وكافة مظاهر الإجرام التي ارتكبت في عصر الفتوحات، حتى أن الخليفة الأول أبي بكر الصديق رفض ما فعله خالد الوليد والصحابة حوله عندما اقتحموا قصور ملك الفرس ونهبوها وخربوها وأرسلوا للخليفة قلنسوة ملك الفرس يتباهون بها، وكان ثمنها يصل إلى مائة ألف درهم، وغيرها من المجوهرات والذهب.. ورفض أبي بكر نهب قصور كسرى ملك الفرس.. وقد فعل خالد ذلك ومعه عشرات الآلاف من الصحابة الكبار وحفظة القرآن كانوا يتباهون بفعل ذلك، حتى أنهم أرسلوا بعض المسروقات إلى الخليفة ضمن الخمس المقدر شرعا فرفضها، وأرسلوا له فيلا فأعاده مرة أخرى، وأوصاهم بألا يعتدوا على مباني أو أطفال أو شيوخ وعجائز أو شجر أو زرع أو حيوان أو خلافه، ومعنى إرجاع أبي بكر لهذا الفيل المسروق، فهذا يؤكد أن ما فعله خالد والصحابة كانت جريمة سرقة ونهب في نظر أبي بكر الصديق، ومع ذلك أقدم باقي الصحابة وخالد معهم على فعل هذه الجريمة، دون أن يخرج من بينهم من يذكرهم بأنها جريمة لا يقبلها الإسلام.. فقد اختلطت عليهم الأمور ودمجوا بين ما تعلموه من الإسلام وما شبوا عليه في صغرهم.

والغريب أن خالد ومن معه من الصحابة كانوا يرسلون حملات العبيد والسبايا مسلسلة مثل قطعان الغنم من بلادهم إلى مركز الخلافة بالمدينة ومعهم الخمس من الغنائم والمنهوبات والمسروقات مع هذا الفيل، لكن الخليفة أبي بكر نفل خالد نهب قصور كسرى، أي عاتبه أو وبخه أو رفض هذا الأمر لأنه ليس نشر للإسلام، وأمر أبي بكر برد هذا الفيل إلى أصحابه وبلاده، لكنه لم يأمر برد السبايا والعبيد إلى بلادهم ! بل وزع منهم هدايا على كبار الصحابة، فهل أن الإسلام يقول بأن خطف الفيل هو

فعل مجرم ولا بد من رده، بينما خطف طفل إنسان لا يعتبر فعلاً مجرما في الإسلام ولا يوجب رده؟ وهل أن نهب قصور كسرى وسرقة المجوهرات منها يعتبر جريمة في الإسلام ولهذا رفضها الخليفة أبي بكر بينما قبل الأطفال والبنات المخطوفين على اعتبار أن الإسلام لم يعتبر ذلك جريمة وكأن الإسلام يعتبر الذهب والفضة أغلى من الأطفال؟ وأوجب رد الذهب والفضة لأصحابها ولم يأمر برد الأطفال لأهلهم؟.. (نترك الإجابة للقارئ الكريم بعد أن يعود بنفسه للمصادر التاريخية؛ ابن كثير مثال من ص ٤٢٠ إلى ص٦٠٠ الجزء السابع من كتاب البداية والنهاية)

كل ذلك وقع بفعل التحولات النفسية التي جعلت من العرب يمارسون عاداتهم الجاهلية من السلب والنهب ويرونه جهادا في سبيل الله، ولا تشمئز نفوسهم من هذا السلوك الإجرامي لأنهم نشأوا عليه منذ الصغر، بل أقدموا على ما هو أبشع من ذلك دون أن يدركوا كونه أبشع؛ إذ اعتدوا على حرمات البشر، قتل وذبح وخطف أطفال ونساء واستعباد دون أن يدركوا كون هذا الفعل مجرم في الإسلام، فكيف يأمرهم الإسلام بعدم الاعتداء على الأموال والزرع والحيوانات والشجر وهي ملك للناس، ثم يسمحون لأنفسهم باغتصاب هؤلاء الناس وخطف وسبي أطفالهم؟ أيقون الشجر والحيوان المملوك لإنسان أغلى قيمة من الإنسان نفسه؟ هل يكون الشجر والحيوان والمباني التي نصحهم الرسول وخليفته بعد العدوان عليها أرقى قيمة من أولاد وبنات الإنسان؟ في حين أن هذا الشجر والحيوان هو مملوك لذات الإنسان. يعني لو افترضنا أنهم ذهبوا لينشروا الإسلام في بلد، وقابلهم رجل اعترض طريقهم ومنعهم من نشر الدين، فما ذنب بناته وزوجته أو أمه أن ينتهك عرضها؟ كيف يأخذهم المسلمون سبايا وعبيد؟ ما جريمتهم؟

هذا هو ما حدث خلال فترة الفتوحات، إذ ظهرت التشوهات النفسية بوضوح في عقلية شخص يدعوا إلى الله وأثناء دعاءه لله ينهب ويسلب ويغتصب ويخطف الأطفال والنساء والبنات ليبيعهم في أسواق النخاسة !، وهو عمل غير إنساني لا يمكن أن يقبله إنسان متزن نفسيا وعقليا، وهذا ما أوقع الفقهاء على مدار العصور في إشكالية استكشاف المبادئ الأصلية للدين الإسلامي من القرآن، وما بين التطبيقات العملية الإجرامية التي مارسها المسلمون الأوائل بعد وفاة الرسول، فدمج الفقهاء بين الاثنين مخافة تجريح الصحابة واعتبارا لحسن الظن بهم كونهم رفاق رسول الله في الهجرة والنصرة والمعاش والدفاع.. فجرحوا في الدين صونا للصحابة، كونهم تعلموا الإسلام على يد رسول الله، وليس من المستساغ القول بانحرافهم بعد وفاته، لكن الوقائع العملية تثبت طبيعة النفس البشرية في التقلب

والانقلاب كما ذكر القرآن عن قوم موسي الذي نجاهم من فرعون وعبر بهم البحر بمعجزة فورية، ثم بمجرد أن تركهم وخلا إلى ربه أربعين يوما عبدوا عجل السامري.

وما يؤكد انحراف العرب عن الإسلام لا انحراف الإسلام ذاته عن القيم، هو أن ما فعله خالد الوليد في عين التمر، حينما دخل الحصن فوجد بداخله كنيسة مغلقة أبوابها، فتحها فوجد بداخلها أربعين طفلا فأخذهم سبايا وعبيد تم بيعهم في أسواق النخاسة التي افتتحت حديثا في المدينة بعد وفاة الرسول، ودون أن يعترض أحد من كبار الصحابة والفقهاء على وجود الأطفال في هذا المشهد، فلا دخل لهم في حرب ولا غيره، وقد نهى الله عن العدوان ونهى الرسول تحديدا عن الاعتداء على الأطفال وبيوت العبادة ورجال الدين، لكن العرب تركوا الدين وعادوا لعاداتهم في الجاهلية لسبي الأطفال والنساء.. والغريب أن أغلبية المهاجرين الذين ذاقوا مرارة العبودية والتنكيل قبل الإسلام، وتم عتقهم في الإسلام وصاروا أحرارا بفضل الإسلام، كانوا بين من مارسوا الاستعباد والقهر علي شعوب البلاد المفتوحة، وصاروا هم أسياد يستعبدون من حولهم بذات الطريقة السابقة التي تم استعبادهم بها قبل الإسلام، لأنه كما قلنا أن الأخلاق والفضيلة نابعة من النفس وليس من الدين، فمن كانت نفسه ذكية أبية سيظل هكذا، كما كان الرسول، ومن كانت نفسه غير ذلك فلا بد أن ينقلب على نفسه، فالدين ينظم الفضيلة إن كانت موجودة بالنفس ويهذبها ويحسنها فقط ولا يخلقها بداخل النفس، ولذلك، نجد أن الله في القرآن قد حسم الأمر بشأن أبي لهب قائلا: تبت يدا أبي لهبٍ وتب" أي أنه حسم الأمر لأن أبي لهب كانت نفسيته مغمورة كليا في الغي والضلال. وقال سيد الخلق المصطفى:" أحاسنكم أخلاقا في الجاهلية أحاسنكم أخلاقا في الإسلام"، وهذه من طبيعة النفس البشرية مثلما حدث في دولة ليبريا..

ففي القرن الماضي كانت أمريكا تمتلئ بالعبيد من أصول أفريقية، يعيشون في الأكواخ للعمل عبيد في حقول البن والقصب عند أسيادهم الأمريكان البيض، هؤلاء العبيد لم يحرروا أنفسهم بأنفسهم، كما لم يحرر العرب أنفسهم بأنفسهم من الضلال، ولكن جاء النبي ليحررهم، كما جاء مارت لوثر ليحرر العبيد من حقولهم، فقررت السلطات الأمريكية إخراجهم من البلد، فاختاروا لهم مساحة ٣٠٠ ألف كيلو متر مربع في غابات أفريقيا، وجعلوها دولة لهم، فانتقل إليها العبيد المحررين من أمريكا، وسكنوا في هذه المنطقة وصار لهم دولة جعلوا لهم عاصمة في وسطها أسموها ليبريا أي الحرية، ثم بدؤوا يمارسون سلطاتهم على السكان الأصليين لهذه المنطقة والذين يعيشون في الغابات، كانوا يستعبدونهم ويسخرونهم بذات الطريقة التي استعبدهم بها الأمريكان من قبل، لأن روح العبودية لم

تتحرر ذاتيا، فهم لم يتخلصوا منها ولم يحرروا أنفسهم من ويلاتها وإنما حررهم مارتن لوثر، فمارسوا العبودية على غيرهم بذات الفلسفة الغريزية في نفوسهم.. وهكذا العرب، حررهم الرسول من الجهل والهمجية والبداوة والعبودية، لكنهم لم يحرروا أنفسهم بإرادة ذاتية وعقلية جمعية، ولذلك بمجرد وفاة الرسول عادوا إلى سيرتهم الأولى ومارسوا الاستعباد والنهب والسلب والإجرام بذات الطريقة الجاهلية..

فالنبي نقل المجتمع العربي من القاع إلى القمة، وبمجرد وفاة النبي وقع المجتمع في القاع مرة أخرى.. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يظل حاله في القاع المتأخرة كما كان في القاع الأولى؛ لأن هناك تجربة بينية مر بها ووصل إلى قمتها وتركت أثرها في نفسه، فمهما هبط إلى القاع مرات أخرى فلابد أن القاع التالية للتجربة تختلف عن السابقة عليها، ولذلك نقول هوى المجتمع العربي بعد وفاة الرسول مباشرة إلى قاع من نوع مختلف نوعيا، فعاش الفساد الخلقي والفكري والسلوكي ممزوجا بطبع التجربة الإسلامية، وهذا ما نجده واضحا في تحولات الصحابة فكريا وسلوكيا رغم إسلامهم ورغم معاصرتهم للرسول الكريم..

وما يؤكد ذلك، هو العديد من الروايات التي وردت في المصادر التاريخية الإسلامية ذاتها والتي تؤكد أن العرب تحولوا عن الإسلام تماما ولم يبق من عهد الرسول إلا الصلاة، لم يبق عندهم شيء كان على زمان رسول الله إلا الصلاة، وقد أحدثوا فيها ما أحدثوا. فقد أخرج البخاري في صحيحه، والمقدسي في الأحاديث المختارة، وغيرهما، بأسانيدهم عن الزهري أنه قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيِّعت". وفي رواية أخرى قال: ما أعرف شيئا مما كان على عهد النبي، قيل:الصلاة؟ قال: أليس ضيَّعتم ما ضيَّعتم فيها؟! (صحيح البخاري١٣٣/١ كتاب مواقيت الصلاة وفضلها، باب تضييع الصلاة عن وقتها (الأحاديث المختارة ١٠٣/٥ شعب الإيمان ١٣٤/٣.

وأخرج الترمذي في سننه، وأحمد بن حنبل في المسند عن أنس أنه قال : ما أعرف شيئا مما كنا عليه على عهد النبي (ص). فقلت: أين الصلاة ؟ قال: أولم تصنعوا في صلاتكم ما قد علمتم ؟ (سنن الترمذي ٦٣٣/٤. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. مسند أحمد بن حنبل ١٠١/٣، ٢٠٨.) وأخرج مالك بن أنس في الموطأ عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف شيئا مما أدركت عليه الناس إلا النداء للصلاة. (الموطأ، ص ٤٢.) وأخرج أحمد في المسند عن أم الدرداء أنها قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو

مغضب، فقلت: مَن أغضبك ؟ قال: والله لا أعرف منهم من أمر محمد (ص) شيئا إلا أنهم يصلون جميعا ، وفي رواية أخرى قال: إلا الصلاة. وأخرج أحمد في مسنده عن أنس أيضا أنه قال: ما أعرف شيئا مما عهدت مع رسول الله (ص) اليوم. فقال أبو رافع: يا أبا حمزة، ولا الصلاة؟ فقال: أوليس قد علمت ما صنع الحجّاج في الصلاة؟ . وأخرج أحمد في المسند، والبغوي في شرح السنة، والبوصيري في مختصر الإتحاف، والمقدسي في الأحاديث المختارة، بأسانيدهم عن أنس قال: ما أعرف فيكم اليوم شيئا كنت أعهده على عهد رسول الله (ص) غير قولكم: لا إله إلا الله. قال: فقلت: يا أبا حمزة، الصلاة؟ قال: قد صليت حين تغرب الشمس، أفكانت تلك صلاة رسول الله؟ (مسند أحمد بن حنبل ٢٧٠/٣. شرح السنة ٣٩٤/١٤. مختصر إتحاف السادة المهرة ٣٠٧/٢. الأحاديث المختارة ١٠٢/٥).

وروى البخاري عن علاء المسيّب عن أبيه قال: لقيت البراء عازب فقلت له: طوبى لك، صحبت النبي وبايعته تحت الشجرة، قال: يا بن أخي؛ إنك لا تدري ما أحدثنا بعده "

قال حذيفة؛ لقد تركنا رسول الله يوم توفى وما أحد إلا وقد غيّر عمّا كان عليه، إلا عمر وعبد الله عمر.." وهذه شهادة ذات دلالة في صحابي كبير على نفسه ومن كانوا حول النبي من الصحابة.. وهي شهادة تؤكدها لنا السيدة عائشة أم المؤمنين حيث قالت: ما رأيت ألزم للأمر الأول من عبد الله عمر " !

وروى البخاري عن رسول الله قوله "واللهِ ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها"

فهذه الأحاديث وغيرها تتحدث عن التغيرات النفسية الوارد حدوثها في أي مجتمع ذات طبيعة مشابهة، فالأمر ليس من باب سب أو مدح أشخاص أو تقديس آخرين أو تجريح آخرين، بل فقط من باب دراسة التغيرات الاجتماعية الواقعية في أي مجتمع، وهي تجسد صورة مطابقة لما حدث في المجتمع المصري أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير، إذ أن كافة طوائف الشعب المصري (مسلمين ومسيحيين ويساريين ويمينيين وإخوان وعلمانيين وملحدين وعمال وعلماء وبسطاء وأرستقراط وفقراء وأميين ومثقفين) جميع فئات الشعب انصهرت واندمجت في بوتقة تآلف إنسانية ليس لها مثيل في أحداث التاريخ الكبرى، جميع التيارات السياسية المدنية وغير المسيسين، كانوا أشبه بالخصوم الذين اتحدوا لمواجهة

الدب الأكبر، ثم بمجرد نجاح الثورة واكتمالها، عادت ريما لعادتها القديمة وبدأ التصارع بين الأحزاب والتيارات السياسية وعاد اللعب في السياسية وبالسياسة الرديئة لتحقيق مكاسب فئوية على حساب الغير، عادت المنافسة غير الشريفة بين الأحزاب والتيارات، عاد الشقاق في الرأي السياسي حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، لدرجة أن وقعت حالات انفصال بين الأزواج بسبب الخلافات السياسية.. عادت أيادي التواطؤ تمتد من تحت الطاولة حتى انهار المزاج النفسي النقي الذي عاشه الشعب خلال فترة الثمانية عشر يوما في ميدان التحرير.. كان المدينة الفاضلة التي تمنينا أن تمتد أطرافها وحدودها لتطول أطراف الوطن كله.. لكن هكذا طبيعة المجتمع من الناحية السيكولوجية، بغض النظر عن المخطئ والمصيب، فالجميع تغير مزاجه وتغيرت الرؤى السياسية حتى تصارعت، وهذه طبيعة نفسية للعقل الجمعي يستحيل الإفلات منها، وليس مجتمع العرب بأفضل حال من المجتمع المصري، فالعرب عاشوا أجمل أيام عمرهم ملتفين حول نبي هو خير أنبياء الله في تآلف وتواد منقطع النظير، واندماج وتكافل وتضامن اجتماعي بين المهاجرين والأنصار، ثم بعد وفاة النبي انتهى شهر العسل وعاد المجتمع العربي ليمارس حياته وفق ظروفه وطبيعته النفسية، ولذلك نقول، ليس هناك جدوى من تحديد الصحابي المخطئ من المصيب أو لعن وسب المخطئ وتمجيد وتقديس المصيب، فالأمر مختلف، والغاية هي فرز التراث الديني ومبادئه وعزلها عن ثقافة المجتمع العربي وتاريخه.

فالروايات التي رصدناها في كتب التراث تؤكد هذه الانحرافات النفسية الطبيعية في المجتمع العربي من منظور رأسي على المجتمع ككل، وثقافته وسلوكياته ووجهات النظر، وهي في مجملها تدل على أنهم انفصلوا عن المنهج الذي وضعهم النبي عليه، وضيّعوا كل شيء في الدين إلا شهادة ألا إله إلا الله كما في بعضها، أو والصلاة كما في بعضها الآخر، أو الأذان للصلاة كما في بعض ثالث، أو الصلاة جماعة كما في بعض رابع. وبالتالي، ليس من المنطقي أن نأخذ عنهم كل ما تركوه حلوه بمره باعتبارهم خير من اتبعوا رسول الله، لأنهم جاؤوا في مرحلة مبكرة من الإسلام، مثلوا أزهى عصوره وأسوأ عصوره على الإطلاق، فهم قد انتقلوا من الضلال إلى النور ثم وقع الارتباك والاضطراب، فعادوا مرة أخرى كما لو كانوا يعشون في الظلام، وبالتالي فما يجب التركيز عليه اليوم هو دراسة أثر العرب على المنهج الإسلامي، ودراسة أثر الإسلام على المجتمع العربي، بمعنى دراسة الأثر الذي بقي في العرب بعد رحيل النبي، بقي في أخلاقهم وسلوكياتهم وعاداتهم وعباداتهم.

وفي تقديري قد يكون العرب قد بقي في نفوسهم من أثر الإسلام فقط ٥٠٪ من مبادئه وقيمه، وقد يكون أقل أو أكثر، فلا يمكن أن يكونوا قد عادوا إلى عصور الجهل كلية، ولا بد أن الإسلام ترك أثرا في نفوسهم، لكن هذا لا يعني أن كل ما في نفوسهم هو الإسلام. بل فقط اندماج بين بعض تعاليم الإسلام مع ما ترسب في نفوسهم من عادات وأعراف الجاهلية الأولى. وفيما يلي سنتناول بعض المعالم والملامح السلوكية للمجتمع العربي قبل وبعد تلقي جرعة العلاج.

مظاهر التحول في المجتمع العربي

١- على صعيد السلطة السياسية، كان بنو أمية قبل الإسلام من أسياد العرب في قريش، وأصحاب الوجاهة في مكة، وببعثة الرسول انتقلت السيادة من بني أمية إلى الرسول والخلفاء من بعده ثم عادت إلى بني أمية مرة أخرى على يد عثمان عفان ثم معاوية أبي سفيان ولكن في زيّ إسلامي جديد، وهذا المعاوية ووالده أبو سفيان مشكوك في إسلامهما كما أوردت المراجع التاريخية، لأنهما من المؤلفة قلوبهم أي من فلول قريش الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة ومحاصرتهم فيها. فوجدوا أنفسهم في الأمر الواقع، ودخلوا جملة مع غيرهم الذين رفضوا أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون، ففكروا بذكاء ودهاء أكثر، ولم تمر عامين حتى توفي النبي وبدأت تلوح لهم الفرصة مرة أخرى لاسترداد المجد الضائع.

٢- الطائفية والعصبية القبلية كانت سائدة قبل الإسلام، ولذلك برزت أسماء القبائل وفروعها كعلامات تجارية تنظم سيادة الطبقات الاجتماعية على بعضها، لكن الإسلام صهر كل أفراد المجتمع وأوجد بينهم لحمة إنسانية من نوع جديد بعدما حدثت البيعة والهجرة والتجرد والتآلف في الإسلام بين المهاجرين والأنصار، اقتسموا أموالهم وبيوتهم وأراضيهم ومعاشهم، تضامنوا مع بعضهم البعض في واقعة لا نظير لها في التاريخ على الإطلاق، ثم يبدأ التحول بانسلاخ الأنصار عن المهاجرين، وتطل العصبية القبلية بوجهها القبيح من جديد بمجرد وفاة الرسول، حيث ترك الأنصار الرسول قبل دفنه وانسلخوا من المهاجرين واجتمعوا في مؤتمر خاص بهم في سقيفة في حي تابع لهم للاتفاق على السلطة، واختاروا من بينهم سعد عبادة ليكون أميرا عليهم بعد وفاة الرسول، ولما سمع بذلك كبار الصحابة من المهاجرين (عمر الخطاب وأبي بكر وأبي عبيدة وغيرهم) ذهبوا إليهم ليعيدوا إلى الأمور توازنها لبعض الوقت ويحاولوا إعادة الكفة للمهاجرين من جديد. لكن ظهرت عصبية من نوع آخر هي عصبية لآل بيت

رسول الله من الذين التفوا حول عليّ طالب واعتبروه أقرب صلة بالرسول ومن ثم أحق بخلافته.. ومع ذلك استمرت الأمور في مغالبة العصبية القديمة والحديثة حتى تولي الخلافة أبي بكر. وتركوا النبي دون دفن لمدة ثلاثة أيام كاملة حتى انتفخت بطنه، ولم ينتبهوا له إلا بعد تسوية نزاعاتهم على السلطة، وكان المهاجرون يرون بأن من ضحي مع الرسول وهاجر من مكة تاركا أمواله وأهله هو الأولى بالحكم، بينما كان الأنصار يرون أن المدينة هي بلدهم أصلا ولا يحق لأحد من قريش (المهاجرين) أن يحكم أهل المدينة.. وبالطبع فكلتا النظريتين خطأ وقائمة على الطائفية والاستحقاق وليس الكفاءة أو الشورى، فالمهاجرين يرون أنهم الأحق بها بحجة أنهم الأكثر قربا من الرسول وتضحية، بينما الأنصار يرون أحقيتهم في حكم بلدهم وأن المهاجرين ما هم إلا ضيوف ولا يحق لهم المطالبة بالحكم. وهذا كله من مظاهر الطائفية والعصبية والأنانية لأن الحكم يكون للأكفأ وليس بالاستحقاق، وهذا ما يؤكد انصرافهم عن مغزى الإسلام مبكرا وانشغالهم باستحقاق التركة، أي كأنهم شعروا بأن الوحي توقف وأن الإسلام انتهى ولم يبق إلا توزيع المستحقات..

٣ـ كانت عادات العرب قبل الإسلام قائمة على الطبقية والطائفية والعصبية القبلية، والإغارة علي بعضهم البعض والسلب والنهب، وتوقفت عمليات الإغارة والسلب والنهب والسبي، وكانت حروب النبي جميعها دفاعية فقط ولم يهجم على أي من المجتمعات المجاورة له، ثم بعد وفاته عادت القبلية والعصبية وعادت الإغارة والسلب والنهب، بدأت بالهجوم على المعارضين وعادت ظاهرة السبي "خطف النساء والأطفال" لأول مرة في حروب الردة، وأمر أبو بكر وعمر الخطاب برد هذا السبي لأهله مرة أخرى، ثم استمر الهجوم علي الشعوب المجاورة وخطف وسبي النساء ونهب الدور والقصور وإن كانت حجتهم هي الخضوع لدين الله، أو" تعبيد العباد لرب العباد" لكن في الحقيقة كان هو دين العرب أو ما ترسب في نفوسهم من الجاهلية بغطاء جديد. واستمرت ذات الفلسفة العربية في إخضاع الناس عنوة لدين الله. مع أن دين الله ليس رديئا ولكن العنوة هي الرداءة التي رفضها دين الله.

٤ـ من الملاحظ عند قراءة القرآن أن الرسالة كانت مرتكزة على محورٍ إقليمي محدد، وهو منطقة شبه الجزيرة ، مكة وما حولها، ومن خلال القراءة المستمرة نتبين أن القرآن عالج سمات وخصائص نفسية فكرية في المجتمع القرشي وليست في المجتمع الرومي مثلا، بل جاءت إشارات القرآن إلى الشعوب

الأخرى عرضا في سياق " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" و " وما أرسلناك إلا هدىً ورحمة للعالمين " بينما لب الرسالة والحوارات القرآنية والقصص القرآني إجمالا كان يرتكز على المجتمع العربي ويحلله فكريا ونفسيا طول الوقت من خلال التعامل مع الأحداث والوقائع المحلية، كما أوضحنا أن الله أنزل القرآن الكريم باللغة العربية ليكون حجة عليهم ودليل إدانة بلسانهم وينذرهم وقد أفرط في لهجة الوعيد وتحديدا باللغة العربية لعل ذلك يحدث صدى في القوم، ونبي منهم شاهد عليهم، أي محور القرآن يرتكز على المحلية العربية كعلاج روحاني لهذه المنطقة الموبوءة المتوحشة ماديا وفكريا، ماديا لأن نشاطهم الغالب هو الإغارة والعنف والغلظة أي طابع الحربية، ومتوحشة معنويا بسبب النفاق والمكر الذي تزول منه الجبال، حتى أن الله قال: الأعراب أشد كفرا ونفاقا، وهو ما يعني أن العرب الحضرية بها الكفر والنفاق مادة أصيلة وإن كان أقل.

وفي العموم جاءت الرسالة علاجا مركزا لهذه النوعية من الكائنات البشرية، أي محلية وقومية وعرقية، ووردت الإشارة إلى الشعوب والمجتمعات الأخرى عبارة في سياقات خفيفة من نوعية " وما أرسلناك إلا هدىً ورحمة للعالمين " ولذلك كان المركز الدعوي للنبي هو مكة وما حولها من مجتمعات، مكة خصص لها ١٣ عاما كاملة، وعشرة أعوام في المدينة يستعد لمكة.. بل إنه حتى حدث الهجرة من مكة إلى المدينة لم يكن اختياريا في سبيل توسع دعوي، كانت الهجرة اضطرارية حينما أحكموا عليه الخناق، فاضطر للهجرة والإعداد لدعوته من خارج مكة، إذن الهجرة جاءت كرد فعل للفوران الذي حدث في مكة، ولو لم يكن هذا لما هاجر النبي لأن رسالته ومهمته مرتكزة على مكة أم القرى.. ثم بعد استقرار الأمور أرسل سفراء له في الشعوب المجاورة، ولم يتحرك هو بنفسه إلى القياصرة يخاطبهم لأنه ارتكز على منطقة شبه الجزيرة كمنطقة موبوءة بالكفر والنفاق ولها الأولوية، وأما غيرها من الشعوب فالدين بالنسبة لها مجرد تحصين وليس علاج لمرض قائم ـ بينما نجد الصحابة بعد وفاته زاد نشاطهم في الخارج بوحشية غريبة، وكأنهم هم أنبياء موجهين إلى هذه الشعوب وكأن هذه الشعوب هي المريضة بالعدوى.. وأطاحوا بكل الشعوب المجاورة لهم وسحقوا الحضارات وأغلبهم هجر المدينة وعاشوا حياتهم في الخارج بحجة الدعوة في المستعمرات التي احتلوها، وعادت مكة كما كانت قبل البعثة تقريبا مع أنها موطئ العدوى وسبب وصف العلاج.. والخلاصة أن نشاط النبي كان مرتكزا على موضع الخلل العقائدي في المجتمع العربي، بينما هم بعد وفاته ركزوا نشاطهم وشحذوا قواتهم وطاقاتهم جميعها للخارج، حتى لم يتفقهوا في دينهم وتركوه للموالي والأعاجم من الخارج.. حتى إلى يومنا هذا بقي للإسلام صدى في الشعوب الأخرى أقوى من صدى صوته في

السعودية، وما زال غالبا على الشعب العربي نزعته القومية وليست الدينية الإسلامية، حتى في التعامل مع الوافدين من جنسيات أخرى يكون الوجه الأبرز في المعاملة هو القومية العرقية.

٥. ظاهرة أسواق النخاسة وطبقة العبيد كانت منتشرة بين العرب قبل الإسلام. وفي عهد الرسول ساوى بين السادة والعبيد في الحقوق والواجبات الإنسانية، برغم أن هذه المساواة كانت حجة أمام رجالات وسادة قريش لعدم دخولهم الإسلام، فقالوا كيف نتساوى مع العبيد. أما أغلبية من آمنوا بالرسول بداية وهم المسلمين الأوائل من المهاجرين فأغلبهم كان من العبيد الذين نصفهم الرسول واستفادوا من هذه المساواة مع أسيادهم، وجميعهم أعتقوا بفضل الإسلام.. ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام جفف منابع الرقيق وعالج الأمر بطريقة سحرية بحيث لا يفرض على السادة إطلاق عبيدهم دون تعويض عما دفعوه ثمنا لهم عند شرائهم، فجعل المكاتبة لتحرير الرقيق وجعل عتق الرقيق كفارة للذنوب حتى يشجع السادة على تحرير عبيدهم، وفي المجمل حوّل الإسلام الرق من عبودية إلى عقد عمل، وحافظ على علاقات النسب وحالات الزواج بين السادة والعبيد بطريقة سحرية أيضا، لو فكرنا فيها لوجدناها أكثر فاعلية من إصدار قرار مفاجئ بتحريم العبودية، لأن المشرع الإلهي راعى حركة المجتمع (اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا) ووضع على العبد التزاما يجب استيفائه لإنهاء هذا العقد. فلم يعد مطلوبا من العبد أن يحارب قبيلة أو قوما بأكملهم ليحصل على حريته، فقط مطلوبا منه دفع مبلغ من المال فدية لسيده كما يحدث عن تحرير أسرى الحروب، ووضع الإسلام حقوقا للزوجة الأمة تتساوى مع الحقوق الإنسانية للزوجة الحرة.. وبذلك جفت منابع الرقيق برفق وهدوء دون أن يحدث صراعا وخلخلة اجتماعية في المجتمع الذي يعتمد أفراده بعضهم على بعض في العمل والخدمات وغيرها، وتقاربت طبقات المجتمع وانصهرت وأصبحت الأفضلية بالتقوى وليس بقدر ما تملك من العبيد والغنم والإبل. وبعد وفاة الرسول عادت ظاهرة العبودية وراجت تجارة البشر والرقيق في مكة والمدينة بصورة أفظع مما كانت عليه قبل الإسلام، وتم افتتاح أسواق النخاسة الإسلامية لبيع البشر الذين تم خطفهم في الفتوحات، وزاد عددهم بشكل مذهل حتى بخست أسعارهم لدرجة خيالية بالنسبة للمجتمع العربي؛ فهؤلاء العبيد لم يتم استجلابهم من أسواق نخاسة بعيدة لبيعهم في المدينة، بل جاؤوا بالمجان وبوفرة غير معتادة، ليعيش العرب أسيادا بكثرة العبيد لا بالعدل والتقوى، وصار العبيد قبل الإسلام أحرارا بالإسلام ثم استعبدوا مزيدا من البشر الأحرار واتخذوا مئات منهم للمتعة الجنسية، حتى أن كبار الصحابة كانوا

يوزعون على بعضهم هدايا من الفتيات التي تم استعبادها، في حين في حياة الرسول كانوا يعتقون العبيد مرضاة لله !. هم ذاتهم الصحابة الذين كانوا يعتقون العبيد مرضاة لله صاروا يتهادون مع بعضهم بالعبيد ! ونسوا أن العتق كفارة !.. وإلى يومنا هذا مازالت هي المنطقة الأكثر رواجا لتجارة البشر.

٦- قبل الإسلام، انتشار أعمال العنف والعصبية القبلية والثأر – في مرحلة الإسلام؛ سلام اجتماعي وتسامح وتآلف وبتر لظاهرة الثأر في المدينة. بعد الإسلام عودة ظاهرة العنف ووقعت حرب الردة وقتل لمسلمين بيد مسلمين على يد خالد الوليد في عهد أبي بكر لرافضي بيعته، ثم ووقعت الفتنة الكبرى الأولى والثانية بين الصحابة أنفسهم، ولم يتذكروا من حكمة رسول الله ما يمكنهم من تصفية خلافاتهم البينية، حتى أن من سعى للصلح بينهم غلب عليه النفاق لأحد الأطراف المتنازعة ولم يخلص النية لله، فلم يوفق في مهمته، ونسوا أن الله قال لهم : وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)، وما قال الله ذلك إلا لعلمه بطبيعة الشعب العربي لأنه عصبي، بمجرد أن يحدث خلاف ولو بسيط ينتهي بقتل، ولأتفه الأسباب قامت الحرب الأهلية بين الصحابة، بين علي ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة، كل منهم تزعم فريقا للحرب والقتال، فهذه طبيعة مجتمع، ولا يمكن للمجتمع المصري أن يتلبس هذه الطبيعة أبدا، ولا يمكن أن تكون هذه البيئة الثقافية خلفية دينية أو اجتماعية للشعب المصري وإلا هلك.. فالشعب المصري له سمات وخصائص قومية عرقية مختلفة جذريا عن العرب، ولا يمكن وضع المجتمع العربي نموذجا وقدوة أو خلفية دينية للمجتمع المصري.

٧- صراع سلطوي سياسي في بيت بني أمية قبل الإسلام وفي عهد الرسول؛ انصياع بني أمية واستسلام بفتح مكة وانبطاح تحت راية الإسلام بعد عهد الرسول عادت سيطرة بني أمية على السياسة مرة أخرى. وأبسط مثال هو عبد الله سعد أبي السرح الذي نفد من حكم الإعدام الذي أصدره الرسول بحقه ، فعاش حياته ذليلا بين المسلمين في ظل الإسلام.. ثم بعد أفول نجم الإسلام بوفاة الرسول أصبح هو قائد جيش العرب في فتوحات ليبيا وشمال أفريقيا وواليا على مصر. وهكذا سارت حياة العرب بذات الوتيرة المتوترة، فمن كان في القاع صعد إلى القمة بوفاة الرسول.

٨- قبل الإسلام كانت مهنة العرب هي الحرب والإغارة والسلب والنهب - في عهد النبي عليه السلام كانت الحرب دفاعية انتقائية، بمعنى أنه لم يكن يفكر في الحرب بداية ولم يكن منهجه قائما على الحرب، بل كان فقط يعد جيشه عندما تصله أخبار بهجوم معادي، أو تحرك عسكري، ففي كل معركة خاضها النبي سنجد أنه قد قابله وسبقه تحرك عسكري معادي- أما في عهد الخلفاء الراشدين صارت سياسية توسعية حصادة دموية للنهب والسلب (الأقرب فالأقرب) وفسر المفسرون الآية التي تقول " قاتلوا الذين يلونكم " على أن الحرب تكون حصادة أي الأقرب فالأقرب . وهذا تحول خطير ببوصلة الدين تخرجه عن مبادئه بالكلية، إذ أن معنى ذلك أن هذه الحصادة تحل محل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بل إنه اعتراف من الفقهاء والمفسرين على أن الحصادة الدموية هي السبيل الوحيد الإلزامي على كل مسلم لنشر الإسلام في ربوع الأرض، وقد سبق لنا التعرض لاجتهادات المفسرين وأخطائهم الفادحة في تأويل النص القرآني بما يخالف المنطق العقلي على مدار العصور، فهذه العبارة التي جعل منها المفسرون حصادة دموية " قاتلوا الذين يلونكم" قد وردت ضمن عشر آيات ملتحمة في سياق واحد في سورة التوبة التي تحدثت بكاملها عن المنافين وصفاتهم وحيلهم ودرجات ومراتب النفاق، هذا السياق القرآني جاء متصلا لا منفصلا، وجاءت الآيات الأولى منه واضحة بالحديث عن المنافقين، ثم جاءت العبارة في المنتصف واستمر الخطاب القرآني عن المنافقين بذات السيناريو، لكن المفسرين والسلف سلخوها من سياقها وجعلوها عنوانا للعلاقات الدولية بين المجتمع المسلم وغيره المجتمعات، جعلوا الأصل فيها هو الحرب الدائمة وليس السلام الاجتماعي، جعلوا الحرب جزء وشرط وركن من أركان الدين، لأن الحرب كانت جزء وكون رئيس في العقلية العربية وليست في الدين.

فهم في الواقع كانوا يؤصلون وينظرون للفلسفة والثقافة والتاريخ العربي لا الإسلام، أما بالنسبة لحروب النبي، فلو افترضنا جدلا أن حاكم المدينة في هذا الوقت كان مسيحيا أو كافرا غير مسلم لاضطر لخوض الحروب التي خاضه النبي من المدينة دفاعا عنها، لأنها كانت محض حق دفاع شرعي عن حق الوجود، وأما نظرية الجهاد في سبيل الله فكانت تحديدا ترتكز على فداء المؤمنين للنبي لأنهم لو تركوه سيقتله الكافرون، أي أن اشتراك الصحابة في هذه المعارك لم يكن في حدود دفاعهم الشرعي عن أنفسهم وأموالهم فقط وإنما اشتمل على جانب الجهاد في سبيل الدفاع عن النبي وحمايته ، وجهاد آخر هو التكاثر حوله والالتفاف حوله بالهجرة إليه ، فكان المستهدف في هذه الحروب هو الرسول نفسه، وفداؤهم له جهاد في سبيل الله بالمال والنفس، ولهذا حفز الله المؤمنين على فداء رسوله والدفاع

عنه بأموالهم وأنفسهم، أما بعد وفاة الرسول فلا جهاد وإنما حق الدفاع الشرعي فقط وهو دفاع عن حق الوجود، وحق الوجود هذا ليس بحاجة إلى دين يقرره لأنه موجود وقائم بالفطرة منذ خلق الله البشرية، وبالتالي فهذه الحروب منفصلة عن الدين كعقيدة إلا في حياة النبي، أما فيما بعد رحيل الرسول فهي حدث اجتماعي وحق يمارسه كل مجتمع مسلم أو غير مسلم دفاعا عن نفسه وعرضه، ولكن لأن الحروب والإغارة كانت جزء ومكون رئيس في النفسية العربية فجعلوها ركنا من الدين لإضفاء القدسية عليها وجعلوها مصدر دخلهم القومي كما كانت في الجاهلية.

٩- نهاية الحرب في عهد النبي هي فرار الأعداء دون تتبعهم، وكافة المعارك التي دخلها الرسول كانت تنتهي بهروب العدو، ولم يكن الرسول يتتبعهم أو ينكل بفلولهم الهاربة، بل فقط جمع ما تركوه من غنائم حلال للمسلمين وتعويضا لهم عن خسائرهم في الحرب.. أما في عهد الصحابة صارت الحرب تبدأ هجومية لا تنتهي بهروب الطرف الآخر ولكن بتتبعهم وقتلهم عشوائيا والقفز داخل المدن والقرى وترويع الناس ونهب أموالهم وبيوتهم وخطف نسائهم وأطفالهم واحتلال أرضهم واستعبادهم. وفي عهد النبي عليه السلام كانت الحروب في صحارى خالية، أما في عهد الصحابة صارت هجوما داخل البلدان مع التخريب والهدم واحتلال بيوت العبادة وتحويلها إلى مساجد واحتلال مؤسسات الدولة. وكان النبي عليه السلام يرسل السفراء والمبشرين الداعين للإسلام، أما في عهد الخلفاء تحولت إلى مجرد إنذارات حربية بدليل أن النبي كانت تأتيه الكثير من الوفود إقبالا على الإسلام بمحض إرادتها أما في عهد الصحابة صارت جميع البلدان وكل المجتمعات تحت التهديد إما الحرب وإما دفع الجزية . والدليل على أن القوة ليست ركنا في الإسلام ولكن وسيلة دفاعية وأقصى حدودها الأمن القومي، هو أن عدد القتلى في البلاد المفتوحة يفوق بكثير عدد الذين أسلموا فيها ، وهذه طبيعة الحرب، فالخسائر أكثر من الفوائد فكيف تكون الحرب ركنا لنشر الإسلام؟ والدليل الثاني أن البلاد التي دخلها الإسلام عن طريق الاحتكاك الثقافي من خلال التجار وغيرهم هي الباقية على الإسلام وهي أفضل حالا من غيرها مثل جنوب شرق أسيا على العكس من الهند والأندلس.

١٠- في عهد النبي عليه السلام كانت الدعوة تنتشر فرديا أي بإرسال شخص واحد أو اثنين ينتشروا ويعيشوا بين الناس ليعلموهم أمور دينهم ويفتونهم في شؤون دنياهم، وبالتالي لم يكن هناك أي رفض لهؤلاء الدعاة في عهد النبي عليه السلام إلا القوى التي كانت تنوي إعلان الحرب على الإسلام، وكانت الرسائل

التي يبعثها الرسول إلى الحكام وملوك الشعوب المجاورة كانت عبارة عن تحالفات ليس أكثر، أي عروض للتحالف سواء قبل هذا الحاكم الإسلام أو بقي على دينه، كما حدث مع ملك الحبشة، ولم يكن الرسول يهدد بعزل حكام أو ملوك أو انتزاع سلطاتهم أو احتلال بلادهم أو اختراق حدودها بأي طريقة. أما في عهد الخلفاء كانت الإنذارات ترسل من قيادة الجيش بمضمون تسليم سلطة البلاد والخضوع لحكم العرب أو تسليم سلطة البلاد لتحصيل الجزية والخراج من الناس، وبطبيعة الحال كان الحاكم يرفض ورفضه هنا هو رفض تنازله عن بلاده وعن سلطة الحكم في بلاده وليس رفض لدخول دعاة الإسلام في بلاده، لأنه إذا قبل فلن يدخل دعاة ولكن سيدخل الجيش لتحصيل الضرائب والخراج والجزية والإتاوات. لكن العرب كانوا يعاقبون كل من دافع عن بلاده وأهله وعرضه بقتله وخطف نسائه وأطفاله واستعبادهم واغتصابهم ثم بيعهم في أسواق النخاسة.

١١ـ كانت غاية الحرب في عهد النبي هي الدفاع الشرعي عن المجتمع وأمنه واستقراره، ولم تكن وسيلة لنشر الدين لأن النبي أقوى من أن يحتاج للحرب لينشر دينه، النبي أقوى بأخلاقه وفضيلته وجاذبيته الروحية السامية، وإنما اضطر إلي الحرب للدفاع عن مجتمعه. أما بعد وفاته ترسخ مبدأ الميكيافلية (الغاية تبرر الوسيلة) وكما قالوا أن غايتهم كانت نشر الإسلام فقتلوا الناس جميعا لتحقيق غايتهم ولم تتحقق بدليل أننا نجد أن خالد الوليد قتل ما يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ إنسان خلال عام واحد، بينما من دخلوا الإسلام خلال ذات العام أقل من ١٠٠٠/١، لكنهم كانوا على قناعة بأن من لا يسلم لا يستحق الحياة، وإن تركوه يحيا فقد تفضلوا عليه بالحياة، لكن يبقى ذليلا كما الحيوانات أو أقل !

١٢ـ في عهد النبي كانت الضرورات فقط تبيح المحظورات، والقتل محظور لكن الدفاع ضرورة، فالحرب كانت محظورة باعتبارها عدوان وأن الله لا يحب المعتدين، لكن وجه الإباحة جاء فقط في محل الضرورة وهو الدفاع الشرعي. أما في عصرهم كانت الغاية تبرر الوسيلة وهي ذات الفلسفة التي غزى بها نابليون شعوب العالم.

١٣ـ مصطلح " الغزو " كان رائجا في الجاهلية قبل الإسلام، بينما في عهد الإسلام كانت المعارك التي خاضها الرسول والصحابة في عهده جميعها دفاعية، ولم تكن هجومية، وبمجرد وفاة الرسول تحول الدفاع الشرعي إلى هجوم، فحصلت كافة المعارك التي خاضها النبي مضطرا حصلت على لقب "غزوة "، واستحب

الفقهاء هذا اللقب واصطلحوه، برغم أن كلمة غزوة في المعاجم وفي اللغة المتواترة على لسان العرب تعني "حرب هجومية"، ومع ذلك أطلقوا على معارك النبي هذا المصطلح واستحبوه وفضلوه على غيره ، وأحاطوه بالقدسية، لدرجة أنهم أطلقوا على المعركة التي قادها أسامة زيد في عهد النبي لكن دون مشاركته الشخصية، استحب الفقهاء أن يشرفوها بلقب غزوة تكريما لأصحابها برغم أن الرسول لم يحضرها، لكنهم أرادوا تكريمها وتشريفها بلقب غزوة لما وقع فيها من كثرة القتال !! وكأن النبي كانت مهمته هي القتل!! وصار كل من يقتل أكثر يتم تكريمه بلقب غزوة !!، وهو ما يمثل انقلابا واضحا وصريحا علي منهج الرسول، فكيف يتحول الدفاع إلى هجوم أو كيف يحصل الدفاع على لقب غزو؟، في حين أن حضارة العرب أصلا قامت على اللغة شعرا ونثرا وخطابة، كانت اللغة هي قوام المجتمع وأداته الثقافية الوحيدة، كانت عقائدهم فاسدة وأفكارهم فاسدة.. فقط لغتهم غاية في الدقة والبلاغة التي تحداهم بها القرآن الكريم.

فعندما نعود إلى الجذر اللغوي لهذه الكلمة في المعجم نقرأ: معنى الغزو : الغزو لغة هي مصدر غَزَا غَزْوا وغَزَوانا. أما معناها فهو: مهاجمة العدو وقتاله في أرضه، يقال غزا العدو: أي سار إلى قتاله في عقر داره، وغَزَا الشيءَ: أي أراده وطلبه، وغزتِ البضائعُ الأسواقَ: بمعنى تكاثرت فيها وتدفقت إليها (معجم المعاني الجامع) وقد واجهت هيئة الإفتاء الأردنية سؤالا محرجا عن هذا التناقض اللغوي المعرفي خصاصة بعدما اضطرت للاعتراف بأن جميع معارك النبي كانت دفاعية، وحاولت التشويش على السائل بقولها: أن العبرة بالمبني وليست بالمعني" فكيف أقول غزوة يعني هجوم لكن مقصود بها دفاع شرعي؟. كون معارك النبي جميعها دفاعية، وهذا ثابت لا خلاف فيه، لكن تسميتها بغزوات هذا هو الخلل والشلل، ولا يشفع في ذلك التذرع بمقولة العبرة بالمعني وليست بالمبني؛ لأن هذا المبدأ ينطبق فقط علي الجمل والعبارات وليس اللفظ المفرد، لأن اللفظ المفرد يحمل معناه في مبناه، أما الجمل والعبارات فتختلف وتتعدد صياغتها ولو بنفس الألفاظ، فقد تأتي بتقديم وتأخير أو تضع ضمير مستتر أو تسكن حروف وتحرك حروف أخرى فتقلب الموقع الإعرابي فتتغير معني الجملة، ولذلك قيل أن العبرة بالمعني وليست بالمبني، لكن بالنسبة للألفاظ والمفردات فكل مبني يحمل معناه، ولا يجوز أن نطلق لفظ طلاق ونريد معناه زواج، ولا يجوز أن نطلق لفظ هجوم ونريد معناه دفاع شرعي، ولا نطلق لفظ اغتصاب ونريد السامع أن يفهم أنه زواج شرعي، لكن السلف من الفقهاء حاولوا على مدار العصور تدجين الفكر ومنع الطلاب من تشغيل عقولهم، فقط سمحوا بنسخ الموضوعات بقوالب فكرية غير مهضومة، ولم يسمحوا بإعادة

تدوير لمعانيها ومضامينها.. والعودة إلى الحق خير من التمادي في الباطل مجاملة لمن صاغوا هذه الأفكار والمعاني.

فحضارة العرب قبل الإسلام قامت على الإبداع النظري فقط (الشعر والنثر والخطابة والغناء) ولهذا كانت المنتديات الشعرية في سوق عكاز تجد رواجا ، والعرب هم أول شعب في العالم يعرف نظام المنتدى الثقافي لإلقاء الشعر، وهم أول شعب بل والشعب الوحيد الذي أبدع نظام الشعر الغنائي الموزون المقفى بخلاف النثر، وكتبوا أشعارهم في المعلقات لأن حضارتهم كانت أدبية لغوية بحتة، وإن لم تخلصهم من السلوكيات والعادات غير الإنسانية مثل حملات الإغارة والسلب والنهب والسبي ، ولم تكن حضارتهم قائمة على عناصر الإنتاج الأساسية (زراعة – صناعة – تجارة ـ معمار) بل تمثلت كل حضارتهم في أبيات الشعر والمعلقات التي يمكن اعتبارها من عجائب الدنيا على الإطلاق، وهذا ما يؤكد مدى ثراءهم اللغوي وغنى اللغة العربية مقارنة بباقي اللغات – بل إن العرب هم أول شعوب العالم التي نظرت لعلوم اللغة ووضعت قواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض حتى قبل نزول الإسلام، وبالتالي فلا منطق ولا مبرر لإطلاق مسمى غزوات على المعارك التي خاضها النبي وطرح معناها الحقيقي، وهي لم تكن غزو على الإطلاق وإنما كانت دفاع شرعي عن مجتمعه، ولكنهم نسخو حق النبي في الدفاع الشرعي وجعلوه غزو لينسخوا حقوق الشعوب الأخرى في الدفاع الشرعي ويجعلوها مبررا للقتل والخطف والاغتصاب.

وكذلك تسمية حرب الردة غير دقيقة لغويا لأن كلمة ردة من ارتد، وبالتالي فهذا ليس مفهوم لغوي ولم يحمل المعنى الحقيقي للأحداث وقتها، وإنما حمل نكهة الفقهاء ورؤيتهم ورغبتهم، فتسمية حرب الردة جاءت لتحمل معنى الارتداد عن الإسلام (مفهوم ديني خالص) لكن ما حدث في الواقع كان خليط من الأحداث وفئات متعددة ما بين سياسي وديني أغلبها سياسي، فهو نوع من الانشقاق السياسي أكثر من كونه ارتداد عن الدين؛ لأن المنشقين عن الدولة امتنعوا عن تأدية الزكاة للخليفة لعدة أسباب؛ بعضهم ارتد عن الدين الإسلامي ومعظمهم من المنافقين المنتشرين في كل مجتمع، والطائفة الثانية اعترضت على شخصية أبا بكر في الخلافة، والطائفة الثالثة أيدت علي أبى طالب ورأته أجدر بالخلافة. وهذه الطوائف جميعها اجتمعت أسبابها بمحض الصدفة على منع الزكاة عن أبي بكر لما لها من طابع سياسي كما ذكرنا وهي المؤشر الوحيد على الانشقاق عن دولة أبو بكر. أما الفقهاء والمؤرخون قد اعتمدوا مصطلح حرب الردة في التعبير عن هذه الأحداث لإصباغ الطابع الديني عليها

ولتبرير الأحكام الفقهية التي اجتمعت وتراكمت عبر الزمن على قتل المرتدين عن الإسلام والملحدين والفلاسفة بتهم الزندقة والهرطقة وغيرها، فكانت هذه التهم وحدها كافية لإصدار عقوبة الإعدام واعتمادها رأسا من الخليفة، حتى أن بعض الخلفاء قد استعملوا هذه الوسيلة في الخلاص من أقطاب المعارضة السياسية.

١٤- مصطلحات الجاهلية مثل (سلب وأسلاب ونهب وسبي) كانت منتشرة في المجتمع العربي قبل الإسلام، وكانت مصاحبة لهجمات الإغارة على القبائل وخطف النساء والأطفال ونهب الدور والمتاع، ثم في عهد الرسول توارت ولم يعد لها استخدام في المجتمع الإسلامي، وحل محلها مصطلحات مثل (الفيء والغنيمة والأسرى)، وهذه المصطلحات معروفة بأنها ترافق الحرب المشروعة في عهد النبي، فالفيء هو الغنيمة أو ما يقد يأت طواعية دون حرب، مثل الهدايا التي كانت تقدمها قبائل العرب للرسول كي تخطب وده كنوع من التحالفات السياسية، والغنيمة هي الأشياء والمتاع التي تركها جيش الأعداء قبل فرارهم مهزومين، وأما الأسرى فهم المقاتلين الذين تم التحفظ عليهم أثناء القتال أحياء، سواء كانوا رجال أو نساء، لكن شرط كونهم قد تم القبض عليهم مسلحين أثناء الحرب، أما كلمات (سبي وسلب ونهب وأسلاب) فلم ترد في عهد النبي ولم ترد في القرآن إطلاقا – لكن بعد وفاة الرسول نجد أن كتب التراث والمراجع التاريخية الأصلية للمسلمين (سنة وشيعة) تحفل بمصطلحات الجاهلية مرة أخرى (سبي سبايا ونهب وسلب وأسلاب وغزو وإغارة) وهو ما وقع أثناء فترة الفتوحات الإجرامية. وكلمة سلب مع ما تحمله من معنى السرقة، لأن غنائم الحرب لا تسمى سلب وإنما اسمها فيء أو غنائم أما كلمة سلب فتعني بوضوح النهب والسرقة والعدوان مع أن كلمة الغنائم وهي الواردة في القرآن تنصرف إلى ما يتخلف عن الأعداء المهاجمين من أمتعة، لكن العرب اخترعوا مرويات من عندياتهم ونسبوها للرسول، حتى أن بعضهم أراد أن يعبر عن رغبته الدفينة في الفوضى والسلب والنهب فنسب إلى رسول الله زورا قول: كل من قتل رجلا فله سلبه"!

١٥- وكذا ظاهرة السبي والسلب لم تكن موجودة في عهد النبي عليه السلام لأن الحروب كانت تقع في صحارى خالية من البشر، وقد أمر النبي عليه السلام بعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والعجائز، وهذا ما أيده سلوك النبي في موقعة اليرموك إذ أنه سافر بجيش العسرة لمسافة تزيد على ٦٠٠ كيلومتر، وعسكر قرابة العشرين يوما بمنطقة اليرموك، ولما لم يخرج له جيش الروم أفل عائدا بجيشه ولم

بفكر في الهجوم على مدن الشام وأحياءها لأن جيشهم لم يظهر للقتال. وهذا ما يؤكد احترام النبي عليه السلام لحرمة المساكن والبيوت وحرمة النساء والأطفال والشيوخ، وحتى لو خرج له جيش الروم وهزمه النبي عليه السلام لم يكن ليتتبعه ويدخل بلاده ويقفز داخل المساكن والقرى بالجيش ويطلع على حرمات الناس أو يخطف نساءهم وأطفالهم لاغتصابهم وبيعهم في أسواق النخاسة، لأن هؤلاء لا ذنب لهم في قرار أوليائهم بالحرب على المسلمين، فهؤلاء رعية عزل ولا دخل لهم في قرار الحرب من عدمه، والإسلام يعلمنا أنه " لا تزر وازرة وزر أخرى، أي لا يتحمل النساء والأطفال وزر والديهم في قرار الحرب. ولا يتحمل الرهبان وزر الحكام والقادة في قرار الحرب، ولا تتحمل دور العبادة تبعات مثل هذا القرار.

حتى أن المواثيق الدولية قد أكدت على ذلك، وجاء في قرار عصبة الأمم المتحدة إبان الحرب العالمية الثانية وقد استجاب هتلر زعيم قوات المحور لهذا القرار واحترم نصوص الاتفاقية حتى أن طائراته الحربية كانت تعبر في سماء باريس ترش صواريخها في كل مكان، ثم تصمت لحظاتٍ عند عبورها فوق المؤسسات التعليمية والمحاكم والمستشفيات والمدرس والجامعات– جامعة السربون ومدن الطلاب الجامعية مثل الحي اللاتيني في باريس الذي كان يقيم فيه الطلاب المغتربين للدراسة بالجامعة مثل طه حسين ومصطفي كامل وغيرهم – وغير ذلك من المؤسسات الإنسانية التي نص عليها قرار الأمم المتحدة، وهذا ما استبقه النبي عليه السلام امتثالا لأوامر الله الواردة في القرآن، ولذلك أوصى أصحابه عند مسيرهم إلى موقعة مؤتة بــــــوصيته الشهيرة. ولا يمكن بأي حال القول بأن أوضاع العرب والمجتمعات وقتها كانت هكذا تقوم على السبي والسلب والنهب، وأن ذلك العصر يختلف عن عصر الميثاق العالمي للأمم المتحدة، لأننا لا نقارن عصر الصحابة بعصر ميثاق الأمم المتحدة، بل نقارن عصرهم بعصر النبي الذي كان أرقى من ميثاق الأمم المتحدة، بل إن مواثيق حقوق الإنسان استمدت الكثير من مبدئها من القرآن ووصايا الرسول عليه السلام، والإسلام أصلا جاء ليقضي على الظلم والفساد، فكيف يسمح باستمراره هكذا بحجة أن السبي والسلب كان طبيعة مجتمع وعرف؟ ألم ينزل الإسلام للقضاء على هذه الأعراف والتقاليد الفاسدة؟

١٦ـ كلمة " العدو " أطلقها العرب على من لم يعادهم ولا كان من حلفائهم ولم يعادهم في دينهم، وإطلاق كلمة عدو على كل من رفض الخضوع لسلطانهم وأسلم أمره لهم ، وأعطوا العداء هنا مسحة دينية أي وكأن من ليس معهم فهو عدو لهم، وهذه فلسفة فاسدة لأنهم طبقوا مذهبا سياسيا قذرا وليس من الإسلام

في شيء، واعتبروا كل من استخدم حقه في الدفاع الشرعي عن نفسه وماله وعرضه عدوا لهم، مع أن ذلك يجرد الإنسان من شخصيته إذا لم يدافع عن نفسه وعرضه وماله، فكل إنسان حتى الكافر له حق الدفاع الشرعي عن نفسه وعرضه وماله وعقيدته، وخير موارد العدل القياس على النفس، لكن العرب أطلقوا مصطلح العدو والأعداء على كل من رفضوا الخضوع لهم سياسيا وعسكريا من شعوب البلاد التي دخلها العرب، وبرروا لأنفسهم قتل هؤلاء وأسرهم وخطف أبنائهم وبناتهم وزوجاتهم واستعبادهم. في الواقع ما كان إلا سيف من سيوف الشيطان سلطوه على شعوب الأرض، وتحول الدفاع إلى غزو وتحول التسامح العقائدي إلى عداوة باعتبار كل غير مسلم هو عدو للمسلمين، وكل من رفض الإسلام عدو، وكل من رفض دفع الجزية فعقابه القتل ! وكل من دافع عن أهله فعقابه اغتصاب أهله ونهب ماله !

١٧ـ كلمة " فتوحات ": كيف يطلق العرب على الدفاع غزو وعلى الغزو فتوحات؟، هم فقط تشبثوا بمصطلح الفتح تيمنا بفتح مكة، مع أن دخول مكة كان فتحا بمعنى الكلمة، لأن المسلمين كانوا ممنوعين عنوة من دخولها برغم أنها بلدهم الأصلي وفيها أهلهم وأموالهم والجميع يحجون لبيت الله فيها، وبرغم تعهد قريش بالسماح لهم بدخولها للحج في العام السابق، فلهم أحقية الحج لبيت الله كما كل البشر، مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم، غير أن نموذج فتح مكة لم يصحبه لا نهب ولا سلب وسبي ولا غنائم ولا قهر ولا قتل ولا أسر، ومع ذلك لم يطلق عليه فتح صلحا لأنه لم يكن صلح، وإنما كان استسلاما من قريش ، ومع ذلك أطلق العرب على حروبهم الهجومية " فتوحات " وهلل لهم الفقهاء بذلك باعتبارها نصرا ! وهل كل نصر يعتبر شرعي؟ فتغلب المجرم على الضحية ليلا هو نصر وانتصار للمجرم على الضحية، فماذا تبقى للحروب الهجومية في وجهة نظرهم؟، أو ما هو تعريف الحرب الهجومية التي تعتبر عدوان على الغير؟ فالله تعالى يقول: ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" فكيف يمكن للعرب تطبيق هذه الآية؟

١٨ـ كلمة " صلح " أطلق العرب على البلاد التي دخلوها عنوة بعد استسلام أهلها "صلحا"، مع أن البحث في الجذر اللغوي لهذه الكلمة يقودنا إلى معانٍ أخرى مختلفة تماما، لأن الصلح يعني نزاع ما بين طرفين له أسباب وخلفيات تجعل من كلا الطرفين له حق، فيلجا الطرفين لتصفية الحقوق بالمقاصة صلحا ، أما الاستسلام بالمساومة علي شروط يقبلها العرب، فهذا ليس بصلح، ليس صلح ولكن استسلام تحت إكراه، لكنهم أعطوه مسحة دينية، فإذا لم يقبلوا الشروط خضعوا للحرب، فكيف يكون صلح ؟

لكن العرب هددوا الشعوب الآمنة وحاصروها بجيوشهم وأجبروا أهلها على الاستسلام والخضوع ودفع الجزية والخراج والضرائب، فأين هو الصلح؟ فإذا هجم مجرم أو عصابة من قطاع الطرق على رجل وزوجته يسيران ليلا وهددوهما بالقتل وإلا إخراج ما معهما من أموال، فإذا تأكد الرجل من عجزه عن الدفاع عن عرضه وشرفه، واضطر لإخراج ما معه دون مقاومة، أيقون ذلك صلحا؟ فالرجل في النهاية دفع دون قتال، لكن هل كان الدفع مستحقا أصلا؟ أو لنتساءل إذا كان دخول البلاد بعد محاصرتها بالجيوش صلحا، فماذا يعني الاستسلام في لغة العرب؟

١٩ـ كلمة " جزية ": كانت في عصر الرسول تعني غرامة جزائية على المعتدي ناكث العهد، وإذا عدنا للجذر اللغوي لكلمة جزية" ج ز ي " سنجد معناها من الجزاء والعقاب على جرم ما أو خطأ، فهي نتيجة لفعل غير مشروع، والغرامة بطبيعة الحال هي عقوبة مالية أو جزاء مالي، ولا يمكن للقرآن أن يستخدم لفظة في غير معناها اللغوي لأنه معجزة للعرب ووجه إعجازه في بلاغته اللغوية وبيانه، وطالما استخدم القرآن لفظ الجزية، ومن ذات الجذر اللغوي إذن هي عقوبة مالية على مخطئ، وكان هم قريش الذين نكثوا عهدهم مع رسول الله، فحقت عليهم الجزية وهم صاغرون، بينما بعد الرسول تحول مدلول الكلمة إلى معنى الخراج أي خراج الأرض ! أي ضريبة تفرض على الأرضي والأملاك بصورة دورية موسمية مع المحاصيل والعوائد. ونقرأ في معجم المعاني؛ (جزية: إتاوة ، جعالة ، خَراج ، خِراج ، رَسْم ، ضَرِيبَة ، غَرامة ، مَكْس)

٢٠ـ ومن هنا يظهر التحول ليس فقط في إسلام العرب ومنهجهم بل أيضا في لغتهم إذ حرفوا الألفاظ عن معانيها ومضامينها الحقيقية، فبعدما كانت الجزية في عهد الرسول يدفعها كل رجل ذكر بالغ عاقل قادر على القتال، وهي ضريبة الحرب والأمن، وكان النبي يرفض فرضها على أملاك تماما، فصار العرب يفرضونها بذات المسمى على الشعوب التي احتلوها، لكن معناها توسع بدرجة غريبة حتى أنها شملت (الضرائب والعوائد والإتاوات وخراج الأرض الزراعية وضرائب الأملاك الأخرى والحيوانات، وحتى طالت مصادرة الأراضي والأملاك في البلاد المحتلة ! فقد انحرف فهم العرب عن الإسلام بعد وفاة الرسول، فتحول مضمون الإسلام من السلمية إلى العدوانية، من الرأفة والرحمة إلى الجبروت والظلم والطغيان ، انقلبت المفاهيم مع انقلاب النفس والعقل دون وعي أو إدراك، ولذلك اصطلح العرب تسمية معارك الرسول بمسمي غزوات رغم أنها كانت حروب دفاعية ، ورغم أن حروبه كلها دفاعية ألا أنهم انقلبوا وشنوا

حروب هجومية على الشعوب المجاورة لهم، انقلبت الغنائم إلى سلب ونهب، وانقلب الأسرى إلى سبي، ولم تعد الغنائم والأسرى هم حصيلة المعارك، بل صار الدافع للمعارك هو تحصيل (الجزية والخراج وسبي الفتيات والأطفال والاستمتاع بنشوة القتل). فقد أمر الله بالجزية على الفريق المعتدي المهزوم وحصلها النبي مرة واحدة بعد نزول الآية (وحصلها من الحاكم دون عزله)، بينما في عهد الخلفاء صارت تحصيل الجزية هو غاية الحرب ويدفعها المغدور به المعتدى عليه، وأضيف عليه (الخراج والجبايات واحتلال السلطة وامتلاك الأرضي المحتلة ومصادرتها)

٢١ـ قبل الإسلام في الجاهلية كانت الحرب عدوان، وكانت الغنائم (نساء وأطفال ورجال وأموال)، بينما جاء الإسلام وحصرها في أضيق الحدود، فقال تعالى: فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، في قوله: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) أي لا أجر على الحرب سوى ما تركه جيش الأعداء في ميدان الحرب وغادر، ويقول تعالى(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) أي لا يتحمل إنسان ذنب إنسان غيره، لكن بعد وفاة النبي تحول الأمر وأصبح لا يتوقف على الغنائم والأمتعة التي تركها الأعداء وهربوا بل كان الصحابة يتعقبونهم داخل بلادهم ويخطفون أطفالهم ونسائهم وبناتهم، يغتصبون ما شاءوا ويوزعون ما تبقى على بعضهم ويرسلون خمس ما نهبوه إلى الخليفة ليتم حسبانه ضمن ميزانية بيت المال، وبما أن هذه الغنائم والأسرى والسبايا والأطفال كان يتم بيعهم في أسواق النخاسة ووضع ثمنهم في بيت المال، فشرع الفقهاء في تقرير حقوق هؤلاء الثكالى باعتبارهم قيمة مالية تعادل سعرها في السوق، ومن هنا قرروا أحقية المشتري في فحص السلعة (الفتاة) وتحسس جسدها وفقا لحقوق المشتري إذا كان طرفا في عقد البيع. ففي عهد الصحابة نجد الغنائم توسعت أفقيا بدرجة رهيبة فلم تعد لها حدود. ففي الأحكام السلطانية: الغنيمة تشتمل على أقسام: أسرى، وسبي، وأرضين، وأموال، فأما الأسرى فهم الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بهم أحياء، وأما السبي فهم النساء والأطفال. !! فإذا كان كل ذلك يندرج تحت معنى الغنيمة، فماذا تبقى تحت مفهوم حقوق الإنسان؟

٢٢ـبرغم أن الله تعالى يقول: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ

بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)

وهو ما يعني بكل وضوح أن الوطء لا يكون عشوائيا وإنما بعقد نكاح، ولا يجوز وطء ملك اليمين إلا بعقد نكاح صحيح بعد دفع مهرهن وبإذن أهلهن. إذن فهناك إشكاليتين تنشأن بشأن السبي، الأولى؛ أن ملك اليمين تكون بسبب مشروع كأن اشتراها مثلا، وقد تكون ذكرا أو أنثى، وقد تكون مولودا لأمة مملوكة له مسبقا اشتراها، ونكاح ملك اليمين لا يكون إلا بعقد صحيح ومهر وبإذن الأهل. لكن الصحابة مارسوا الجنس عشوائيا في الفتوحات فجعلوا خطف النساء والأطفال سببا جديدا لتملكهن "ملك اليمين"، برغم أن ذلك سبب غير مشروع لكن على فرض أنه وقع، فهل يكون وطء ملك اليمين هذه دون مهر ودون عقد ودون إذن أهلها؟ .. فآية ملك اليمين تختلف كليا عن موضوع السبي وهو خطف النساء، ولو قلنا كما قالوا بأن ورود كلمة ملك يمين في القرآن تبرر استمرار عادة العرب في خطف النساء وتملكهم، فلماذا خطف الأطفال؟ وهل يكونوا أيضا ملك يمين للوطء؟ فأي وطء دون عقد نكاح صحيح فهو زنا إذا كان برضا الأنثى أما إذا كان بغير رضاها فهو اغتصاب، والعرب في تاريخهم لم يتحدثوا إطلاقا عن قبول أو رضا الأنثى قبل وطئها، خاصة بشأن السبايا، وهو ما يعني اغتصابهن دون حتى التفكير في مسألة رضاهن أو عقد نكاح أو غيره، فهذه عادات العرب وليست تعالم الإسلام أبدا.

٢٣ـ قامت الفتوحات على فكرة عرض الإسلام فإذا رُفض يكون التخيير بين الجزية أو القتل وهي وسيلة قطاع الطرق وليست وسيلة نشر دين، ولم يثبت أن النبي عليه السلام حارب أحدا لرفضه دفع الجزية عمليا ولكنهم استمروا في تطبيق آية الجزية بهذا الفهم المنحرف مع أنها مخصصة لقتال قوم محددين في ظرف محدد لكنهم خصصوها للمسيحيين واليهود واعتبروا أن حق الكافر القتل في كل الأحيان إن لم يسلم ، هذه هي فلسفة الفتوحات.

٢٤ـ الشخص الوحيد الذي تبرأ الرسول من أفعاله أكثر من مرة عندما ولاه القيادة وهو خالد الوليد المغيرة، تبرأ الرسول من أفعاله مرتين، الأولى عندما قتل بني جزيمة غدرا بهم، والثانية عندما قتل امرأة مسالمة، وحتى بعدما نجح خالد بعبقريته الحربية في إنقاذ جيش مؤتة من الفناء، لم يقلده الرسول قيادة الجيش وولي مكانه أسامة ابن زيد، أما بمجرد وفاة الرسول، أصبح خالد هو رأس الحربة، وهو رأس الدعوة إلى الله ! وهو رأس قيادة الجيش وقتل وذبح ما لا يقل عن أربعمائة ألف إنسان خلال أربعة عشر

شهرا فقط.. وهذا يوضح لنا لماذا لم يوله الرسول قيادة الجيش، برغم أنه هو الذي أنقذ الجيش من الفناء، أنقذ خالد جيش مؤتة وعاد به إلى المدينة، برغم ذلك أنزله الرسول ورفع أسامة ابن زيد قائدا على الجيش. إلا أن أبا بكرٍ الصديق أنزل أسامة ورفع خالد على قيادة الجيش ليشعل الشرق دماء وصراخا وعويلا من ويلاته وبطشه.. وبرغم أن عمر الخطاب حاول أن يقنعه أكثر من مرة بعزل خالد عن الجيش إلا أنه رفض تماما، ولم يكن أمره شورى بين المسلمين، وهذه للحقيقة والتاريخ، وبمجرد أن تولى عمر الخلافة عزل خالد عن الجيش وتوقفت حركة الفتوحات والتوسعات الاستعمارية التي بدأها أبو بكر.

٢٥ـ خلال حروب النبي ص وخاصة اليرموك وجيش العسرة نزلت نصف سورة التوبة لتكشف معادن الرجال وتفضح المنافقين الذين يتقاعسون عن الزحف ويثبطون من همم المؤمنين، وكثير من المؤمنين تحركوا بثقل، فقال لهم الله" ما لكم إذا قيل لكم أخرجوا اثاقلتم.." ولم يكن هذا الخطاب موجها للمنافقين ولكن للمؤمنين الذين تثاقلوا وتأخرت هممهم في الجهاد، بينما بعد وفاته كانوا يتسابقون على الخروج للقتال في جيش خالد، وذلك للحصول علي قدر من العوائد لأن قتال الجيش لم يكن دفاعا شرعيا كما في عهد الرسول، وإنما سلب ونهب واغتصاب وخطف نساء وأطفال وهجوم على المجتمعات المدنية، كانت حروب الرسول في صحارى مكشوفة ولمواجهة محاربين مسلحين، بينما حروبهم كانت القفز داخل المجتمعات المدنية وخطف الأطفال والبنات والنساء ونهب الدور والأموال، فاعتبروا ذلك مصدرا للدخل بالنسبة لهم ولهذا سارعوا حتى أن أبا بكر وعمر الخطاب كانوا يمنعون البعض عمدا من الخروج رغم رغبته العارمة في الخروج في حين في عصر النبي كان كل من لديه عذر أسرع به للرسول وطلب الإعفاء..

٢٦ـ في حياته امتثلوا للإسلام وسماحته على يد رسول الله وبعد وفاته بدأ الإسلام التسلطي فظهرت الفتاوى والأحكام الاجتهادية على المرتدين وتم التضييق في الأحكام وهذا دليل علي ضعف الإسلام في النفوس بعد وفاته ، إذ أن القوي يتمتع بالتسامح الجم أما الضعيف فيصرخ ويضيّق في الأحكام على الجميع ويطرح مزيدا من العقوبات.

٢٧ـ أخذ العرب مسارا مُغايرا تماما لما أراده النبي، فأخذوا مسارا سياسيا تسلح بالعسكرية شعارا لنشر الإسلام وإن جاء تحت مسمى الجهاد في سبيل الله، كما اتخذت الحملات الصليبية اسم الصليب مبررا لها برغم أنها كانت منقطعة الصلة تماما بتعاليم الدين المسيحي، لكن هذه عادة كل الشعوب تسرق وتنهب وتقتل وتبرر باسم الدين، ففي الحقيقة نجد أن الدولة العربية قد توسعت أفقيا فقط ولم تستطع الرقي رأسيا بأي حال، فامتدت أطراف الدولة في الشرق والغرب وسادت سلطتها من الهند شرقا إلى الأندلس غربا وذاع صيتها وتضخمت ميزانيتها، لكنها في سبيل ذلك خلفت ملايين من القتلى والجرحى والثكالى والأطفال المشردين والأسر والعائلات التي تشتت شملها في أرجاء الأرض، وربما لم يتقابلوا صدفة إلا في أسواق النخاسة التي راجت لبيع العبيد كما الحيوانات للخدمة المنزلية. وهذا ما يعني اختفاء القيم الأخلاقية التي أرسى دعائمها النبي عليه السلام في مجتمعه.

٢٨ـ كان النبي يجلس على المنبر أثناء خطبة الجمعة ويضع قدميه على الدرجة الثانية، فلما ولي الصديق الخلافة، وتأدبا مع رسول الله، جلس في خطبته على درجة المنبر الثانية ووضع قدميه على الدرجة السفلى. ولما ولي عمر الخطاب جلس في خطبته على الدرجة السفلى ووضع قدميه على الأرض، أما الخليفة الثالث عثمان عفان فقد جلس علي الدرجة السفلي ست سنين (النصف الأول من ولايته) ثم صعد في النصف الثاني إلى الدرجة الثالثة، وبدأ منعطف جديد في منهج الإسلام بالتزامن، حيث عزل الولاة وعيّن أقاربه وبني عشيرته، وبدأ الانفتاح الاقتصادي والفساد المالي والسياسي يشق صفوف الصحابة حتى أنهم تركوه محاصرا، وقد التف الثوار حول قصره وهددوه بالقتل إن لم يعتزل الخلافة بسبب الفساد المالي والسياسي. وهناك فرق شاسع ما بين مصطلح صحابي وما يحمله من قدسية، وبين الكفاءة في إدارة دولة توسعت رقعتها الجغرافية وتزايدت سلطاتها السياسية وسطوتها العسكرية على الشعوب المجاورة، وتضخمت ميزانيتها من المال الحرام..

على كل حال استمر الوضع في ارتفاع خطيب المسجد عن أرضه درجات ودرجات في عهد بني أمية، ثم بني العباس، وحتى في عصرنا صارت منابر مرتفعة عن منبر رسول الله، فالنبي كان قريبا من الناس، هادئا قريبا إلى قلوبهم ومسامعهم ولا يتعالى عليهم، بينما خطباء الجمعة يقفون فوق مستوى رقاب الناس لتشرئب الأعناق في النظر إليهم من أسفل، ثم تطور الوضع وأصبح خطيب الجمعة يلقي خطبته وهو واقف ولا يجلس إلا لحظات الاستراحة فقط، ذلك أن الحالة النفسية للواقف تختلف كليا عن الجالس، فالإنسان عندما يتحدث إلى الناس وهو جالس مستريح تكون أعصابه هادئة، وفكره

هادئ متريث، بينما أثناء الوقوف حتما ستكون أعصابه مشدودة وتخرج الخطبة عاطفية حماسية انفعالية وكأنه في صراع مع المجتمع، وتخرج لهجته تهديدية تحذيرية أكثر منها استرشادية حليمة، فوضع الوقوف أنسب لحالة الصراخ الانفعالي التي أصبح عليها خطباؤنا في المساجد، وهي الطريقة الارتجالية التي تقف عند حدود التلفظ بما ينسجه العقل دون وعي وأي أي فرصة للإدراك والتعقل.. فقط ارتجال سريع لا يسمح حتى للمستمع بالتمعن في جملة واحدة بمنظور عقلي حكيم إنما يسمح فقط باستقبال الدفقة عاطفيا كما لو كانت دلوا من الماء اسكب فوق رأسه من أعلى المنبر.. وهذه الطريقة هي التي تناسب العقلية العربية الأدبية الارتجالية، والتي كان نتاجها المعرفي كله شعريا أدبيا ونتاجه العلمي صفر.. بينما الإسلام هدوء وتعقل وتأني في اختيار الكلمات والعبارات، والنبي كان يخطب جالسا قريبا من الناس، لا واقفا على ارتفاع ثلاثة أمتار من رقاب الناس ليصرخ فيهم بحدة وانفعال. فالطريقة المعتمدة لدينا في المؤتمرات المدنية وفي المنتديات العلمية هي الطريقة الصحيحة بعيدا عن النمط الارتجالي السريع الذي تبناه رجال الدين.

٢٩ـ كانت الدولة في عهد الرسول تقوم على سلطتين مزدوجتين؛ الأولى سلطة دينية مطلقة في يد النبي عليه السلام، أما السلطة السياسية فكانت بالمشورة بينه وبين أصحابه، وكان إذا خرج في حربٍ يترك أميرا على المدينة لم تكن له أي سلطة دينية ولم يكن اختياره على أساس التفقه في الدين، ولكن على أساس الحكمة وحسن الإدارة، وربما اختار سعد ابن عبادة في أكثر من مرة لأنه من أعيان المدينة وله حكمة في التواصل مع الناس، أما في عهد الخلفاء فكانت السلطة مطلقة في يد الخليفة وحده، واختلطت السلطة الدينية بالسياسية فأنتجت نظام الخلافة، حتى وإن استشار فيكون هو نفسه في حاجة للرأي كمن يأخذ رأي وزيره لكنه غير ملزم، ولذلك كان التفاوض يتم مع الخليفة وحده وليس لأحد سلطة وليس له وزير أو مساعد، وتكرست السلطة حتى تحولت إلى النظام الوراثي بسرعة رهيبة لأن التحول بدأ تدريجيا وبدأ الوضع أصلا مناسبا لهذا التحول، وكان الخليفة مؤبدا مدى الحياة، فلم تكن هناك مشورة في التفاوض مع وفود الردة التي قدمت إلى المدينة، وكان الرأي للخليفة وحده الذي استقل منفردا به وأصر على رأيه في قتالهم رغم مخالفة ذلك للشرع. برغم أن الله أمر بالشورى، إلا أنه لم تكن هناك أية شورى، حتى في اختيار الخليفة الثاني عمر الخطاب لم تكن هناك أي شورى، بل عينه أبو بكر قبل وفاته، عن طريق الوصية، وحتى الخليفة الثاني عمر الخطاب برغم أنه يعد أعظم الصحابة وأقربهم للعدالة إلا أنه رفض مبدأ الشورى وقام عند وفاته بتعيين سبعة أشخاص من الصحابة

على أن يقوموا هم باختيار الخليفة، في حين أن قراره بهذا التعيين لم يكن قائما على الشورى كما ورد بكتاب الله، فلم يكن له وحده الاستئثار بتعيين هؤلاء السبعة دون غيرهم من الصحابة، أو أنه ضيق دائرة الشورى وحصرها بقراره المنفرد في سبعة أشخاص فقط. فلو تصورنا في عصرنا أن مجلس الشعب هو المفوض باختيار الرئيس كما كان في عهدي مبارك والسادات، فكيف لشخص عبد الناصر أن يقوم هو بتعيين أعضاء مجلس الشعب ! وكون الخليفة عمر قد اختار هذا الطريق، فقد يكون ذلك هو الأصلح بالنظر إلى ظروف عصره ومجتمعه من الناحية السياسية، لكن ذلك لا يعتبر تشريعا إسلاميا، بل مخالفة استثنائية للتشريع، وعلى كل حال فهذا شأن العرب وتختص السعودية بتدريسه في جامعاتها لأنه محض شأن تاريخي قومي عربي.

٣٠ـ ذهب الصحابة وذهبت حروبهم وبقي لنا فقه جهاد الطلب الذي نشأ بعد وفاة الرسول، ولو دققنا النظر فيه سنجده يهدم كل مبادئ الإسلام القائمة على العدل والحق. لأن الفقهاء وضعوه على خلفية وجوبية غزو المسلمين للشعوب المجاورة على الأقل مرة كل عام، وما يتبع ذلك من سلب ونهب وأسر وسبي وعزة للإسلام والمسلمين ! مع أن مبادئ الحق والعدل التي أرساها الله ورسوله تقول بأن خير موارد العدل القياس على النفس. لكن نرجسية العرب سادت على مبادئ الإسلام.

٣١ـ الدليل على أن الغاية لم تكن حقيقية ولم تكن غايتهم نشر الإسلام، هي ربط الفقهاء مواعيد الجهاد بمواعيد تحصيل الجزية السنوية وهذا ما يؤكد الارتباط الحتمي بين جهاد الطلب ونهب الشعوب، حتى من اسمه طلب الجزية وليس نشر الإسلام، أي خروج الحاكم بجيشه لطلب الجزية والخراج والضرائب والإتاوات، واستخدم الفقهاء مسمى الفتح لحروب الصحابة وعند تحليلها لغويا وصفوها بألفاظ (الإغارة والغزو والخروج والهجوم على الغير). وليس ذلك غريبا لأن جميع الفقهاء الذين أفتوا بذلك هم من الذين وقعوا تحت نير الاحتلال العربي وأصيبت شعوبهم بعدوى متلازمة ستوكهولم كي تبقى على الحياة، فكان من الطبيعي أن يتبنى أبناء هذه الشعوب ثقافة وفكر المستعمر وتبريره والتضامن معه.

٣٢ـ انحراف العقيدة بشأن الجهاد في سبيل الله، وهو جهاد النفس وجهاد العدو، فبعد وفاة النبي عليه السلام صار الجهاد في سبيل الله هو قتل المشركين باعتبارهم العدو ، مع أن كلمة العدو لغويا تعني من أظهر العداء أي من برزت وظهرت نيته في العدوان، وليس كل مشرك عدو، ولا يمكن أن نطلق لغويا كلمة

عدو على شخص مسالم حتى وإن رفض الإسلام، وحتى وإن رفض دفع الجزية، فهذه السلوكيات لا يتوافر فيها معنى العداوة، غير أن أغلب البلاد التي دخلتها الجيوش العربية كانت مسيحية وليست أعداء لا للمسلمين ولا لله ولم يهاجموا عبادة الله بل هم يعبدونه، ولكن العرب كانوا يطلقون كلمة عدو على كل من رفض تسلطهم عليه واستخدم حقه في الدفاع الشرعي، بدليل إذلال الغزاة العرب لحكام وملوك البلاد التي دخلوها، مثال عقبة نافع الفهري، كان يسخر " كُسيلة " وهو حاكم من أشراف المغاربة عند هجوم العرب، وقد وقع في الأسر لدى عقبة نافع فأهان كرامته وسخره لخدمته مثل العبيد، كان يأمره بسلخ النعاج وشويها وتحضير الطعام، برغم أن مساعدي عقبة نصحوه بألا يفعل ذلك وأن ويلات ذلك ثقيلة وكارثية على الجميع إلا أنه لم يسمع لهم، حتى ثار عليه البربر بقيادة " كُسيلة " ونفخوه وقتلوه وقتلوا كل من كان حوله. ثم جاء الفقهاء ورجال الدين ليخبرونا بأن عقبة استشهد أثناء جهاده في سبيل الله ! بينما هو قتيل سلوكياته المريضة.

٣٣- الإسلام دين السلام والحق والعدل، وخير موارد العدل القياس على النفس، والحق فيه مطلق والعدل مطلق، ولا فرق في هذه المبادئ بين مسلم وغير مسلم، لكن الصحابة والتابعين أنكروا الحق والعدل عندما حرموا غير المسلمين من حقهم في الدفاع الشرعي عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم، وجعلوه فقط لأنفسهم بحجة أنهم مسلمين. فحق الدفاع الشرعي حق أصيل لكل إنسان على وجه الأرض، ولكن العرب أنكروه على غيرهم من أجل السلطة ووسعوا المجال لركن جديد وضعوه في الإسلام هو ركن جهاد الطلب، وينصرف معناه إلى الإغارة على غير المسلمين وتخييرهم ما بين الإسلام ودفع الجزية أو القتل وفي كل الأحوال غصب سلطة الحكم.

٣٤- كافة الأديان التي لم تتمتع بعنصر القوة الكافية للدفاع عنها أبيدت في مهدها (تم تهجير موسى وبني إسرائيل من مصر وتتبعهم عزل في الصحراء - تجمع اليهود على صلب عيسى عليه السلام – النبي محمد عليه السلام في مكة لم تكن لديه قوة فحاصرته قريش بأربعين رجلٍ لقتله، فهاجر وأعد قوته اللازمة لحمايتهم) فكل حق يحتاج إلى قوة تحميه وتحمي مجتمعه، وأقصى حدود القوة التي كان يحتاجها ويسعى إليها الرسول هي ما يضمن حدود الأمن القومي فقط. لا أن تنقلب لهضم حقوق الآخرين. أما المسلمون بعد وفاة النبي تعاظمت قوتهم وصارت كافية لحمياتهم وتوفير الأمن والأمان وهذه هي أقصى حدود استخدام القوة، أما الانتشار والتوسع بالقوة فهو جور وظلم وعدوان.

٣٥- في عهد النبي عليه السلام كان في قمة الحضارة الإنسانية، (إطلاق سراح أهل مكة، وكان من حقه أن يأخذ الثأر نتيجة حروب طويلة) بل إنه أيضا كان متسامحا مع من ذهب إليه وفي نيته الشر، وقد ناصبه العداء، وحاول قتله أكثر من مرة وكاد ينجح في إحداها، ولم يسلم أصحاب النبي كذلك من أذاه وتقتيله. وفي يوم قرر هذا الأعرابي أن يعتمر للبيت الحرام، فخرج قاصدا مكة، ولكن سرية من المسلمين أسرته، وذهبت به إلى سارية من سواري المسجد وربطوه فيها حتى ينظر النبي في أمره. ولما خرج النبي إلى المسجد، رآه مربوطا في السارية، فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم؟ فقالوا : لا يا رسول الله.

فقال : هذا ثمامة ابن أثال الحنفي، فأحسنوا أساره، ثم رجع النبي إلى أهله وقال: اجمعوا ما عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال، ثم أمر بناقته أن تحلب له في الغدو والرواح وأن يقدم إليه لبنها، وقد تم ذلك كله قبل أن يلقاه الرسول أو يكلمه.

ثم إن النبي أقبل على ثمامة وقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير.. فإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت .. فتركه الرسول عليه السلام يومين على حاله، يؤتى له بالطعام والشراب، ويحمل إليه لبن الناقة، ثم جاءه، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ليس عندي إلا ما قلت لك من قبل، فإن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء، فالتفت رسول الله إلى أصحابه وقال: أطلقوا ثمامة ، ففكوا وثاقه وأطلقوه.. وغادر ثمامة ومضى حتى إذا بلغ نخلا من حواشي المدينة فيه ماء فتطهر منه، ثم عاد أدراجه إلى المسجد، فما إن بلغ حتى وقف على ملأ من المسلمين وقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم اتجه إلى الرسول وقال: يا محمد .. والله ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، ووالله ما كان دين أبغض إلي من دينك؛ فأصبح دينك أحب الدين كله إلي .. ووالله ما كان بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح أحب البلاد كلها إلي .. ثم أردف قائلا: لقد كنت أصبت في أصحابك دما فما الذي توجبه علي؟ فقال النبي: لا تثريب عليك يا ثمامة.. فإن الإسلام يجب ما قبله، وبشره بالخير.. (وفي هذه الواقعة وغيرها كثير جدا جدا نتبين مدى الرقي الإنساني لدى النبي الكريم، فكان كريم الأخلاق عزيز النفس لا ينتقم من ضعيف ولا يستضعف ضعيف ولا يبخس إنسان حقه وقيمته الإنسانية مهما كان، أما بعد رحيله ظهرت سلوكيات العرب في قتل الأسرى وخطف الأطفال والنساء واغتصابهن عنوة بحجة أنهن أصبحن ملك يمين بعد وقوعهن في الأسر! فلماذا لم يأمر النبي باغتصاب ثمامة في هذه الحال؟ مع أنه اعتدى على كثير من الصحابة وقتل

منهم الكثير وحاول قتل النبي نفسه أكثر من مرة، بل كان ثمامة عبارة عن جهاز موساد في عصره.. أو لماذا لم يعتبره ملك يمين ويستخدمه مثل الخدم والعبيد؟.. ذلك لأنه نبي جاء يعلم العرب قيمة الرقي الإنساني والحضاري، بينما هم من طبيعتهم النفسية الانحطاط والنرجسية والنقص، ولذلك كانوا يخطفون النساء الأبرياء من بيوتهن)

٣٦ـ وجاء الإسلام في مكة فساوى بين جميع البشر العبيد والسادة، ولذلك سارع العبيد باعتناقه ونفر منه سادة قريش كونه يساوي بين البشر.. بينما الفقهاء بعد ذلك لم تعبر أفكارهم الفقهية عن مضمون الإسلام وتسامحه ورقيه بقدر ما عبرت عن واقع المجتمع العربي، فالإمام الشافعي يقول : غير المسلمين بالنسبة لنا مال، وطبق عليهم شروط عقد البيع، طبق عليهم شروط عقد بيع الأشياء العادية مثل السلع والبضائع، وعلى ذلك منح المشتري الحق في فحص ومعاينة السلعة (في أسواق النخاسة) بأن يقوم المشتري بفحص الفتاة بيده وأن يعري جسدها في السوق ! وهنا يتجسد بجلاء مظاهر التوسع الأفقي الفقهي مع الانحطاط الإنساني إلى درجة خيالية، فالفقه لم يرتق رأسيا بأية حال وإنما توسع أفقيا فقط، والأمر لا يخص الإمام الشافعي أو غيره، فقد نقل تلاميذه هذا الكلام واقتنع به المسلمون ! حتى أن الإمام محمد عبده يقول أنه وجد بعض الفقهاء يصف عقد الزواج بأنه عقد منفعة محله بضع المرأة، أي فرجها، فطالما تمكن الرجل من فرصة الانتفاع بفرج المرأة وجب عليه دفع الثمن، وهو النفقة وغيرها من حقوق المرأة، وتجاهلوا من الأساس أن عقد الزواج يقوم على قوله تعالى: وجعلنا بينكم مودة ورحمة... و- هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ. ومن هنا ظهرت فتاوى عدم إلزام الرجل بالإنفاق على زوجته إذا مرضت، على اعتبار أن فترة مرضها توقف سريان عقد المصلحة بين الزوج والزوجة ! وغير ذلك من الفتاوى التي تقول بأن الزوج غير ملزم بكفن زوجته إذا توفت ولا مصاريف الجنازة ولا مصاريف العلاج إذا مرضت، بل يلتزم بها ولي أمرها (الأخ أو الأب إن وجد) وبطبيعة الحال فهذا ليس فقها شرعيا بقدر ما هو معلمٌ أسياسي من الحياة النفسية للمجتمع العربي الذي غرق في النرجسية والمادية.. فقد تعامل مع الزوجة على أنها محل عقد منفعة أو مصلحة وكأن الشاب يذهب ليستأجر فتاة من والدها لمنفعة غرضه الجنسي منها، ويستمر العقد صحيحا (بين الزوج والولي) باستمرار منفعته، وإذا توقفت توقف سريان العقد وعادت المأجورة لوليها مرة أخرى، لأن العرب لم يعرفوا معنى الإنسانية أو الاندماج الأسري بأن تكون الزوجة هي أم الأولاد ورفيقة حياة، وأن أقل حقوقها هي رعايتها إن مرضت.

٣٧ـفبعد رحيل النبي عليه السلام بدأ الانحطاط الفكري وذوبان التسامح والرقي الإنساني، وزاد التوسع الأفقي بدرجة مذهلة أفقدت الفقه قيمته العلمية: (فالفقهاء على عدم التزام الزوج بعلاج زوجته المريضة ولا بتكلفة كفنها ولا جنازتها – وأفتوا بأن غير المسلمين بالنسبة لنا مال أي من قيمة الحيوان الذي يباع ويشترى في الأسواق! – انتهاك حقوق الدفاع الشرعي لغير المسلمين ـ المؤرخين الإسلاميين (ابن كثير والطبري وغيره) لم يعلقوا على أحداث العدوان الصارخ والمجازر غير الإنسانية، مثل الوقائع التاريخية التي أوردوها في كتبهم ولم يستنكروها وصمتوا عنها مثل وقائع نهر الدم وأسر أطفال كنيسة الحصن في عين التمر وقتل الأسرى، عبروها ببرود أعصاب وهدوء غير إنساني – ظهرت فكرة قتل الكافر قربانا لله مع ظهور فكرة جهاد الطلب – الشعور النفسي الدائم لدى كل مسلم بأن كل كافر هو عدو، بينما الحقيقة أن كل كافر هو إنسان والأصل في الإنسان البراءة، ولا يمكن إطلاق عليه مسمى عدو إلا إذا أظهر العداء، ومجرد كفره لا عداء فيه بل يظل سلمي مسالم، لكنهم ذابت في عقولهم فكرة السلام)

٣٨ـ وظهرت فتاوى شاذة مثل ابن تيمية وظاهرة (يستتاب وإلا قتل) وهي ليست من الإسلام، وليس في الإسلام عقوبة على عقيدة أو فرض من فروض العبادة لأن العبادة يحاسب عليها الله وحده، العقوبات فقط هي على الجرائم التي تضر بالمجتمع (الجرائم المادية فقط مثل السرقة والزنا والقتل والضرب) أما التي لا تضر بالمجتمع بشكل مباشر فيتولى الله الحساب عليها) مثل شرب الخمر ولعب القمار والكذب والكفر بالله والشرك به، فالله تعالى صرح للمجتمع فقط بمعاقبة المخطئ في جريمة تضر المجتمع بشكل مباشر، أما الجرائم الأخرى فترك حسابها عنده يوم الحساب، أما الفقهاء في مرحلة التوسع الأفقي فقهيا فرضوا عقوبات على ما يخص الله، حتى أن ابن تيمية فرض عقوبة (يستتاب وإلا قتل) على كل من خالف أمرا من أوامر الله، وكأنه جعل من نفسه وصيا على العبادة ويراقب العباد في طاعاتهم لله، ومنح لنفسه السلطة لمعاقبة من خالفه في أمور العبادة والعقيدة، مع أنه اعترف سابقا بأن الكفر ليس مبررا للقتل، ولكن اضطراباته النفسية جعلته في حالة صرع مع العقوبات، لدرجة أنه حرم كل فعل لا يعتبر من وجهة نظره عبادة، فحرم العمل بالكيمياء والفلك وغيرهما من العلوم العقلية) ويؤكد ذلك ما ذكره ابن تيمية: [أن النبي قد قبل توبة جماعة من المرتدين، وأمر بقتل جماعة آخرين، ضموا إلى الردة أمورًا أخرى تتضمن الأذى والضرر للإسلام والمسلمين، مثل أمره بقتل مقيس بن حبابة يوم الفتح، لما

ضم إلى ردته قتل المسلم وأخذ المال، ولم يتب قبل القدرة عليه. وأمر بقتل القرنيين لما ضموا إلى ردتهم مثل ذلك، وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى ردته السبَ وقتل المسلم، وأمر بقتل ابن أبي السرح لما ضم إلى ردته الطعن والافتراء) اهـ بتصرف . (الصارم المسلول" لابن تيمية (ص٣٦٨) أي أنه اعترف بأن الارتداد عن الدين في حد ذاته غير موجب لعقوبة، وبرغم ذلك عاد ابن تيمية ليحكم على من همهم بصوت في صلاته بأن يستتاب وإلا قتل ! والمشكلة هنا ليست في ابن تيمية لأن كل إنسان من حقه أن يعبر عن رأيه واضطراباته النفسية بكل حرية، فحرية الرأي والفكر والعقيدة مقدسة للجميع دون استثناء، لكن المشكلة في أن أغلب العرب والمسلمين تلقوا هذا الفكر المضطرب بالقبول واقتنعوا به، بل وجد هوى في نفوس الأغلبية الساحقة.

٣٩ـومن المفارقات الغريبة، اعتبار الهجرة هي موعد للاحتفال كل عام، مع أنها كانت عملية تهجير قصري تعادل الطرد، وهي هروب من مكة، فقد نجحت قريش في تهجيره من مكة رغما عنه ونكلت بأصحابه، وبالتالي كان من المفترض أن يكون الاحتفال بالعودة وفتح مكة لا بالهروب مضطرا منها، لكن القرشيين نجحوا عبر التاريخ من خلال الثورة المضادة على الإسلام في قلب المفاهيم ليرسوا مبادئهم الفاسدة، فجعلوا المسلمين يحتفلون بالهجرة بدلا من الفتح! لأن الهجرة كانت اضطرارا للنبي بينما الفتح كان مذلة لهم، ونحن خلفهم لما يزيد عن الألف عام! وربما أهل السنة أنفسهم هم من قرروا الاحتفال بالهجرة لسببٍ آخرها إثبات بطولة أبي بكر الصديق في هذه الرحلة، إذ قالوا بأنه كان ملازما لرسول الله في الهجرة وكان بصحبته في الغار، كي يعظموا من دور أبي بكر البطولي في الدعوة وليبرروا له أحقيته بالخلافة في مقابل علي أبي طالب الذي بقي في بيت رسول الله وقت الهجرة مستعدا لمواجهة الموت، وهذه نقطة تحسب لصالحه بالطبع وتمسك بها الشيعة باعتبارها مركز قوة، فاضطر السنة لتحديث رفقة أبي بكر للنبي في الغار ليصبح مركزه أقوى ومن ثم أحقيته في الخلافة ، برغم أن المنطق يقول بأن من كان مع النبي في الغار هو الدليل المرشد للنبي في الهجرة وليس أبي بكر، وبرغم أن مرويات البخاري ذاتها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن أبا بكر كان في مكة وقت أن هاجر النبي.

٤٠ـلم تقم دولة فعلية للعرب كما قامت حضارات الهند القديمة والصين القديمة ومصر الفرعونية وحضارة فارس القديمة وحضارة الرومان القديمة ، فهذه الحضارات قامت على أنشطة إنتاجية (زراعة – صناعة – عمارة ـ تجارة) وكان لها مركز نشاط سياسي واقتصادي وثقافي هو مقر العاصمة، على

العكس نجد أن الدولة العربية لم تستمر عاصمتها في المدينة سوى أربعة عقود، ثم انتقلت السلطة إلى المستعمرة الجديدة دمشق وهي من البلاد المحتلة الأكثر تحضرا من بلاد العرب، ثم انتقلت إلى مستعمرة أخرى هي بغداد وهي من البلاد المحتلة الأكثر تحضرا من بلاد العرب أيضا، ولم يكن موطن العرب الأصلي (شبه الجزيرة) مقرا لحضارة يوما ما، فقط هاجرت بعض العائلات العربية وسيطروا على الشعوب المجاورة، وتفرع عن دولة العرب مركز قيادة آخر في الأندلس وهي أيضا من البلاد المحتلة وكانت أكثر تحضرا من بلاد العرب، ثم انتقلت إلى الأستانة ، وبقيت بلاد العرب الأصلية على ذات الدرجة من التخلف والجهل، ولم يرد عليها جديد إلا زيادة أعداد العبيد الذين تم اصطيادهم من البلاد الأخرى المحتلة، ولم يكن هناك مقر ثابت ومركز نشاط ثقافي وسياسي واقتصادي كما باقي الحضارات، فانتقال السلطة هنا لا يعني تغيير العاصمة جغرافيا بقدر ما هو تبادل وتصارع على السلطة وتفتت بين دويلات وممالك في الغالب لم يكن الخليفة مسيطرا سيطرة فعلية كما كان الحال في مصر الفرعونية أو الصين القديمة أو الدولة الرومانية. وكانت الأندلس مستقلة عن دولة العرب في بغداد تماما بنسبة ١٠٠٪ ، بل كان حكام الأندلس أعداء لحكام بغداد الذين ذبحوا نسلهم وقطعوه من الوجود.

٤١-حاول العرب تأسيس دولة بالاعتماد على نشاطهم الرئيس، وهو الإغارة والحرب: فبعدما كان الجيش الإسلامي في عهد النبي مكون من المسلمين فقط، وليس أي مسلمين، بل الصحابة الأبرار دون الأعراب، كان جيشا نقيا مخلصا في سبيل الله. وكانت وجهته على الأعداء المهاجمين فقط، فلم يوجه هذا الجيش قوته في صدر مسلم أو مسالم، وإنما فقط للدفاع ضد المعتدي.. وبرغم أن الصحابة الكبار (أبو بكر وعمر) كانا حريصين على أن يظل الجيش من المسلمين الأنقياء فقط، لكن تسرب النفاق إلى الجيش تدريجيا بعدما زادت عائدات هذا الجيش وأصبح مصدرا للدخل القومي، فبدأ الانحراف على يد القائد خالد الوليد الذي خالف أوامر أبي بكر وضم إلى الجيش رجال مسيحيين عرب وعجم أرادوا المشاركة في الغنائم والسبي والأسلاب لأن مهنة العسكريين في هذا الوقت لم تكن جهاد في سبيل الله بالمال والنفس، بل كانت فيزا العمل في الخليج، وذلك خلال غزو العراق وفارس والشام ومصر. ثم بالمرور إلى شمال أفريقيا كذلك أصبح قائد الجيش الفاتح نفسه من فلول قريش الفارين (عبد الله أبي السرح)، ثم مع بداية صعود الثورة المضادة على السطح بقيادة معاوية أبي سفيان وبدء تأسيس الدولة الأموية، كان الجيش قد تحول بالتزامن، فأصبح جميعه من العجم وغير المسلمين أو المسلمين الجدد الذين لا

يعرفون العربية ولا الإسلام، حتى أن قائد الجيش نفسه طارق زياد لم يكن عربيا بل كان بربريا وجيشه بربري يضم ٣٠٠ رجل فقط عربي بين جيش قوامه سبعة آلاف مقاتل، وهو ما يعني انخفاض الإسلام في صدور الرجال بذات القدر والنسبة ٣٠٠ / ٧٠٠٠ وتغلبت القوى المعادية للإسلام عليه من داخل قريش ومن كافة محاور القوى (مقر الدولة انتقل من المدينة إلى الشام ولم يرتضوا بمدينة رسول الله عاصمة لهم فلم تكن تمثل لهم قداسة روحية ودينية كما كانت بالنسبة للصحابة الكبار، فنقلوا عاصمتهم إلى الشام رغم اضطرارهم لاستخدام الدين الإسلامي كأداة للدعاية السياسية والسيطرة على الشعوب، وبقيت مدينة رسول الله مقرا للمعارضة لكلا الدولتين الأموية والعباسية، وطبيعة الثورات هكذا يتحول مركز الصحوة إلى ركن المعارضة عندما تتغلب الثورة المضادة.

٤٢- أما التحول الثقافي فجاء في عصر التدوين في عهد الدولة العباسية، التي نقلت الحكم إلى العراق بعد أن انتزعت السلطة من بني أمية، وبدأت مرحلة التدوين وكتابة التاريخ، ولأن القلم مع الظافر دائما، فجاء تاريخ الإسلام وخاصة السيرة النبوية ليعبر عن رؤية الظافر وتوجهاته السياسية وفلسفته، وكما أصبح المتحدث باسم الإسلام هو قائد عسكري بربري أجنبي عن الإسلام وثقافته، أصبح العلماء والمؤرخون من غير العرب أيضا، وهو ما يؤكد الطبيعة الهمجية البدائية للعرب حتى أنهم بعيدين عن العلم والمعرفة، حتى العلوم الإنسانية التي جاء بها الإسلام لينتشلهم من الجهل تركوها لغيرهم.

يقول الدكتور أحمد صبحي منصور[1] : ظلت روايات السيرة يتناقلها الناس شفهيا إلى أن قام ابن اسحق بتدوينها من ذاكرته تلبية لطلب الخليفة المهدى. وتوفى ابن إسحاق عام ١٥٢. ثم نقل ابن هشام المتوفى عام ٢١٨ سيرة ابن إسحاق. ومن الطبيعي أن تتأثر الروايات الشفهية باختلاف الرواة وأهوائهم ومدى ضعف ونسيان الذاكرة . ومن الطبيعي أيضا أن يتأثر تدوين هذه الروايات بثقافة العصر وانعكاساته وبشخصية المؤلف ودوافعه، لأنه في هذه الحال لم يعد المؤرخ مدونا لحقائق شهدها بنفسه فنقبلها منه باعتبارها شهادة شاهد عيان، وإنما " مؤلف" يعمل على توليف الأخبار والروايات وتنسيقها ورصدها من ذاكرته، حيث جاء ابن إسحاق بعد ١٥٠ سنة من وفاة حدث النبوة ليؤلف كتابا يحكي فيه حكاية نبي.

١ - نقل بتصرف عن الدكتور أحمد صبحي منصور- مقال بعنوان: لمحات قرآنية عن معركة وليس (غزوة) بدر ، بتاريخ: السبت ٢٨ أغسطس ٢٠١٠ منشور على موقع أهل القرآن : http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=6967

وابن إسحاق ولد وعاش في المدينة التي كانت مركز المعارضة للأمويين ثم العباسيين في بداية حكمهم، وكان جيء بجده (يسار) للمدينة من سبي عين التمر، ضمن مجموعة الأربعين طفلا الذين خطفهم خالد الوليد من الكنيسة، أي جيء بجده سبيا عبدا ، وعاش ابن إسحاق في المدينة يحمل وصمة أنه من الموالى، في وقتٍ علا فيه شأن غريمه مالك بن أنس لأنه عربي. وفى الصراع بين المدينة والعباسيين في غضون ثورة محمد النفس الزكية ضد أبى جعفر المنصور انضم مالك للثورة وتعرض لبطش العباسيين بينما هجر ابن إسحاق المدينة ولحق بالعراق أرض أجداده، ولحق بالعباسيين وسكن عاصمتهم. ويقول بن سعد أنه خرج من المدينة قديما فأتى الكوفة والجزيرة والري وبغداد فأقام بها حتى مات. وفى العراق روى الناس عنه، ويقول ابن سعد عنه : (ومن الناس من تكلم فيه) ،أي اتهمه بالكذب. وكان أبرز من اتهمه بالكذب غريمه الإمام مالك بن أنس.

وزعم بعض الناس أن ابن إسحاق تلقى روايات السيرة عن ابن شهاب الزهري، لكن ذلك محض أكاذيب وتلفيق، ومنهم من افترى أن ابن شهاب الزهرى مدحه، وهذا أيضا تلفيق لأن ابن شهاب الزهرى عاش بالبلاط الأموي حتى وفاته ولم يقابل ابن إسحاق ولم يتعرف عليه. وبهذا الإسناد الكاذب كتب ابن إسحاق السيرة كما يحلو له وكما يريد أن تحلو للخليفة المهدي العباسي. وصارت سيرة ابن إسحاق هي العمدة التي ينقل عنها اللاحقون، يضيفون ويكررون، لكن إلى سيرة ابن إسحاق يرجعون."

وكان ابن إسحاق أول من استخدم هذه المصطلحات (غزو وإغارة وسبي وغيرها) من تلك التي كانت سائدة في الجاهلية وقضى عليها الإسلام. والأمر لا يتوقف عند حدود وصف معركة دفاعية بأنها غزوة أي معركة هجومية بالمخالفة لما تواتر على لسان العرب وما أوردته المعاجم، فلا يعقل أن يكون مؤرخا عظيما بهذا الحجم غير عالم بدلالات ألفاظ اللغة ومراميها الدقيقة، فالقرآن وهو دستور وشريعة هذه الأمة جاء معجزة للعالم باللغة، فقد تحدى العرب ببلاغته، ومع ذلك استخدم ابن إسحاق مصطلحات معكوسة، ربما لم يتعمد ذلك، لكنه وقع في الخطأ. ومن يدافعون عن هذا الخطأ ويبررونه يقولون بأن كلمة غزو يمكن إطلاقها على أي حرب أيا كان الموقف فيها سواء كان دفاعيا أو هجوميا، وهذا بالطبع غير منطقي لأن فعل الغزو يعني ابتداء الحركة والهجوم، وقد لازمه مصطلحات تحمل نفس الدلالة مثل الإغارة في غير محلها أيضا. غير أنه لو قلنا أن الغزوة هي مسمى يطلق على كل حرب أيا كان الموقف فيها، فإننا سنجد ابن إسحاق قد تعمد استخدام كلمة غزو في مواقف

وأحداث تاريخية لم تقع فيها حرب بالمرة، مثلما وصف هو "غزوة دومة الجندل" وكما قال هو حرفيا: ((ثم انصرف رسول الله عليه السلام إلى المدينة، فأقام من مقدم رسول الله بها أشهرا حتى مضى ذو الحجة وولى تلك الحجة المشركون، وهي سنة أربع، ثم غزا رسول الله دومة الجندل، ثم رجع رسول الله من قبل أن يصل إليها ولم يلق كيدا فأقام في المدينة بقية سنته)).. وغير ذلك في كافة تحركات النبي أطلق عليها غزو، حتى ما كانت منها سرايا استطلاعية أسماها غزوة، لدرجة أنه جعل في حياة الرسول ثمانين غزوة، برغم أنه لم تحدث في حياته ص سوى سبعة معارك كان النبي فيها مدافعا وليس مهاجما، وكل ذلك يحول حياة الرسول ورحلته الدعوية إلى بطولات حربية، وكأنه جاء محاربا لا رسولا.

لكن الغريب أنه كان يتجاهل الدوافع إلى هذه الأحداث، فلم يظهر بوضوح في السيرة أن الرسول كان مدافعا، وإنما من يقرأ لا يجد أسبابا جلية لتحركات النبي فيشعر أن رسالته كانت قائمة على الهجوم والمباغتة بالحرب، وليست الحرب دفاعا شرعيا اضطراريا بالنسبة له ص، فالعرب صبغوا التاريخ بنكهتهم الحربية وفلسفتهم النرجسية، وفي ذلك يقول د. أحمد صبحي منصور: فيما يخص موضوعنا عن اختلاف سيرة ابن إسحاق عن القصص القرآني الخاص بمعركة بدر، فإن هناك أحداثا أشار إليها القرآن الكريم وأهملتها سيرة ابن إسحاق، وأحداثا زعمتها سيرة ابن إسحاق وهى تخالف ما جاء في القرآن الكريم. فقد أغفل ابن إسحاق السبب الحقيقي في الهجوم على القافلة (قافلة قريش التجارية) وأغفل السبب الحقيقي في الإذن للمسلمين بالقتال، مع أنه منصوص عليه في القرآن الكريم: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله : ٢٢ / ٣٩ ، ٤٠ ". هنا إشارة قرآنية لمعارك من طرف واحد كان يشنها مشركو قريش على المسلمين في المدينة، ولقد تجاهلها ابن إسحاق."

ربما تسبب هذا التجاهل من جانب ابن إسحاق أثناء تدوينه لسيرة الرسول، تسبب في كثير من الفهم الخاطئ، فكيف يذكر أن نبي أمر بالهجوم على قافلة تجارية في طريقها، دون أن يوضح السبب الذي دفع النبي لذلك، فهذا التجاهل حتما يغرس في عقل القارئ والمتلقي أن النبي هو المعتدي وهو البادئ بالهجوم لا لسببٍ إلا السلب والنهب، فما ينتظر من الهجوم على قافلة تجارية إلا سلبها ونهبها؟ بالطبع ليس نشر الإسلام. بالطبع هذه الطريقة في سرد الوقائع التاريخية توحي بأن الحرب في عهد النبي أخذت طابع الحرب عند العرب في الجاهلية، وكانت تقوم على فكرة الإغارة فقط للنهب والسلب وخطف الأطفال

والنساء واغتصابهم واسترقاقهم وبيع ما فاض في أسواق النخاسة، مع أن هذه لم تكن فلسفة النبي أبدا، ولا أي نبي.

الله تعالى يصف خروج المشركين للقتال في موقعة بدر بقوله " ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله : ٨ / ٤٧ ". ويعلق د. أحمد منصور قائلا: هو أروع وصف لجيش يتيه بقوته وواثق من النصر. وفى المقابل يصف جيش المؤمنين حين عرفوا بالمفاجأة وهو تحتم الاشتباك مع ذلك الجيش بعد هروب القافلة فيقول" كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون " ذلك الفريق من المؤمنين كره الاشتباك مع ذلك الجيش الجرار وأخذ يجادل النبي في الحق الذي تبين ـ وهو تحتم القتال وحتمية الانتصار على العدو ـ وكانوا قد غلبهم الرعب كأنما يرون الموت بأعينهم، ولكن النبي عليه السلام نجح في إقناعهم في النهاية.

وغير ذلك أكاذيب تخالف ما جاء في القرآن، يقول د. أحمد منصور: " نرى ذلك واضحا في موقف أهل بدر، ففي التراث نرى المسلمون يسارعون بالترحيب بالدخول في الحرب. وذلك يخالف الحق القرآني الذي أثبت أن فريقا منهم كان كارها للحرب، وقد أخذ يجادل النبي في جدوى الحرب، لكن ابن إسحاق تجاهل هذا الجدل وعبر عن ترحيب المسلمين بقرار الحرب وتجاهل أسباب تحرك المسلمين تجاه القافلة، وتجاهل تحرك جيش قريش في غرور لسحق المسلمين؛ لأن الخليفة المهدي الذي أمر بكتابة السيرة هو سليل قريش، ولا يريد أن يرى أجداده في موقف المخطئ في التاريخ.

ويلفت نظرنا د. أحمد منصور إلى ما هو معروف ومشهور أن العباس عبد المطلب شارك في معركة بدر مع المشركين وتم أسره. وليس مستبعدا أن يكون قد شارك أيضا في تلك المعارك التي لاحق بها مشركو قريش المسلمين بعد هجرتهم للمدينة، وتجاهل ابن إسحاق هذه الأحداث ليرضى الخليفة المهدي حفيد هذا العباس. والعجيب أن يتجاهل ابن إسحاق مشاركة العباس للمشركين في بدر بل يروى حكايات يدافع فيها عنه، برغم كونه من الكفار الذين حاربوا النبي ووقعوا في الأسر لدى النبي، وقد تشاور النبي مع صحابته في أمرهم.. هذا العباس مدحه ابن إسحاق في سيرة النبي وأخفى دوره مع المشركين في معركة بدر. كل ذلك فقط لكون المؤرخ بن إسحاق كان واقعا تحت وصاية الخليفة

العباسي المهدي حفيد هذا العباس ابن عبد المطلب، ومن الطبيعي أن يكتب السيرة بما يرضى سيده الحفيد القرشي وليس بما يرضي الله ورسوله.

ثم يتجرأ ابن إسحاق على الرسول والإسلام كليا، فيحاول أن يصور "الغزوة" بأنها كانت تتم لأسباب اقتصادية ! ويصور النبي والصحابة وكأنهم عصابة قطاع طرق يهجمون على الناس ويباغتونهم بالقتل والسلب والنهب ثم يختلفون مع بعضهم عند اقتسام الغنائم فيطاردون الرسول ويضطرونه للهرب منهم إلى جزع شجرة ويخطفون منه عباءته، ويبدأ هو في الدفاع عن نفسه..!!

يفترى ابن إسحاق هذه الرواية السامة، فيقول: : (ولما فرغ رسول الله {عليه السلام} من رد سبايا حنين إلى أهلها، رَكِبَ وَاتّبَعَهُ النّاسُ يَقُولُونَ يَا رَسُولَ اللهِ اقسِمْ عَلَيْنَا فَيْئَا مِنَ الإِبِلِ وَالغنم حتى ألجئوه إلى شَجرةٍ فاختطفت عنهُ رداءه فقالَ أدوا عليَّ ردائِي أيها النّاسُ فوالله أنْ لوْ كانَ لكُمْ بعددِ شَجرِ تِهامة نعمًا لقسمته عليكُمْ ثمّ ما ألفيتمُوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا ..)

وتبدو الخطورة في الزعم بانتشار الإسلام بالسيف، تلك القضية التي تدعمها روايات التراث وترفضها آيات القرآن، وإذا احتكمنا إلى مصطلحات القرآن في معنى الإسلام والإيمان وجدنا أن الإسلام مبنى على السلام والأمن وحرية العقيدة، بينما كتب السيرة تبني الإسلام على القتل والغزو والدمار، وإذا رجعنا إلى آيات التشريع في القتال وجدنا التأكيد على أن المقصد التشريعي للقتال في الإسلام هو تقرير الحرية الدينية ومنع الفتنة أو الاضطهاد الديني، ووجدنا القاعدة التشريعية الأساسية هي أن هدف القتال هو رد الاعتداء " البقرة ١٩٠ ـ ١٩٤ ".

فما جاء في القرآن الكريم يخالف تلك الصورة التي رسمها ابن إسحاق في سيرته للنبي محمد عليه السلام. ومن أسف أن تشيع سيرة ابن إسحاق وتتوارى من أجلها حقائق القرآن الكريم. وانتقلت تلك الصورة إلى الأجيال، فأظهرت خاتم النبيين وكأنه كان يحترف القتال والغزو، لدرجة أن كلمات غزو ، وغزوات، ومغازي ملأت الكتب والمراجع التاريخية وصارت لها الصدارة ، وهي محض افتراء على النبي، فهي جاءت من مخيلة العرب في صياغة تاريخ النبي بما يخالف الحقائق.. جعلت النبي وكأنه هو المبادر بالحرب والعدوان والغزو والهجوم على المجتمعات والشعوب المجاورة، صورت أن آلية الدعوة هي الجهاد، بينما الحقيقة أن الجهاد هو آلية متطورة من المقاومة التي بدأت في مكة منذ فجر الدعوة، وهو حق شرعي لكل مجتمع وليس حصرا على المسلمين.. جعلوا تحركات النبي مبادرة وفي الواقع كانت

دفاعية ومجرد رد فعل لتحرك عسكري سابق عليه.. هذه الافتراءات شوهت الدين وجعلته يتناسب فقط مع النفسية العربية البدوية المتوحشة.. جعلته كتالوجا مناسبا لحياتهم.. وعززها تمسك رجال الدين بتلك الأكاذيب باعتبارها صارت ثوابت الأمة ! ولأنها تاريخ الصحابة الكرام، ويتناسون أن الله جل وعلا بعث خاتم النبيين رحمة للعالمين ، وليس لقتل وإرهاب وترويع العالمين.. أما الصحابة فهم بشر يصيبون ويخطئون لأنهم ليسوا شركاء في النبوة ولا الرسالة، بل جاءت النبوة والرسالة موجهة إليهم تحديدا، وليس ببعيد احتمال تزييف تاريخ الصحابة لإخراجهم بصورة غير حقيقية.. صورة ملؤها العنف والوحشية.. لأن من زيف تاريخ النبي يستطيع تزييف تاريخ أصحابه، غير أن المراجع التاريخية ذاتها مثل ابن كثير والطبري وابن إسحاق وغيرهم، فلا يقين بشأنها، بل إنها تثير الريبة أكثر، مما يجعل احتمالية تزييفها واردة أكثر من احتمالية خطأ الصحابة، فمن الأسهل توجيه اللوم على المؤرخين لا توجيه أصابع الاتهام مباشرة للصحابة أو غيرهم. ذلك لأن هؤلاء المؤرخين ذكروا جرائم حربٍ ضد الإنسانية ومروا عليها بهدوء غريب ودون تعليق، وهو ما يثير شبهة تعمد كتابة النص هكذا، لكن الأغرب أن كتب التاريخ الأجنبية في البلاد التي انكسرت إرادتها تحت أقدام العرب الفاتحين ذكرت ما هو أبشع ! وعلى كل حال، فليس الغرض من هذه الدراسة توجيه أصابع اتهام أو محاكمة شخصيات تاريخية أو دراسة شخصيات وإنما وضع الإصبع على مواضع الخطأ والخلل العقائدي والسلوكي التي انتقلت من كتب التاريخ إلى كتب الدين فخضبتها..

٤٣ـ أما آخر معلم من معالم انقلاب العرب على الدين الإسلامي هو تغليب الروايات التاريخية على القرآن، ففي عهد الرسول كان القرآن هو الحاكم بأمره، وكان النبي إذا سئل عن شيء لا يفتي بعلمه الدنيوي ولا مجهوده العقلي وإنما ينتظر الوحي ليفتي في ضوئه، ومنع الصحابة من نسخ وتدوين أحاديثه ومقولاته حتى لا تحل محل القرآن أو تنافسه فيما بعد لأنه يعلم عادات العرب، ثم تبعه الخلفاء الأوائل في ذلك ومنعوا جمع الروايات وتدوينها، فعل ذلك الخليفة أبو بكر الصديق وعمر الخطاب وتواتر العمل بالقرآن وحده حتى توفي عمر فطفا أبو هريرة على السطح بمعاونة معاوية أبي سفيان حينما تغلبت الثورة المضادة على الإسلام. ومنذ هذا التاريخ اعتاد الفقهاء على تقديس المرويات وتغليبها على آيات كتاب الله في كثير من الأحيان قالوا بأن الحديث ينسخ كتاب الله ويقيده ويخصصه وكأن الروايات التي تناقلت شفويا على مدار مائتي عام صارت هي الحاكم للقرآن بعد أن جاء البخاري ليدونها في كتابه " صحيح البخاري"، فيقول البخاري نفسه ويعترف بخطئه دون أن يدري،

فيقول: " إذا سقطت السنة.. فسوف يحرفون معاني ومرادات القرآن كما يريدون من دون حفيظ ولا رقيب عليهم! " أي أن البخاري بطيبة قلبه كان يرى أن السنة هي الحفيظ والرقيب على القرآن أو على المسلمين في تفسيرهم للقرآن !..المشكلة هي أن السنة التي جمعها الرواة ما هي إلا موروث العرب الثقافي مندمجا في عاداتهم وتقاليدهم وما كذبوه على الرسول.. وبالفعل هذا هو ما كان يريده معاوية حينما غذى ثورته المضادة على الإسلام، وبالفعل تحقق مراده واستمر إلى يومنا هذا.

هكذا صاغ العرب التاريخ الذي يرضيهم لا تاريخ الإسلام الحقيقي، وتركوا المسلمين حول العالم حائرين بين مرويات التاريخ وبين القرآن، ويفاضل بعضهم للأسف بين كتبٍ بشرية ملؤها اللغط والشطط وبين كتاب الله القرآن، وصرنا في نقاش وجدل مستميتٍ لا ينتهي، خداع ووهم شغلوا به المسلمين زمنا طويلا، لصدهم عن التفاعل مع القرآن.

ففي عصر النبي والخلفاء الأوائل كان للقرآن الكلمة العليا وكان النبي إذا سئل في أمر لا يعلمه يصمت انتظارا للوحي، وبعد وفاة النبي رفض كبار الصحابة (أبو بكر وعمر الخطاب رواية أحاديث عن رسول الله، ولم يقبلها عمر إلا بضوابط شديدة) وبمرور الوقت بدأ هجر القرآن وتفعيل المرويات والحكايات عن الرسول والتي كانت مرتعا للغش والكذب، وملعبا خصبا للشعارات السياسية، ثم صارت هذه المرويات لها الكلمة العليا علي القرآن بطريق غير مباشر إذ أصبحت نصوص المرويات هي النماذج العملية والتطبيقية للإسلام وهي المفسرة للقرآن والحاكمة للنص القرآني في كثير من مواضعه، ويخضع تفسير النص لها ويظل مقيدا بوجهتها، ما يعني أنها صارت ضمنيا هي الإسلام طالما تم تفسير النص القرآني في حدود المرويات فهي المعيار الذي يفسر به القرآن، بل ودخلت سنة الصحابة ضمن هذه المعايير في تفسير وتأويل النص القرآني ، أي أصبح القرآن مجرد نص نظري يتم تفعيله فقط بالنظر إلى سلوكيات الصحابة وأفعالهم وإقراراتهم وفي ضوء المرويات التي نقلوها وتحت إشرافها، بل وبمرور الوقت أصبح لهذه المرويات قدرة فعليه علي تعطيل نص قرآني والحلول محله بحكم من المرويات كما قال من نادوا بنسخ القرآن بالسنة مثل آية: " لا إكراه في الدين "، ومن أطلقوا علي المرويات مصطلح الوحي الثاني.. وكما قال البخاري أنه قرر أن يجمع السنة كي تكون المعيار والضابط في تفسير وتأويل القرآن، وحتى لا ينحرف المفسرون بعد ذلك.. ويا ليتها كانت السنة الحقيقية النقية.. وكأنه كان يرى أن مرويات عصره هي نماذج عملية مثالية لتطبيق القرآن، برغم أن هذه المرويات تمثل ثقافة عصره أكثر مما تمثل عصر النبي.

****



الإضاءة الثانية

مسقط رأسي بين الفقه والفقهاء

المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي

في منتصف القرن الماضي ترشحت البولندية ماري كيوري لجائزة نوبل في الفيزياء لاكتشافها ظاهرة الإشعاع الذري، ثم ترشحت للمرة الثانية لنيل جائزة نوبل لاكتشافاتها العظيمة في الكيمياء، وبالفعل فازت بالجائزة، لكن الصحافة شنت عليها حملة شنعاء، فالرأي العام لم يكن وقتها ليستوعب أن تحصل امرأة على نوبل أصلا، فالعلم إنما للرجال كما يقول الشيخ الحويني، فكيف لماري وهي امرأة أن تحصل على نوبل مرتين، واحدة في الكيمياء بالشراكة مع زوجها، والثانية في الفيزياء بمفردها، وبعد أن أعلنت اللجنة فوز ماري بجائزة نوبل للمرة الثانية، بعثوا إليها برسالة تقول " لا تحضري لاستلام الجائزة لأنك مفضوحة "..

وهنا نشأت إشكالية غامضة، حول المعيار العلمي ذاته، فما علاقة الفيزياء والكيمياء بالمشاعر والسلوك الشخصي؟ وهي ذات الإشكالية التي اتخذها فقهاء المذاهب في حق الإمام الشافعي بقولهم أنه من الموالي وأن أصله ليس من قريش .. برغم أنه اشترط في الخليفة أن يكون قرشي الأصل ! ..

هذا هو الفارق بين المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي، فالعلم له معاييره المستقلة عن شخص العالم واعتباره الشخصي، وهو ما دفع ماري لأن ترد على اللجنة بشجاعة، وتذهب بالفعل لاستلام جائزة نوبل رغم التهديدات، فقد شنت الصحافة حملة رديئة على ماري وزميل لها، نشرت سلسلة مقالات بعناوين من نوعية " رومانسية في المعامل"، حاولت أن تنال من شخصية ماري وسمعتها بغرض حجب الجائزة عنها بحجة علاقة رومانسية بينها وزميلها بالجامعة، وأنها ليست من أصلٍ شريف وكانت تعمل خادمة قبل التحاقها بالجامعة، لكن ماري قالت: وما علاقة مشاكلي الشخصية بالاكتشافات العلمية؟ فلم ترد اللجنة، وذهبت ماري بالفعل لاستلام الجائزة.. ثم حصلت ابنتها على جائزة نوبل أيضا.. وحصل زوج ابنتها على جائزة نوبل كذلك، وحصلت ابنتها الأخرى وزوجها على جائزة نوبل أيضا في الفيزياء والكيمياء.. فأصبحت بذلك هي العائلة التي حصَلت أكثر عددٍ من جوائز نوبل في العلوم.

بل إنه في المحافل الدولية التي تعقد لتقييم العلوم والمكتشفات العلمية الحديثة ومنح الجوائز عليها، عادة ما تكون هناك لجان خاصة بالتحكيم لاختيار العمل الذي يستحق الفوز بالجائزة، ومن شروط الحيدة والنزاهة العلمية، أن ترسل اللجنة المنظمة الأعمال المرشحة إلى لجنة التحكيم خالية من أي بيانات تتعلق بأصحاب الأعمال المرشحة، (يتم حذف كل ما يشير إلى الهوية الشخصية والعلمية لأصحابها، وهو ما تفعله "مؤسسة العلوم النفسية العربية" كل عام عند طرح

جائزتها السنوية للباحثين والعلماء) حتى لا يكون لصاحب العمل المرشح وشخصيته أو منصبه أو مركزه الاجتماعي أو العلمي أي تأثير أو إيحاء نفسي على أي عضو من أعضاء لجنة التحكيم، فضمانة الحيدة والنزاهة العلمية هي أهم ضمانات تقييم المادة العلمية. لكن الغريب أن تقييم أحاديث النبي الكريم قامت جميعها على المعيار الشخصي" علم الرجال" وعلم "الجرح والتعديل " وهما يختصان بالبحث في شخصية الراوي وسيرته الذاتية كأساس للعلم بغض النظر عن موضوع العلم ذاته، بل ويتم اعتماد مصداقية العلم في النهاية بناءً على سمعة الراوي نفسه بغض النظر عما إذا كانت الرواية حقيقة أم خرافة ! فقط السند هو ما قيل عن فلان أن فلان ابن فلان ابن فلان لم يشتهر عنه الكذب، وأن البخاري صلى ركعتين قبل توثيق الحديث! حتى وإن كان هناك جانب يختص به علم المتون الذي يرتكز على البحث في الموضوع، لكنه في الوقع لم يصمد أمام طوفان الخرافات التي أسندها وصححها علم الرجال، فبقي المتن مجرد وسادة يتكئ عليها البعض عند محاولات النيل من علم الرجال، دون أن يكون لهذا المتن أي فاعلية أو تأثير في الواقع.

فلا يمكن أن نجد في العلوم الطبيعية، عند مناقشة النظرية النسبية في الفيزياء مثلا، أن يهب فريق للدفاع عن شخص أينشتين وأخلاقه ومدى احترامه لزوجته أو مدى العرق والجهد والوقت والسهر الذي كان يقضيه في المعمل! أو يثبت أنه كان يصلي ركعتي استخارة قبل إجراء كل تجربة معملية!. وكلما تعرض أحد لمناقشة الفيزياء النسبية أو الكلاسيكية يهب فريق آخر للدفاع عن نيوتن وأخلاقه وصفاته وقدراته الخارقة على ضبط وتأليف كتبه ومعادلاته الرياضية! فالعلم مجرد عن صاحبه، فأينشتاين على سبيل المثال كان مهملا وبليدا في مذاكرته، لم تكن ذاكرته بالقدرات الخارقة التي تمتع بها البخاري وهو يحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلب وهو في سن الحادية عشر!، بل إن إديسون وغيره من العباقرة كانوا بوهيمين فوضويين في حياتهم، لكن هذا لا يقلل من إنجازه العلمي شيء على الإطلاق لأن العلم مجرد عن صاحبه، وعندما نبحث في السيرة الذاتية للبخاري، سنجده من أصلٍ مجوسي فارسي، وأن جده عاصر الإسلام ورفضه، ومع ذلك فهذا لا يطعن في البخاري ولا يمسه بشيء لأن علمه مجرد عن شخصه ونسبه.

أما علماء الفقه الإسلامي والحديث فلديهم كنز ذاخر من العلوم والمعارف، ومع ذلك، لم يفكروا في الأمر جديا، بل اقتصرت جهودهم على ما أسموه " علم الرجال" وعلم " الجرح والتعديل"، وينصب علم الرجال على دراسة السير الشخصية لرواة الحكايات والروايات، أما الجرح والتعديل فمضمونه يدور

حول تجريح بعض الشخصيات من رواة الحديث والطعن في ثقتهم ومصداقيتهم وتكذيبهم بناءً على روايات غيرهم!، ما أوقف جهودهم في النهاية علي حدود "مصطبة القيل والقال".

فهم يعتمدون الحقائق العلمية بناء على أن فلان ابن فلان الذي عاش في العصر الفلاني كان صادقا أم كاذب ! بشهادة فلان ابن علان !! بدلا من أن يجهدوا أنفسهم في البحث حول هذه المادة التاريخية وهل هي حقيقة موضوعية أم محض جزء من تراث وموروثات العرب.. برغم أنه لم يثبت في التاريخ أن قامت حضارة علمية على مصطبة القيل والقال، وإنما يقوم العلم على الدليل، لأن العلم يتعامل مع العقل، وزاد العقل وسلطانه هو الدليل، فالعلم هو دليل يكمل الآخر. ولا يمكن اعتماد حقيقة علمية تقول بإمكانية حيود ضوء الشمس عند مروره بالقرب من كوكب عطارد بناءً على أن من قال ذلك هو أينشتاين وأينشتاين مشهور بالصدق أو الكذب بين فصحاء ومتحدثي عصره أو حتى عامة الناس ! فلا يمكن أن يعتمد العلم على معيار شخصي أبدا، وإنما يعتمد فقط على الدليل، ولا يمكن أن يكون الدليل هو أن أبا هريرة كان مشهورا بين الناس أنه يكذب أو لا يكذب! خاصة إذا وجد القرآن كتاب الله ولب الرسالة بين أيدينا، ولا يمكن لنص غيره أن يخالفه حتى وإن صدر عن النبي محمد، لأن النبي لم يبعث ليخالف القرآن، وإنما ليحمل رسالته إلى الناس، فهو مجرد رسول، أي قنطرة عبور من الخالق إلى الخلق ليشرح للناس مراد الله، فما كان لهذا الرسول أن يخالف مراد الله، بشهادة فلان ابن فلان.. بحجة أن فلان ابن فلان لم يشتهر عنه الكذب!

أو كلما انتقد أحد كتاب البخاري تهب كتائب للدفاع عن "شخص البخاري" وأخلاقه وصدقه وجهده في السفر والترحال وعبقريته الخارقة في تتبع السند والعنعنة وقدراته الخارقة في الحفظ والتلاوة! وصبره وصلاته ركعتين قبل كل رواية.. فأيا كانت الآلية التي اتبعها العالِم في التحقق والإثبات، هناك آليات علمية تتطور كل يوم ولا يمكن أن تقف عند فصلة زمنية معينة إلا إذا توقف العقل وتجمد عندها وعجز عن الحركة. فهناك موضوعية في العلم تتجرد تماما عن شخص العالم، ولذلك يتقدم العلم بصورة طبيعية، وتتقدم طرق الإثبات، لكن ارتباط العلم بشخصية العالِم هو آفة عصور الاضمحلال، حيث تعجز الأجيال عن الاستمرار في مسيرة العلم فيتفرغوا للتسبيح بحمد من سبقوهم، وهذا ما جعل العلوم الشرعية ترتبط بشخصيات تاريخية وتجمدت عند حدود رؤيتها للدين والأحكام الشرعية، في حين هذه الشخصيات التاريخية حتما تأثرت عقلياتها بظروفها البيئية

الاجتماعية وخلفياتها الثقافية وظروفها النفسية، فنحن لنا طبيعة بشرية متغيرة ومتأثرة بعوامل عديدة لا بد للعلم أن يتجرد عنها.

إن ارتباط النظرة الكلاسيكية للكون باعتبار الأرض هي مركز الكون، ارتباط هذه النظرة بشخص أرسطو وتقديسها دينيا أو اعتمادها من قبل الكنسية هو ما جعل نظرة العالم للكون تتجمد على مدار ألفي عام كاملة حتى جاء كوبرنيكوس ليعيد النظر إلى الكون، لكنه واجه عقوبة الإعدام حرقا لتجاوزه حدود للثوابت الدينية!. ثوابت الأمة المسيحية التي عاشت ألفي عام كاملة ! وهو ذات الوضع مع البخاري الذي اعتبر كتابه ثابتا من ثوابت الأمة الإسلامية التي عاشت ألف ومائتي عام كاملة !

وهو ما جعل قريشٍ تتمسك بثوابتها الدينية وعبادة الأصنام وتهدد محمدا عليه السلام بالقتل وتلاحقه في كل مكان لمنعه من التعرض لثوابتها الدينية وزعزعة استقرارها. هذه الوثنية التي جعلتهم يقولون: لا نعبد إلا ما ألفينا عليه آباءنا، فاللّه تعالى يتمسك بالكتاب.. المنهج، بينما هم يتمسكون بثقتهم في الأشخاص من الآباء والأجداد السابقين، فيقول جل وعلا: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)/ الزخرف. هكذا غلب الجهلاء المعيار الشخصي على المعيار الموضوعي وهو المنهج. وهكذا انتقلت ذات الفلسفة إلى عصور الإسلام متتالية متمثلة في طوائف تجمدت أفكارها عند ذات البؤرة مُصرة على أن تعبد اللّه وفقا للطريقة التي عبده بها السلف!. بغض النظر عن مسألة البحث في أصل المنهج! بل إنهم يرفضون البحث في أصل المنهج بأنفسهم مخافة الانحراف، ويثقون في تبعية السلف لهذا المنهج، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، مع أنهم في الواقع غلبوا الاعتبار الشخصي على المعيار الموضوعي.

المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي في الفقه

ينبغي علينا تجريد الدين من الاعتبارات الشخصية التي قد توقعنا في أزمة التبعية العمياء، ثم نفاجأ بأنهم يتبرؤون من تبعيتنا لهم يوم الحساب، فأخطاءهم الفقهية ليسو مسئولين عنها وإن تسببت في تضليل الأمة بأكملها، ذلك لأنهم أخلوا مسؤوليتهم وابرؤوا ساحتهم حين أنهوا أحكامهم وفتاواهم الاجتهادية بعبارة " والله أعلم" ، ولم ينطق أحدهم بما يعبر عن إلزام الأمة بآرائه واجتهاداته، بل أننا نجد الفقيه الأستاذ مالك ابن أنس رفض تعميم كتابه في الفقه ليلزم به الناس عندما طلب منه الخليفة المنصور ذلك، وإن كانت وجهة نظر المنصور تأتي قانونية تشريعية، لكن الفقيه المخضرم خشي من التبعة والتبعية وفهم أن الأمر ليس تشريعيا وإنما لعبة سياسية خبيثة.

وليس المقصود بالمعيار الموضوعي هو تحكيم العقل بمطلق الحرية، وإلا صارت تلك رغبة وهوى وليس عقل، لأن الدليل سلطان على العقل، أي أن الحرية العقلية ليست مطلقة وإنما مقيدة بالأدوات والمعايير، فيجب إعمال العقل بذات القدر الذي مكن الفقهاء من فهم نصوص القرآن وتفسيرها، فاستبعاد العقل هو استبعاد لأي فهم أو تفسير أو تطبيق، وهناك أطر عقائدية لا يجوز أن تتخطى المعقولية، والدين في الأصل جاء لتقويم السلوك، ولم يأت الدين مناقضا للعقل آمرا بالخرافة.

والإشكالية ليست فقط في رؤية السلف للدين والفقه، بل حتما اختلفت رؤيتهم للدين عن منهج النبي عليه السلام، ولو اختلافا طفيفا، ثم جئنا نحن لا ننظر إلى الدين المنهج الأصل بل ننظر إلى نتاج السلف، وحتما ستختلف رؤيتنا للسلف عن رؤيتهم الحقيقية، فيتضاعف بذلك مقدار الانحراف عن المنهج، ويتزايد هامش الخطأ، ثم تأتي أجيالٌ بعدنا تتمسك برؤيتنا للدين والتي هي تابعة لرؤية السلف، فيتضاعف هامش الخطأ ويزداد مقدار الانحراف مرات ومرات بتتابع العصور ومرور الزمن، ولذلك وجب على كل جيل أن يعود بنفسه للمنهج الأصل لا أن يعيش على اجترار ما هضمه الأولون ويتقيد برؤية آبائه وسلفه، أو أن يثق بهم مطلقا، بل فقط يأخذ منهم القدر الصحيح ليقف على أكتافهم لا على الأرض، ويستفيد من نتاج المعرفة الإنسانية عبر العصور، يستغل أفكارهم في بناء أفكر أعظم لا أن يتقيد بأفكارهم ويقتدي بها، فالمعارف تراكمية متغيرة، ولذلك يقول ربنا جل وعلا" وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)/ الإسراء. أي لا تتبع ما لا تفهمه لمجرد أن السلف قد فهموه هكذا.. لأن السلف لن يقفوا أمام الله ليحاسبهم بالنيابة عنك، ولن

يقبل الله منا القول بأننا اتبعناهم بإحسان وهم الذين أخطأوا الفهم الصحيح أو أن العاقبة عليهم؛ لأن الله منحنا العقل كي يحاسبنا عليه (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا). ولم يمنحنا العقل ليحاسب سلفنا عليه.

فالناس تخشي التدقيق وإعادة تدوير أفكار السلف، باعتبار أن كشف أخطاء السلف هي محض تجريح غير مقبول، لكن ذلك نابع من تقديس السلف، والأولى والأهم هو تصحيح الأخطاء لا تجريح السلف بسبب هذه الأخطاء، ومجرد استدراك الأخطاء لا يمكن اعتباره تجريح في السلف.. وأبسط الأمثلة، نجد أن كتاب البخاري أورد رواية تقول بأن النبي تزوج السيدة عائشة وكان عمرها تسع سنوات، أو كتب عليها وهي ابنة ست ودخل بها وهي ابنة تسع سنوات، ثم يبررون بأن البنات في شبه الجزيرة العربية كانت تكبر بسرعة نتيجة لظروف البيئة ودرجات الحرارة وأثرها على الهرمونات الجنسية، ثم يؤكدون ذلك برواية أخرى للبخاري مضمونها أن أم السيدة عائشة قالت أنها رأت في ابنتها عائشة أن فيها ما يرغبه الرجال، أي أنها ناضجة من حيث الأنوثة والجنس !

هذا الكلام أورده البخاري في صحيحه، بينما أشارت الكثير من المراجع التاريخية إلى أن النبي تزوج السيدة عائشة وهي (بكر بالغ عاقل رشيد ، وعمرها ١٨ عام).. لكن الفقهاء لا يحبذون البحث التاريخي ويحافظون على مصداقية رواية البخاري حتى وإن أساءت إلى النبي ذاته والإسلام ! ذلك لأنهم يعتبرون مجرد رفض نص رواية من رواية البخاري هو طعن صريح فيه، وهو غير قابل للطعن.. بينما نتأمل بواقعية بسيطة؛ فكيف للنبي وعمره في هذا الوقت يقارب ٥٥ عام، وهو صاحب رسالة وأمة ودعوة وجيش.. كيف لهذا النبي أن يتزوج طفلة قاصر عمرها تسع سنوات؟ أي في الصف الثالث الابتدائي؟ ثم نعرج على رواية أم رومان، وهي أم السيدة عائشة التي قالت بأنها رأت فيها ما يرغبه الرجال، ونتساءل نحن، هل كانت رغبة النبي في الزواج هي رغبة العرب وقتها؟ فقط الجنس حتى وإن كانت قاصرة عقليا؟ أو هل أن النضج الجنسي يعني نضج عقلي وصلاحية للزواج؟

فقد اتفق الفقهاء ضمنيا على أن سن الحلم هو الخامسة عشر، أي بداية سن الرشد ١٥ عام، وعلى هذا قرروا على الوصي على الأيتام أن يرد إليهم أموالهم ببلوغهم سن الرشد والذي يبدأ من ١٥ عام من عمرهم.. ونقرأ قول الله عز وجل: " وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ " أي المؤهلين للزواج، وهل التأهيل هنا هو تأهيل جنسي أم عقلي؟ أم هما معا؟ فالأرجح أن مرحلة البلوغ الجنسي تتوازي مع النضج العقلي ولا يمكن

القول بغير ذلك. وبالتالي فلا مسوغ لقبول روايات أن النبي تزوج طفلة قاصر بحجة أنها كانت ناضجة جنسيا أو بحجة أن هذه كانت عادات العرب وقتها ، لأن النبي لم يبعث ليرسي عادات وأعراف العرب على خطأها أو يتبعهم في أخطاءهم وأعرافهم المخالفة للعقل والدين، ثم ما المشكلة لو اعتبرنا ذلك من شأن العرب وحدهم ! نحن قبطيون ولسنا عرب ورسالة النبي للعرب تختلف عن رسالته إلينا لأننا لسنا عرب، ورسالة القرآن إلى العرب تختلف في مضمونها ولهجتها عن رسالته إلينا لأننا لسنا عرب وعقليتنا ليست أدبية وطبيعتنا ليست حربية وسلوكياتنا ليست برية شرسة كما العرب وأخلاقنا ليست فاسدة كما العرب وقلوبنا ليست منافقة كما العرب..

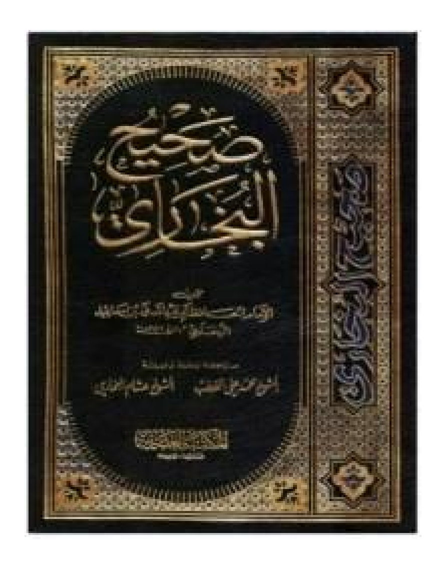
فالنبي جاء لإصلاح نفوسهم وسلوكهم، فكيف نبرر خطأ منسوب للنبي بأنه كان من أعراف العرب؟ والحقيقة أن هذه الرواية مدسوسة على النبي لكن الكثيرين لا يرغبون في الاعتراف بالعقل والمنطق وما أيدته كثير من المراجع التاريخية ويتصدرون للدفاع عن شخص البخاري ويذكرون أنه كان يصلي ركعتين قبل كتابة كل حديث!! ثم كيف نقبل الإساءة للنبي بهدوء وبصدر رحب ثم نهب فزعين للدفاع عن شخص البخاري؟ وما هو وجه الإساءة للبخاري إذا اعتبرنا هذه رواية غير صحيحة؟

ومع ذلك استمرت الأجيال في تقديس كتب الفقهاء على مدار ألف عام دون مناقشة أو مراجعة، لأنهم ليس لديهم ما يقولونه سوى ما حفظوه ولا يملكون الجرأة العقلية على مناقشة هذه الآراء، فالعلوم الشرعية للأسف الشديد تقوم على الاعتبار الشخصي لا الاعتبار الموضوعي ولذلك نجد (صحيح البخاري – صحيح مسلم– المغني لابن قدامة موطأ الإمام مالك، تفسير القرآن العظيم المشهور بـ " تفسير ابن كثير"، وغيرها من كتب الفقه، جاءت عناوينها شخصية لا موضوعية، أي بمجرد قراءة عنوان الكتاب، يصير بإمكانك التعرف على شخص مؤلفه دون معرفة موضوع الكتاب ذاته.

بل إن الكارثة الكبرى أن البخاري حينما ألف كتابه وضع له اسما موضوعيا حقيقيا، حيث سماه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله عليه السلام وسننه وأيامه" وهذا بالطبع عنوان موضوعي يتضمن ما ورد بداخل الكتاب ولا يتداخل فيه اسم المؤلف بأي صورة. فكلمة الجامع؛ تعني مجموع الروايات والأحاديث والأقوال المأثورة، وكلمة المسند: تعني أن الروايات والأقوال المأثورة الواردة بهذا الكتاب مرفق بها إسنادها أي مصدرها، وكلمة الصحيح: تعني أن ما ورد بهذا الكتاب صحيح وفق المعايير التي اشترطها المؤلف، وكلمة المختصر؛ تعني أن المؤلف اتبع نهج الاختصار في إخراج وصياغة

الروايات والأقوال التي دونها في كتابه، وعبارة (أمور الرسول وسننه وأيامه) تعني مجموع ما ورد من أخبار عن حياة الرسول وتصرفاته وسلوكياته ووصاياه ونصائحه والأحداث التي وقعت في عصره.. هكذا وضع المؤلف عنوانا موضوعيا حقيقيا وصادقا لكتابه، ثم بدأ عملية البحث والتأليف لإخراج الكتاب في أفضل صورة رآها حسب مجهوده.

لكن من المغالطات الكارثية التي وقع فيها الفقهاء علي مدار ألف عام وأكثر، هي تسمية هذا الكتاب العظيم باسم شخص وإلغاء وتجاهل اسمه الموضوعي، إذ أن صاحب الكتاب هو الشيخ محمد ابن إسماعيل البخاري واختار لكتابه عنوانا موضوعيا هو: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه" وهذا العنوان هو العنوان الحقيقي لكتاب البخاري، وهو عنوان موضوعي، ولكن الفقهاء نظرا لأنهم يحتفلون بالأشخاص بدلا عن الموضوع، ويعتبرون الشخص مصدرا لمصداقية العلم، أي يقدسون أشخاص العلم لا العلم ذاته، فقاموا بتغيير اسم الكتاب ليصبح ((صحيح البخاري)) وكأنه يتناول سيرة ذاتية أو قصة حياة البخاري أو أشعاره ولا يتناول شيء عن الرسول، برغم أن البخاري نفسه لم يختر هذا الاسم ورفض أن يكون اسمه الشخصي هو عنوان كتابه الذي يحتوي سنن وأخبار النبي. ولذلك إذا قلنا مثلا أن كتاب البخاري به رواية تحمل إساءة للنبي، لن يفكر أحد في الإساءة للنبي، ولكن سيغضب الجميع بسبب انتقاد البخاري لأن الفقهاء يركزون علي شخص وليس علي محتوي موضوعي، ولم يعد هناك فرق بين شخص البخاري وكتاب البخاري، فانتقاد الكتاب هو تجريح في شخص البخاري غير مقبول، ويأتي الرد دفاعا عن شخص البخاري وليس بدليل في الموضوع، ولن يسرع أحد بالدفاع عن النبي ولكن بالدفاع عن البخاري ويثبت أنه كان يصلي ركعتين قبل كتابة كل حديث !! فأصبح البخاري أولى وأهم من الرسول نفسه، ولذلك ينزعجون من أي نقدٍ للبخاري ولا يزعجون من إساءة البخاري نفسه للنبي عليه الصلاة والسلام.



فلو تصورنا أن هذا الكتاب معروض في معرض الكتب ورآه شخص غير مسلم سيدرك فورا بعد قراءة عنوان الكتاب أن هذا الكتاب يتحدث عن شخص اسمه البخاري، ويقدس شخص البخاري لا العلم الذي يحتويه الكتاب لأن الكتاب يُعرف من عنوانه، وتغيير وتحريف اسم الكتاب تساهلا وقبولا من الفقهاء علي مدار ألف عام يثبت غياب الوعي الكلي لديهم بمعنى هذا التغيير ودلالاته. بل إنه حتى الكتب التي جاءت لشرح هذا الكتاب حملت ذات الصبغة الشخصية، ومنها كتاب: [فتح الباري بشرح صحيح البخاري] !! ، حتى كتاب الموطأ للإمام مالك، واسمه الأصلي " الموطأ "، وبما أن الحضارة العربية هي حضارة أدبية لغوية في الأساس، فمن الطبيعي أن نبحث في معنى عنوان الكتاب، وهل جاء موضوعيا يعبر عن مضمون ومحتوى الكتاب أم لا، وبالبحث في منشأ كلمة الموطأ، سنجد أنها قامت على المعيار الشخصي باستحكام، وأعدمت المعيار الموضوعي ولم تعترف به، إذ أن تسمية الموطأ جاءت من مقولة الإمام مالك أنه عندما صنف كتابه عرضه على سبعين من أهل المدينة، وبالطبع كلمة سبعين هنا ليست للحصر وإنما للمبالغة في العدد، لكن المهم أننا نفهم من كلامه أنه عرضه على جمهور الفقهاء والعلماء في المدينة وجميعهم واطأه عليه فسماه الموطأ ! أي أن أول كتاب فقه في الحضارة العربية قام على المعيار الشخصي لرأي العلماء وليس بالاعتماد على أدلة موضوعية أو معيار موضوعي، وإنما ما وافق هواهم في هذا الزمن. وكأن موافقة هؤلاء هي دليل العلم ذاته ! وفي الحقيقة فإن ذلك نابع من طبيعة الفكر الأدبي الذي قامت عليه الحضارة العربية لأن المعيار الأدبي هو مدى قبول الناس وتذوقهم لهذا النص أو غيره، دون أي ضوابط أو معايير للفكر الموضوعي... وكذلك ذات الأمر مع كتاب: تفسير القرطبي المسمى بـ "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان "

إذ أن أولى قواعد البحث العلمي تقول بأن عنوان الكتاب يجب أن يعبر عن مضمونه بشكل مختصر وبخط كبير واضح يشغل نصف الغلاف من أعلى، ويذكر اسم المؤلف بخط صغير أسفل الغلاف، أما رجال الدين، ولأنهم يقدسون الأشخاص أكثر من العلم فهم يضعون اسم المؤلف مكان عنوان الكتاب، كما ترون في غلاف كتاب البخاري بالصورة المرافقة، فيضعون اسم المؤلف بالخط العريض مكان عنوان الكتاب ثم يدمجون عنوان الكتاب في اسم المؤلف ثم يختفي عنوان الكتاب بمرور الوقت ويظهر فقط بوضوح اسم المؤلف وكأننا نعبد المؤلف ذاته ونتبعه أينما سار حتى ولو دخل جحر ضب تبعناه، أو يهمنا المؤلف وليس العلم، ومن هنا تحولت العلوم الدينية إلى شخصنة، أي إننا صرنا نعبد الله وفقا لرؤية أشخاص معينين، لا وفقا للحق وما يرتضيه الله، نعبد الله كما يقول البخاري لا كما يقول الله.

والدليل علي ذلك قديما وحديثا لا يمكن أن تجد كتاب فيزياء عنوانه مثلا " فيزياء ابن الهيثم" أو جراحة أبو بكر الرازي أو عمليات قلب مجدي يعقوب، برغم عظمة هؤلاء العلماء ومساهماتهم في مجالاتهم العلمية، إلا أنهم نجحوا في العلم لأنهم أخلصوا للعلم ولم يضعوا أسماءهم الشخصية عناوين لكتبهم، بل حافظوا على موضوعية العلم، حافظوا علي موضوعية العلم ووضعوا عناوين حقيقية لكتبهم مثل كتاب (رسالة في البصريات)، وكتاب (القانون في الطب)، وليس كما فعل رجال الدين ولونوا العلم بأهوائهم وميولهم وجعلوا أسماءهم هي عناوين الكتب، فالكثير من الكتب الدينية تقرأ عناوينها فلا يمكنك أن تخمن موضوع الكتاب، يمكنك فقط أن تعرف المؤلف، بل إن الكارثة الكبرى تظهر كذلك في كتب الفقه، والمعروف أن كتب الفقه هي كتب قانونية في موضوعها أي تتناول موضوعات قانونية ومسائل واقعية، ومع ذلك تجد كتاب ((الروض المختار) ، وكتاب: إرشاد الفحول، وكتاب: إرواء الغليل، وكتاب: المغني لابن قدامة، وغير ذلك من الكتب المشخصنة، والتي تتحدث عناوينها عن مؤلفيها لا عن موضوعاتها، وكأنها سير ذاتية لأصحابها وليست علوم موضوعية. ونحن لا نقارن كتب العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء بعلوم الدين الشرعية، فلكل علم معاييره، والعلوم الشرعية هي من العلوم الإنسانية، مثلها مثل علم الاجتماع، ولا يمكن أن نجد حتى في علوم الاجتماع كتاب حمل اسم المؤلف بدلا عن موضوع الكتاب، فعبد الرحمن خلدون وضع لكتابه عنوان موضوعي هو : (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). وإن بدا عنوان الكتاب طويلا نسبيا إلا أنه موضوعي يحمل

مضمون ما ورد بداخل الكتاب، وهذا على العكس تماما من كتب الفقه الشرعي التي غادرت المعنى والموضوع وطافت حول الشيخ والإمام، وحملت شخص المؤلف واسمه بدلا عن الموضوع، وصار التلاميذ يقبلون على دراسة مذهب شيخ معين ليس لاقتناعهم بفكره وإنما بسبب حبهم لأسلوبه أو طريقته أو مأكله وملبسه ومسجده، بغض النظر عن معيار العلم والصواب والخطأ. وغير ذلك الكثير من كتب الفقه التي استمر تدريسها على مدار ألف عام، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر منها:

١. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير	٩٥. مصنف عبد الرزاق
٢. المدونة للإمام مالك رواية سحنون	٩٦. الزهد لأسد بن موسى
٣. مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب	٩٧. جزء محمد بن عبد الله الأنصاري
٤. البهجة لشرح التحفة لعلي ابن عبد السلام	٩٨. نسخة أبي مسهر
٥. حاشية الرهوني على شرح الزرقاني على متن خليل	٩٩. مسند الحميدي
٦. شرح الخرشي على مختصر خليل لأبي عبد الله الخرشي	١٠٠. التفسير من سنن سعيد بن منصور
٧. الشرح الكبير لمختصر خليل لأبي البركات	١٠١. غريب الحديث للهروي
٨. الذخيرة للقرافي	١٠٢. الأموال للقاسم بن سلام
٩. الرسالة لابن أبي زيد	١٠٣. الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام
١٠. النوادر والزيادات لابن أبي زيد	١٠٤. الطهور للقاسم بن سلام
١١. إعانة الطالبين لأبي بكر السيد البكري	١٠٥. الإيمان للقاسم بن سلام
١٢. أسنى المطالب شرح روض الطالب لزكريا الأنصاري	١٠٦. الكرم والجود وسخاء النفوس للبرجلاني
١٣. نهاية المحتاج لشرح المنهاج لشهاب الدين الرملي	١٠٧. الزهد لنعيم بن حماد
١٤. الوجيز في فقه الإمام الشافعي للغزالي	١٠٨. حديث يحيى بن معين رواية أبي بكر المروزي
١٥. تحفة المحتاج لأدلة المنهاج لابن الملقن	١٠٩. مسند ابن الجعد
١٦. مغني المحتاج لمعرفة ألفاظ المنهاج لمحمد الشربيني	١١٠. الطبقات الكبرى لابن سعد
١٧. فتح العزيز شرح الوجيز للرافعي	١١١. جزء أبي جهم البغدادي
١٨. كشاف القناع من متن الإقناع لمنصور البهوتي	١١٢. العلم لزهير بن حرب
١٩. الشرح الكبير على المقنع لأبي الفرج ابن قدامة	١١٣. الأدب لابن أبي شيبة
٢٠. الإنصاف لمعرفة الراجح والخلاف للمرداوي	١١٤. مصنف ابن أبي شيبة
٢١. مطالب أولى النهي شرح غاية المنتهى لمصطفى السيوطي	١١٥. العلل لابن المديني
٢٢. المقنع لابن قدامة	١١٦. القضاء لسريج بن يونس البغدادي
٢٣. المبدع في شرح المقنع	١١٧. مسند ابن أبي شيبة
٢٤. الروض المربع للبهوتي	١١٨. مسند إسحاق بن راهويه
٢٥. السيل الجرار للشوكاني	١١٩. الإيمان لابن أبي شيبة
٢٦. المدخل الفقهي لمصطفى الزرقاء	١٢٠. تاريخ خليفة بن خياط
٢٧. الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح"	١٢١. قراءة النبي للدوري
٢٨. أحكام القرآن لأبن عربي "	١٢٢. طبقات خليفة بن خياط
٢٩. المدخل لابن الحجاج	١٢٣. الجامع في العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل
٣٠. حلية الفقهاء للقفال	١٢٤. مسند أحمد بن حنبل

٣١. المعيار المعرب للونشريسي
٣٢. فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية
٣٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري
٣٤. المحلى لابن حزم
٣٥. تفسير القرطبي
٣٦. تفسير الجلالين
٣٧. تفسير ابن عاشور
٣٨. تفسير البغوي
٣٩. تفسير السعدي
٤٠. الوسيط لطنطاوي
٤١. الروضة الندية لصديق حسن خان
٤٢. سيرة ابن هشام
٤٣. سيرة ابن إسحاق
٤٤. المدونة الكبرى لمالك بن أنس
٤٥. موطأ مالك رواية يحيى الليثي
٤٦. فوائد الليث بن سعد
٤٧. مشيخة ابن طهمان
٤٨. تفسير سفيان الثوري
٤٩. المناسك لسعيد بن أبي عروبة
٥٠. الجامع لمعمر بن راشد
٥١. جزء ابن جريج
٥٢. مسند أبي حنيفة رواية أبي نعيم
٥٣. صحيفة همام بن منبه
٥٤. مسند زيد
٥٥. مسند الربيع بن حبيب
٥٦. تفسير مجاهد
٥٧. مسانيد فراس المكتب رواية أبي نعيم
٥٨. حديث أيوب السختياني
٥٩. موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني
٦٠. القدر وما ورد فيه من الآثار لابن وهب
٦١. الجامع في الحديث لابن وهب
٦٢. السير لأبي إسحاق الفزاري
٦٣. الدعاء لمحمد بن فضيل الضبي
٦٤. الزهد للمعافى بن عمران الموصلي
٦٥. الخراج لأبي يوسف
٦٦. الآثار لمحمد بن الحسن الشيباني
٦٧. الرد على سير الأوزاعي ليعقوب بن إبراهيم
٦٨. الآثار لأبي يوسف

١٢٥. الأربعون للطوسي
١٢٦. الإيمان للعدني
١٢٧. الأشربة لأحمد بن حنبل
١٢٨. فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل
١٢٩. الزهد لهناد بن السري
١٣٠. الزهد لأحمد بن حنبل
١٣١. جزء من حديث لوين المصيصي
١٣٢. حديث هشام بن عمار - البر والصلة للمروزي
١٣٣. مسند سعد بن أبي وقاص للدورقي
١٣٤. مسند عبد بن حميد
١٣٥. مسند بلال بن رباح
١٣٦. الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار
١٣٧. الأموال لابن زنجويه - الأدب المفرد للبخاري
١٣٨. جزء رفع اليدين في الصلاة للبخاري
١٣٩. سنن الدارمي
١٤٠. الرد على الجهمية للدارمي
١٤١. حديث موسى بن عامر المري
١٤٢. التاريخ الكبير للبخاري
١٤٣. جزء المؤمل بن إيهاب
١٤٤. جزء ابن عرفة
١٤٥. القراءة خلف الإمام للبخاري
١٤٦. خلق أفعال العباد للبخاري
١٤٧. الزهد لأبي داود
١٤٨. تركة النبي لحماد بن إسحاق
١٤٩. الأمالي والقراءة
١٥٠. جزء أحمد بن عصام الثقفي
١٥١. مسند عبد الله بن عمر للطرسوسي
١٥٢. سباعيات أبي المعالي الفراوي
١٥٣. الفتن لحنبل بن إسحاق
١٥٤. الورع لأحمد رواية المروزي
١٥٥. مسند عمر بن الخطاب ليعقوب بن شيبة
١٥٦. أخبار مكة للفاكهي
١٥٧. الزهد لأبي حاتم الرازي
١٥٨. سنن ابن ماجه
١٥٩. تاريخ المدينة لابن شبة
١٦٠. جزء محمد بن عاصم الثقفي
١٦١. جزء حنبل بن إسحاق
١٦٢. الشمائل المحمدية للترمذي

٦٩. حديث إسماعيل بن جعفر	١٦٣. المراسيل مع الأسانيد لأبي داود
٧٠. مسند عبد الله بن المبارك	١٦٤. سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني
٧١. موطأ مالك برواية أبي مصعب الزهري	١٦٥. نقض الإمام أبي سعيد على المريسي العنيد
٧٢. الجهاد لابن المبارك	١٦٦. جامع الترمذي
٧٣. الزهد والرقائق لابن المبارك	١٦٧. العلل الكبير للترمذي
٧٤. الأمالي في آثار الصحابة لعبد الرزاق الصنعاني	١٦٨. مسند عبد الرحمن بن عوف لأحمد بن محمد بن عيسى
٧٥. جزء بكر بن بكار	١٦٩. البلدان وفتوحها وأحكامها للبلاذري
٧٦. معاني القرآن للفراء	١٧٠. أنساب الأشراف للبلاذري
٧٧. مسند الشافعي	١٧١. المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان
٧٨. مسند أبي داود الطيالسي	١٧٢. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة
٧٩. جزء الحسن بن موسى الأشيب	١٧٣. الأشربة لابن قتيبة
٨٠. الأم للشافعي	١٧٤. الحوض والكوثر لبقي بن مخلد
٨١. الزهد لوكيع بن الجراح	١٧٥. مسائل أحمد لأبي داود السجستاني
٨٢. موطأ عبد الله بن وهب	١٧٦. سنن أبي داود
٨٣. الخراج ليحيى بن آدم	١٧٧. الهم والحزن لابن أبي الدنيا
٨٤. جزء فيه حديث سفيان بن عيينة	١٧٨. الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان
٨٥. نسخة وكيع عن الأعمش	١٧٩. الأولياء لابن أبي الدنيا
٨٦. اختلاف الحديث للشافعي	١٨٠. الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا
٨٧. السنن المأثورة رواية المزني	١٨١. الإخوان لابن أبي الدنيا
٨٨. تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني	١٨٢. الرضا عن الله بقضائه
٨٩. فضائل القرآن للقاسم بن سلام	١٨٣. الزهد لابن أبي الدنيا
٩٠. سنن سعيد بن منصور - أخبار مكة للأزرقي	١٨٤. الجوع لابن أبي الدنيا
٩١. فضائل الصلاة للفضل بن دكين	١٨٥. الشكر لله لابن أبي الدنيا
٩٢. الأهوال لابن أبي الدنيا	١٨٦. الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا
٩٣. العيال لابن أبي الدنيا	١٨٧. المرض والكفارات لابن أبي الدنيا
٩٤. المنامات لابن أبي الدنيا	١٨٨. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا

هذه قائمة بسيطة بأسماء مجموعة من المراجع الفقهية التي تجاهلت المعيار الموضوعي للعلم وحملت أسماء مؤلفيها مكان عناوينها، بما يدل دلالة صريحة على اعتماد الفقهاء على المعيار الشخصي، والمعيار الشخصي هذا هو معيار أدبي وليس علمي (أدبي نابع من طبيعة العقلية العربية التي بدأ من عندها الفقهاء ينهلون) لأنه يعتمد على التقييم الشخصي وليس على أدلة الموضوع، وهذا التقييم الشخصي يعتمد على التذوق الأدبي وليس الدليل العلمي. ولم يكن آخرها كتاب: إسكات الكلب العاوي يوسف بن عبد الله القرضاوي، وهو الكتاب الوحيد بين القائمة الذي لم يحمل اسم مؤلفه عنوانا

له، لأنه حمل اسم الفقيه الآخر الذي جاء الكتاب سبا وقدحا في شخصه وخوضا في عرضه فضلا عن باقي الاتهامات، بدلا من تحليل الموضوعات بالأدلة العلمية.

وقد فكرت أكثر من مرة في حذف هذه القائمة لاعتبارات أخرى موضوعية، فنحن حتى في عصرنا نذكر الكتاب مُعرفا باسم صاحبه؛ مثل: (الدليل الموجز لمكتتب التأمين في التأمينات العامة- تأليف أحمد حسين أبو العلا) – (الموجز في أحكام قانون التأمينات الاجتماعية- تأليف د.السيد عمران السيد) – (أخطار النار والانفجار في المؤسسات الصناعية مع التنويه إلى النواحي التأمينية - تأليف دكتور حسن صبري)- (إدارة التعويضات - تأليف فرانك أدورانتي ؛ ترجمة دكتور خالد العامري) – (التأمين من الحريق ؛ شروطه وتسوية مطالباته- تأليف أحمد فؤاد الأنصاري) – (النظرية العامة للالتزام (مصادر الالتزام)- تأليف د. رمضان أبو السعود) – (الوجيز في الحقوق العينية الأصلية ؛ أحكامها ومصادرها – تأليف د. رمضان أبو السعود) – (الحقوق العينية الأصلية- تأليف د. نبيل إبراهيم سعد) – (الوسيط في شرح القانون المدني- تأليف د. عبد الرزاق السنهوري) ...إلخ. وبعدما أعدت فحص الكتب ونظام التأليف الفقهي القانوني خاصة الكتب التي اعتدنا تعريفها باسم مؤلفها، فوجد أنه في كافة الأحوال لن يتضرر موضوع الكتاب إذا تم حذف ايم مؤلفه، فالمادة العلمية ستبقى قائمة والعنوان سيبقى حاملا لمضمون الكتاب موضوعيا وعلميا، بينما بإعادة النظر إلى كتب الفقه الديني السابق سردها بالقائمة عاليه، سنجد استحالة استقامة المعنى بعد حذف اسم المؤلف، وهذا في حد ذاته أمر عجيب يجعل من الفقه الديني والتشريع السماوي مجرد وجهات نظر خاصة بأصحابها وكأنها رحلة أدبية في عالم الروايات التي تستمد مذاقها الفني من اسم كاتبها !

فنجد أنموذجا صارخا في كتاب "قواعد ابن رجب" فقد جاء صريحا للدرجة القصوى ودون مواربة، حيث أفصح المؤلف عن غايته من الكتاب وهو وضع قواعد فكرية تخص المؤلف وكأنه يكتب أشعاره وخواطره، لكنه مع ذلك لم يذكر لنا ما إذا كانت هذه القواعد للعب الكرة أم للتجارة أم في علم الفيزياء أم في دين الله !.. فقد صار الفقهاء آباء روحيين للتلاميذ والأجيال ففقد العقل بوصلته ومعياره الموضوعي لأنه خشي التعليق على آراء أستاذه بما يخالفها، ومن هنا تدريجيا صار أشخاص العلماء يحظون باحترام يفوق العلم ذاته، فالعلم فقد موضوعيته واحترامه ولم يفقد الفقهاء احترامهم وتقديسهم.. وهذه مشكلة الأجيال وليس السلف.

بل إننا عندما نبحث في مصادر الحديث نجدها جميعا وبلا استثناء تحمل الطابع الشخصي في أسمائها وعناوينها؛ فها هي كتب الأحاديث عند أهل السنة: ((صحيح البخاري- صحيح مسلم- سنن ابن ماجة- سنن أبي داود - سنن الترمذي سنن النسائي - سنن الدارمي- موطأ مالك - سنن البيهقي - سنن الدارقطني- صحيح ابن حبان - صحيح ابن خزيمة مستدرك الحاكم- مسند أحمد - مسند الشافعي- مسند البزار- مصنف ابن أبي شيبة- مصنف عبد الرزاق- معاجم الطبراني))

هكذا يتضح جليا في كافة عناوين الكتب المذكورة أن السمة البارزة والمشتركة بين جميع الكتب هي "اسم المؤلف" هو عنوان الكتاب، بل يستحيل على أي عاقل أن يخمن مضمون الكتاب ومحتواه الداخلي، فالواضح بجلاء هو فقط اسم المؤلف، وجميعها عناوين لا تعبر عن موضوع الكتاب بقدر ما تعبر عن الرغبة الجامحة في إبراز شخصية الكاتب نفسه وممنونيته وفضله على غيره في الإرشاد والتوجيه ، هذه الرغبة مصدرها السلطة الروحية التي تمتلئ بها نفوس رجال الدين والخضوعية المازوخية التي تمتلئ بها رؤوس تلاميذهم، وهذه السلطة مصدرها اجتماعي ونفسي ولا علاقة لها بالمعايير الفكرية والأخلاقية ولا العقائد الدينية ، ومثال آخر كتاب المغني ، ومثال كتاب الروض المختار، ومثال كتاب ابن عابدين في التأمين ومثال كتاب فتح الباري (سلطة روحية) وتبرز بوضوح أن الكاتب لم يلتزم بأي معايير فكرية أو علمية، وإنما انطلق ليحلق ويسبح بخياله وإيحاءاته وتجلياته الفلسفية، دون الانتباه للضوابط الموضوعية لهذه الفلسفة. حتى عناوين الكتب والملفات التي تناولت أحكام فقهية بحتة، جميعها تأخذ طابعا أدبيا وليس موضوعيا مع أنها كتب أحكام فقهية وقانونية وليست قصص وروايات، مثال: الروض المختار - السيل الجرار – المحلى - المغني -كشاف القناع - إرشاد الفحول- المصباح المنير، وجميعها تحمل من المؤلف صفة العلو والسمو والعظمة والفضل على غيره.

وهي ذات الآلية التي اتبعها البخاري نفسه في التوثيق بالاعتماد علي المعيار الشخصي في الرواية دون أي موضوعية وعقلانية، حتى غابت النظرة النقدية للفكر والتي تزن عقولنا طول الوقت، لدرجة أن البخاري لم يستح أن يذكر في مقدمة كتابه أنه أولى اهتماما بالسند دون المتن، أي تتبع شخص الراوي دون فرز الرواية والتحقق مما إذا كانت معقولة أو خرافية، فلا يمكن أن نفكر دون أن نراجع أفكارنا وننتقدها، ولم نر حتى عالما ينتقد فكرا بموضوعية بل ينشغل بالسب والقذف في شخص من يختلف مع فكره دون معالجة الفكر ذاته.

في حين أننا إذا عدنا إلى العالم الطبيب أبو بكر الرازي في ذات العصر، سنجد كل مؤلفاته ذات عناوين موضوعية واضحة، مثال: كتاب: الشكوك على جالينوس – كتاب: في الفصد والحجامة – كتاب: الطب الروحاني – كتاب: إن للعبد خالقا – كتاب: المدخل إلى المنطق – كتاب: هيئة العالم - مقالة في: اللذة – كتاب: طبقات الإبصار – كتاب: الكيمياء وأنها إلى الصحة أقرب – كتاب: أخلاق الطبيب. كتاب: تاريخ الطب ، كتاب "الأدوية المفردة"

وكذلك الحسن الهيثم في العصر الذهبي للحضارة العربية وضع مؤلفاته جميعها بأسماء وعناوين موضوعية بحتة ولا تتصل باسمه الشخصي، ونلاحظ أيضا أن عنوان كل كتاب يدل مباشرة على مضمونه أو ما يمكن أن يتحدث فيه هذا الكتاب؛ ذلك لأن ابن الهيثم كان منهجه موضوعيا ومعيار العلم لديه موضوعي وليس شخصي، فهو لا يبحث في سير من قبله من العلماء ومن نقل عنهم ومن يثق فيهم أو لا يثق، ولكن يُخضع النتائج التي توصلوا إليها لمعايير موضوعية بحتة ولا يحجبه مبدأ احترام العلماء الذي قدسه فقهاؤنا الأسلاف من توجيه النقد مباشرة لعلماء الإغريق الذين نقل عنهم مبادئ الفيزياء، ومن أمثلة أعماله: كتاب المناظير - مقالة في التحليل والتركيب - ميزان الحكمة - تصويبات على المجسطي - مقالة في المكان - التحديد الدقيق للقطب - رسالة في الشفق - كيفية حساب اتجاه القبلة - المزولة الأفقية - شكوك على بطليموس - مقالة في قرسطون - إكمال المخاريط - رؤية الكواكب - مقالة فى تربىع الدائرة - المرايا المحرقة بالدوائر - تكوين العالم - مقالة فى صورة الكسوف - مقالة في ضوء النجوم - مقالة في ضوء القمر - مقالة في درب التبانة - كيفيات الإظلال - مقالة في قوس قزح - الشكوك في الحركة المتعرجة - التنبيه على ما في الرصد من الغلط في ارتفاعات الكواكب - اتجاه القبلة - نماذج حركات الكواكب السبعة - نموذج الكون - حركة القمر - مقالة مستقصاة فى الأشكال الهلالىة - الحركة المتعرجة - رسالة في الضوء - رسالة في المكان - تأثير اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية - اختلاف منظر القمر - أصول المساحة - أعمدة المثلثات - المرايا المحرقة بالقطوع - شرح أصول إقليدس - رسالة فى مساحة المجسم المكافى - خواص المثلث من جهة العمود - القول المعروف بالغرىب فى حساب المعاملات - قول فى مساحة الكرة - الجامع في أصول الحساب - كتاب في تحليل المسائل الهندسية.

وبرغم عظمة العلماء بما قدموه للبشرية إلا أن كتبهم لم تعد تدرس إلى اليوم بذات طبعاتها في عصرها، بل خضعت لمبدأ تراكمية المعرفة، على العكس تماما من فقهاء الدين الذين استمروا أكثر من ألف عامٍ يدرسون ذات الكتب بذات الطبعة دون تغيير في الكلمات أو الأحرف، بحجة الأمانة العلمية، فالأمانة العلمية لا تقتضي أبدا نقل المتن بغثه وسمينه، بل انتقاء ما فيه الفائدة فقط وإعادة تدوينه وتدريسه بالأسلوب والطريقة التي يمكن هضمها في كل عصر.

وكذا في عصرنا الراهن لا نجد أبدا في كافة فروع العلم والمعرفة أي كتابٍ أو مؤلف من أي نوع يحمل اسما مموها أو اسم المؤلف أو يحمل الطابع الشخصي للمؤلف سوي بعض فروع المعرفة التي تقتضي ذلك بالمعيار الموضوعي ذاته، مثال؛ كتب السير الذاتية، حيث سرت العادة على الشخصيات البارزة والمشاهير ورجال الأعمال الناجحين والزعماء أن يسجلوا مذكراتهم الشخصية والتي يتناولون فيها رحلة حياتهم وكفاحهم وكيفية تغلبهم على المصاعب وكيف استطاعوا تحقيق نجاحاتٍ يحتفي بها العالم، هذه السير الذاتية تتناول الحياة الشخصية لمؤلفها ورؤيته واعتقاداته وتحليلاته الخاصة للمواقف والأحداث التي مر بها كي تكون دليلا للشباب الباحثين عن النجاح، وهي بالطبع رؤية شخصية ذاتية محورها هو المؤلف بشخصه، ولذلك يحتم المعيار الموضوعي أن يكون عنوانها هو اسم المؤلف ذاته.

وأما النوع الثاني من المؤلفات والذي يأخذ اسما مموها فهي كتب وروايات أدبية أو دواوين شعر أو قصص خيالية طويلة أو قصيرة، وباعتبارها نوع من الخيال يسبح فيه الكاتب سواء كان بهدف التسلية أو الإثارة والدراما، فهي في مجملها أعمالا أدبية وفلسفية وليست مصادر علمية، وبالتالي، وبرغم كون العلوم الشرعية إلى جانب الأدب والفلسفة جميعها تنضوي تحت قسم العلوم الإنسانية، لكن يجب التفرقة بحذر شديد، لأن العلوم الشرعية تتبع مناهج محددة بقواعد ومبادئ ثابتة وتخضع كلية لنظام البحث العلمي، وليس كالكتابة الأدبية، فالكتابة الأدبية لا ضابط لها سوى مذوقة القارئ وهواه، أما العلوم الشرعية فلها قواعدها ومعاييرها الموضوعية، ولأن الله جل وعلا ذكر كلمة العقل في القرآن بصيغة الفعل حوالي ٤٢ مرة في حين أن الكتابات الأدبية لا تخضع لمعايير العقل، ولكن لمعايير التذوق الأدبي والفني، وهذه السمة الأدبية والفنية في مجال العلوم تنحسر وتنحصر في الأسلوب فقط لا المعنى ولا المضمون، فالمعنى والمضمون يخضع للقواعد العلمية وأما الأسلوب اللغوي وحده الذي يخضع للتذوق الأدبي والفني في الصياغة.

هذا بالطبع يختلف تماما وكليا عن المنهج الشخصي الذي اتبعه علماء الشريعة والفقه، فقد جرى عرف التأليف لديهم على إقحام أسمائهم الشخصية وكنياتهم في عناوين الكتب مع تمويه عناوين الكتب لتبتعد تماما وكليا عن الإشارة إلى مضمون الكتاب، فيبقى البارز والمفهوم لدى القارئ هو اسم المؤلف وحده، وهذا ما يؤكد اختفاء المعيار العلمي الموضوعي لدى الفقهاء لحساب المعيار الشخصي، لدرجة أننا لا نذكر كثيرا رواة القرآن ومن حفظوه في صدورهم حتى عهد تدوينه، أو أن رواة الحديث والمفسرين والفقهاء أكثر شهرة وتعظيما وثناءً ممن حملوا القرآن في صدورهم حتى تم تدوينه؛ ذلك لأن القرآن يحمل قواعد إثباته الموضوعية في ذاته وليس بحاجة إلى استمداد مصداقيته من مصداقية من حفظوه أو البحث في سيرهم الشخصية ومدى أمانتهم، ولم يخضع لعمليات إخراج وتعديل منهم بل هو معجزة ثابتة بذاتها وموضوعها، على العكس تماما من رواة الحديث والتراث الذي خضع لعمليات إخراج وتعديل لفظي ولجأ المؤرخون عند التدوين إلى اعتماد الثقة والمصداقية من سيرة الراوي وليس من موضوع الحديث وتحليله وبحث مدى موافقته لمبادئ القرآن من عدمه، وبالتالي فإن المؤرخين في أغلب الأحيان قد اتبعوا المعيار الشخصي وهو معيار الثقة في شخص الراوي أو المتحدث فقط، حتى أن علوم الجرح والتعديل إنما نشأت خصيصا وانصبت على المعيار الشخصي ذاته، في تتبع سير الرواة والتحقق من شخصياتهم وتصرفاتهم وسلوكياتهم، دون الانتباه إلى أن المعيار الشخصي هو معيار ثانوي مساعد فقط وليس صك الاعتماد النهائي. غير أننا يجب أن نعلم يقينا أن السنة النبوية المشرفة هي مادة تفسيرية للقرآن وليست مكملة له على أي حال، وحاشا لله أن تكون أحكام القرآن ناقصة وأن السنة هي المكملة، بل إن القرآن هو الدستور والقانون العام، وتأتي السنة النبوية في موضع اللوائح التنفيذية لنصوص القرآن، فهي ليست مكملة له ولا تضيف أحكاما جديدة ولكنها تفسر في ضوء مبادئه العامة، وما تعارض منها مع المبادئ العامة للقرآن يجب إقصاءه فورا لأن النبي لم يكن ليخالف المبادئ العامة للقرآن على أي حال، وهذا ما يعني أن المعيار الموضوعي قائم ومحددة ملامحه وحدوده وفقا للمبادئ العامة للقرآن ولا حاجة للنظر في المعيار الشخصي لرواة الحديث إلا استثناءً من الأصل، ولا محل للقول بنسخ السنة للنصوص القرآنية بأي حالٍ لأن ذلك افتئات من البشر على الله ورسوله بما زعموا قوله. ولا محل للمبالغة في تعظيم السير الذاتية للعلماء والفقهاء وقدراتهم الخارقة في الذكاء والحفظ والتلاوة لأن ذلك كفيل بهدم إنجازاتهم عند أول محاولة للتحقق من قدراتهم الخارقة هذه مما يجعلنا سبب في الإساءة إليهم.

والمعيار الشخصي يقوم فقط على عنصر الثقة في شخص الراوي ويفتقد الضمانات الفعلية للتثبت من مصداقية النص وصحته ومضمونه والحكم المترتب عليه لأن الثقة الشخصية هي عنصر نسبي يختلف من شخص لآخر ويختلف لدى الشخص الواحد من وقت لآخر لأنه مسألة نفسية، والطبيعة النفسية للإنسان متغيرة بصورة متموجة ولا يمكن أن تثبت على حال أبدا وإلا توقف العقل، فالعقل البشري هو حالة اهتزازية دائمة، تهتز موجاته على مسار متموج ولا تسكن أبدا. غير أن المعيار الشخصي يختصم تماما مع المعيار الموضوعي، والعبرة في النهاية بالمعيار الموضوعي لأنه ليس المطلوب هو تقليد النبيّ نصا وحرفا ورسما بل العبرة بالتطبيق، والمعيار الموضوعي هو الذي يتحقق فيه ضمانات الصحة والتي تضمن سلامة الغاية والمغزى عند التطبيق العملي لا مجرد حفظ النص وتسجيله، والضمانات العملية هذه تظهر عند التطبيقات العملية فقط مثل الآثار الجانبية المترتبة على تطبيق هذا النص ومن حيث انسجامه مع المبادئ العامة للقرآن. وهذا ما يدفعنا إلى حتمية وضرورة تحجيم النص إما بتحجيم تطبيقاته ووضعه في نطاق الأحكام الخاصة لا العامة وإما باستبعاده.. وأبسط مثال على ما يجب استبعاده من سنن النبي عليه السلام من كتاب البخاري هو باب : " من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية "، فهذا الباب من عنوانه احتوى جرائم حرب غير إنسانية اعتبرها البخاري جزء من الدين لمجرد أنه وثق في شخصية الراوي !

وهذا ما يؤكد غلبة وسيادة المعيار الشخصي على العلوم الشرعية مما أفقد الفقه موضوعيته، فصار قائم في أغلبه على الاعتبار الشخصي وكاد يتلاشى معياره الموضوعي في عباءات الفقهاء. هذا الطريق الذي اتبعه أسلافنا الفقهاء في تدوين اجتهاداتهم وفتاواهم قد جنح كثيرا مما أفقدهم البوصلة في كثير من الأحيان، ولم يعد الوقت يسمح أبدا بالاستمرار على هذا المنهج، بل آن الأوان لتنحية أسمائنا وأشخاصنا جانبا لينحسر احترامنا لذاتنا وتعظيمنا لأسلافنا ويتركز احترامنا للعلم ومعاييره الموضوعية. إن المعيار الموضوعي لا بد أن يشمل كل المحتوى بكافة جوانبه، ويبقى فقط المعيار الشخصي محدودا بحدود أدوات التعبير والأسلوب وما إذا كان سهلا سائغا أو معقدا أو علميا أو أدبيا، فالأسلوب الذي يتبعه المؤلف في كتابه هو حدود المعيار الشخصي وهو ما يحمل فعلا الصبغة الشخصية التي قد تختلف من فقيه لآخر، لكن العلم معاييره موضوعية مشتركة وثابتة.

عبقرية قواعد الحكم على الحديث [٢]

يكشف الشيخ متولي إبراهيم عن وجه المشكلة باعترافه بداية بأن السلف الصالح كانوا عباقرة مبدعين حينما وضعوا قواعد للتحقق من صحة الأخبار المنسوبة إلى النبي، حيث اشترطوا لصحة الخبر المنسوب إليه، عليه السلام، أن يرويه الثقة عن مثله إلى منتهى السند بلا شذوذ، واشترطوا في الثقة العدالة والضبط، واشترطوا في المدلس التصريح بالسماع ((أي أن الشاهد لم ير الراوي الأصلي بنفسه ولم يسمع من فمه مباشرة وإنما سمع عنه الخبر بطريق غير مباشر، فإذا أفصح بنقطة ضعفه يكون ذلك دليل أنه مدلس، وإذا لم يفصح عن نقطة ضعفه فيكون عدم الإفصاح هنا دليل إثبات صحة الحديث وأن الراوي سامع شاهد عيان عدل وثقة)) أي من باب حسن الظن المسبق (حسن الظن بالتربة العربية شديدة الملوحة)، وجعلوا الشذوذ أن يخالف الثقة الثقات، أو من هو أوثق منه، أو أن يخالف الخبر خبرا أوثق منه..

وبرغم عبقرية هذه القواعد، لكن الكارثة في تطبيق السلف لها وقعت في أكثر من خمس وتسعين بالمائة من الروايات والأحاديث؛ فصححت أباطيل نسبوها إلى رسول الله كذبا ووضعوها على لسانه الشريف زورا وبهتانا. ذلك لأن البخاري وغيره يروون عن مجاهيل؛ فكل إسناد من أسانيد هذه الأحاديث يشتمل سلسلة متتابعة من الرواة (العنعنة؛ عن فلان عن فلان عن فلان.. إلخ، وفي الغالب كانت سلسة الرواة تصل إلى تسعة) وتتضمن هذه السلسة بالطبع أشخاص مجهولين لم يسمع عنهم أحد، أو هم مجرد أسماء على ورق، فلا نستطيع أن نحكم عليه بأنه ثقة أو مدلس أو كذاب لأنه غير معروف، لكن الفقهاء الذين جاؤوا بعد مئات السنين جبروا خاطره فابتكروا طريقة لاعتماده شاهدا صادقا وعدلا، برغم أنه قد يكون مجرد اسم فقط ورد على الورق وليس شخص حقيقي، ومع ذلك وثقوه توثيقا عاما كاملا شاملا كليا مطلقا معتمدين في ذلك على تقنية «السبر»

فقد اتبع الفقهاء تقنية مجهرية في التحقق من الحديث وسبر أغواره وتفتيته لغويا وهضمه عقليا والوصول إلى أدق تفاصيله وتفاصيل الراوي وطحن عظامه تحت المجهر، وذلك باستخدام مسبار

(٢) - بتصرف عن مقال بقلم الكاتب: أحمد الشوربجي من حوار مع الشيخ متولي إبراهيم صالح ، نشر بجريدة " أمان " بتاريخ/الأحد ٢٨/يناير/٢٠١٨ على الرابط التالي:

http://www.aman-dostor.org/7267?fbclid=IwAR1FXNE86vwgSIWhdfrJNJezQ0cOYv7n7NPFxB3FUiWjQZWYdiPfzY#vFMwY

مغزلي يدور حلو الشخص نفسه ويلتف حوله دون المساس به.. وأما موضوع الرواية فيكفيه سبر الراوي!.. والتوثيق بالسبر عند المحدثين هو: استقصاء روايات الراوي المجهول هذا، وعرضها على رواية أخرى موثوقة (بشهادة آخرين)، فإن وافقت رواية المجهول الرواية الموثوقة، فإن هذا الراوي المجهول يصبح ثقة ويتم قبول جميع رواياته واعتباره شاهد عدل صادق... وهذه هي تقنية السبر المغزلي، والتي من خلالها يحاول الفقهاء وضع أساس غير مباشر للرواية لأن أساسها الأصلي غير موجود، فهم يعتمدون مصداقية راوي الحديث المجهول بمقارنة إحدى رواياته مع رواية راوٍ آخر، وهذا الراوي الآخر لا نعرفه أيضا، وإنما نعتبره ثقة وصادقا عدلا بشهادة آخرين معاصرين له ! وهؤلاء الآخرين المعاصرين له لا نعرفهم أيضا وإنما وردت شهاداتهم في كتب ! وهذه الكتب لم يكتبوها بيدهم وإنما نسخها خطاط لا نعرفه.. وطبعتها دار نشر لا نعرفها ! وبأمر خليفة لا نعرف نواياه، وفي تاريخ لا نعرفه ! وفي النهاية تصبح دينا لنا وناسخة لكتاب الله ولاغية لأحكامه !

يرى الشيخ متولي إبراهيم أن التوثيق بهذه الطريقة هو توثيق خاص ناقص محصور جزئي مقيد، حولوه هم في تطبيق خاطئ لتوثيق شامل بسبر محصور في بعض مرويات له نقدوها فوجدوها صحيحة، ثم بناءً على نقدهم لهذه الرواية فقط وقبولهم لها دون سائر مروياته شهدوا له بأنه ثقة، رغم أنهم ولدوا بعد وفاته فلم يلقوه ولم يعرفوه، ورغم أنهم لم يسبروا كل مروياته بل غابت عنهم روايات أخرى له قد تكون باطلة، ولو سبروها ونقدوها لأبطلوها ولشهدوا عليه بناء على إبطالهم لها بأنه غير ثقة، ولاستغفروا الله من شهادتهم له بأنه ثقة. فبما أن الراوي المجهول لا نستطيع الحكم عليه وبالتالي لا يقبل حديثه، فلجأ المحدثون إلى توثيقه بطريقة «السبر المغزلي» وهى أخذ "عينة" من أخباره ورواياته والبحث عن راوٍ آخر ثقة روى نفس الخبر، وبذلك يحصل على صك القداسة ويصدر الحكم على الراوي المجهول بأنه ثقة بناءً على فحص هذه العينة، ومن ثم قبولها واعتمادها اعتمادا كليا مطلقا، ليس لأن الراوي ثقة وإنما لأن العينة وافقت راوٍ آخر ثقة في نظرهم !

وهذه التقنية في التوثيق غير علمية وغير صحيحة بأي حال، لأن الشخص الكذاب لا يشترط أن يكون كل حديثه كذبا، إذ يمكن أن يصادف قوله صدقا مثل هذا الخبر "العينة" الذي صادف رواية ثقة آخر، وهو فى الأصل كذاب. وإن كان علماء الحديث يردون حديث من يكذب مرة واحدة، لكن المشكلة أنه تم اعتماد مصداقية الراوي مطلقا بفحص عينة واحدة، ونحن لا نعرف هل

كذب في الروايات التي انفرد بها أم صدق، ولم يشهد عليه أحد ممن عاصره حتى نعرفه، فكيف نقبل روايته في أحاديث تفرد بها ولا نعرف هل هو صادق أم كاذب، فهم اعتمدوا صدقه لأنه ربما صدق في رواية أخرى وافقت راوٍ آخر ثقة ! . ومن الملاحظ بداهة أنهم لم يبحثوا فعليا في مدى مصداقية هذه الروايات أو عدمها أو مطابقتها لكتاب الله، هم بذلوا جهدهم الاستقصائي في البحث عن نواة يسندون بها زير الراوي، لأن الزير ليست له قواعد أصلية متينة. (فالأمر يبدوا كما لو كانوا يعيشون بغير مصدر للتشريع ولا قرآن ولا هدي ويلتمسون ويبحثون عما يروي رمقهم في الحياة، وكأن القرآن ليس بأيدهم كي يعرضوا هذه الروايات عليه وينتهي الأمر !) ..

هذا الوضع يؤدي إلى كارثة عقلية جمعية إذا نظرنا في الأصل إلى طبيعة المجتمع العربي، وخصوصية القومية العربية التي جاء الإسلام لعلاجها من (الشرك والنفاق والجهل والعصبية القبلية الحربية) فكما قلنا أن التربة العربية لم تكن خصبة نقية صالحة جاهزة لاستقبال الرسالة كما كان النبي، بل كانت تربة مالحة وزائدة الملوحة إلى الدرجة التي جعل الله يختصها بهذه الرسالة بلغتها ولسانها وعلى يد نبي من ذات القوم، لكن ما حدث من انقلاب عقب انتهاء رسالة النبي وهجوم الصحابة على المجتمعات المجاورة بالسيوف والقتل والذبح والسبي (دون اعتراض من الجميع) ما أدى إلى انكسار إرادة الشعوب تحت أقدام العرب، وهو ما أصاب أجيال هذه الشعوب بمتلازمة ستوكهولم العربية التي جعلتهم يؤمنون بفكر العرب ويتبنون مبادئهم ويعتبرونهم مثل وقدوة وآباء روحيين، دون أن تسطع عقولهم تحدي هذه الغشاوة العقلية التي فرضها عليهم كبت وقمع العرب جيلا بعد جيل، وبالنظر إلى أن هؤلاء الفقهاء من الأعاجم أبناء هذه الشعوب، حتى من كان منهم عربيا إذا بحثنا في أصوله نجدها غير عربية، ومن كان عربيا أصليا فهو يقدس آباءه وأجداده بالطبع لأن هذه طبيعة العرب وخصوصية القومية العربية القائمة على الأنساب وتقديس نهج الآباء، فمن الطبيعي أن نجد الفقهاء والمحدثين يلتمسون حسن الظن للجاني حتى وإن تنازلوا عن حقوقهم وحقوق الإنسانية لأن إرادتهم لم تكن حرة، بل كانت معيبة بعيبٍ وراثي جماعي، وتأثروا بالمتلازمة وآمنوا بأفكار العرب وتبنوا مبادئهم، فلا نستغرب إذا وجدناهم يبحثون عن نواةٍ يسندون بها زير الراوي.

فمن الواضح أن عملية البحث لم تكن انتقائية، ولكن كانت لملمة قائمة على الرغبة المسبقة في استقطاب كل ما يشتبه في كونه حديث وليس الرغبة في استبعاد كل ما يخالف أو يشتبه كونه مخالف.. كان الأمر لملمة بشوقٍ مسبق لتحف تراثية وآثارية وكل ما يشتبه بكونه آثاري أو

يشبه التحفة.. فالأمر لم يكن أبدا بمعيار تدوين النصوص التشريعية الحقيقية الصحيحة الملائمة لكتاب الله، بقدر ما كان جمعا لذكريات وتحف تذكارية باعتبارها قبسٌ من نور النبوة.

خاصة أنهم اعتمدوا على تقنية فحص عينة من روايات الراوي وتعميم النتيجة، لكن ذلك غير منطقي أبدا في تشريح الحديث بفحص عينة من روايات وأخبار شخص مجهول وإصدار شهادة الثقة والاعتماد لكافة الأحاديث والروايات التي رواها منفردا بعد ذلك؛ فكان ينبغي على الأقل غرس المسبار في كل رواية على حدة للحكم على الرواية ذاتها كمرحلة أولى تجعلها مقبولة للعرض على كتاب الله، إنما غرس مسبار مرة واحدة في عينة عشوائية والاكتفاء بذلك، فهذا معناه أن الغاية هي جبر خاطر الراوي نفسه لاعتماد شهادة الثقة والجودة ولو بالتماس أضعف الأسباب، بغض النظر عن موضوعية الرواية !، فهذا الأمر أشبه بالمعلم الذي يفحص ورقة إجابة تلميذ من المحببين إلى قلبه، فصار يبحث له ويلتمس ولو جرة قلم في أي ورقة ليمنحه درجة ويجبر باقي الدرجات لاعتماد الشهادة.. ثم في النهاية تصبح جرات الأقلام هذه هي المنهج للصف الثاني والجيل القادم من الطلاب، كما روايات الرواة، ويصبح لها الحكم على كتاب الله ! وليس ذلك عيبا أو قصورا في جرة القلم، ولكن العيب والقصور العقلي في الأجيال التي لم تستطع البحث عن كتاب الله واعتماده منهجا أصليا.

بينما كان أجدادنا المصريون يعتمدون على تدوين العلوم والمعارف بطرقة دقيقة ومنظمة، بعيدا عن فوضى القيل والقال وإعادة الإخراج والحفظ الشفوي والسبر المغزلي والجرح والتعديل الذي اتبعه أعراب البادية.. كان الفراعنة يدونون مروياتهم بطريقة بسيطة وسهلة ومضبوطة ومنظمة، وكل مروية لها بردية مستقلة ولها عنوان وتاريخ وتوقيع المختص بتدوينها، وإذا كانت ملكية فلا بد أن تحمل بصمة خاتم الملك " الخرطوشة الملكية"، وإذا كانت مراسلات دبلوماسية، فيتم حفظها بحالتها في الأرشيف، بينما وصلنا من القومية العربية ما يقارب ٦ آلاف من مرويات البخاري ومسلم لا نعرف أي منها صحيح وأي منها من صناعة العرب، لأنهم لم يكونوا أمة ضبطٍ وعلمٍ وتدوين كما كان أجدادنا المصريين بأي حال.▌



أما فيما يخص المدونات المصرية فكان المصريون حريصين جدا على تدوين العلوم والمعارف بدقة بالغة، كما كان النبي محمد عليه السلام إذا أرسل رسالة إلى أحد ملوك البلاد المجاورة أن يرسلها ممهورة باسمه وتوقيعه، بحيث تحتفظ بمصداقيتها تجاه من وجهت إليه، ولم يكن النبي (برغم أنه من أصل عربي) لم يكن يتبع نهج العرب في تداول الثقافة والمعرفة شفويا، بل كان يدونها ويوقعها بخط يده، كما كان حريصا جدا في تدوين القرآن بعيدا عن فوضى الرواية الشفوية وشهادة الشهود والتصديق والتكذيب والتدليس والجرح والتعديل...



وهكذا كان أجدادنا المصريون يدونون علومهم على ألواح مصقولة من الرخام والجرانيت ومطويات من أوراق البردي قاموا بتصنيعها خصيصا لهذا الغرض، فنجد كثير من مرويات الفراعنة وحكمهم وأمثالهم مدونة إما على ألواح من الجرانيت وإما على رسائل البردي مع حفظها وتوثيقها. فقد تركوا الكثير من رسائل البردي تحمل الكثير من العلوم والمعارف في كافة مجالات الحياة العلمية والأدبية والسياسية والحكمة، لأن حضارتهم كانت علمية تقوم في الأساس على ثقافة التدوين، ولم يكونوا كما العرب الذين قامت ثقافتهم على الحكي الشفوي، حتى أنهم ظلوا يتناقلون أحاديث ومرويات شفوية نسبوها للرسول، ودخل فيها بعضا من الديانات المسيحية واليهودية وخرافات العرب... وإلى اليوم لم نستطع تخليص الفقه الديني من هذه الخرافات، لأن الموروث الثقافي الديني واللغوي كله

وصلنا من شبه الجزيرة عبر البحر الأحمر شفويا مغلفا بغبار الصحراء وعقليتها البدوية الأدبية، فانتقلت إلى الفراعنة عدوى الثقافة الشفوية واستوطنت في مصر حتى الآن.

ولهذا كانت النتيجة أن يترتب على التوثيق بتقنية السبر الانتقائي هذه اعتماد صحة خمس وتسعين بالمائة من مئات آلاف مرويات أمهات كتب الحديث بما فيها مرويات البخاري ومسلم، وهى مروية فى الأصل عن مجاهيل كان يجب سبرها أولا على الأقل كمرحلة أولى لتكون مقبولة للعرض على كتاب الله. والمشكلة الثانية فى التطبيق، أنهم وضعوا القواعد ولم يطبقوها طول الوقت وإنما اكتفوا بنتائج فحص العينات، فقبلوا أحاديث مدلسين لم يصرحوا بالسماع (أي لم يعترفوا على أنفسهم بالتدليس رغم ثبوته عليهم) وتجاوزوا عن كبار المدلسين فقبلوا رواياتهم.. برغم أن الإمام شعبة بن الحجاج أدرك جيلا بأكمله من هؤلاء الرواة وعاصرهم في حياتهم بالعراق وشهد بأنهم كلهم مدلسين إلا رجلين اثنين فقط، ورغم ذلك تغافل أكثر المحدثين عن تدليسهم، وتغافلوا عن شهادة الإمام شعبة بتدليسهم رغم كونه معاصرا لهم، وقبلوا شهادة غيره ممن ليسو فقهاء ! و«شعبة» هذا إمام ليحيى القطان، ويحيى هذا إمام ليحيي بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني، ويحيى وأحمد، وعلي هؤلاء أئمة للبخاري الذي هو إمام لنا .

هذه هي القواعد الذهبية التي اعتمدها الفقهاء والمحدثين في اعتماد الأحاديث والروايات، وهي في الغالب تقوم على الاعتبار الشخصي لا الموضوعي، برغم أن الاعتبار الشخصي هو أخطر ما يكون على الفكر والعلم أيا كان نوع هذا العلم، ذلك لأن الاعتبار الشخصي يقوم على العاطفة والميول المسبقة دون موازنة من العقل تكفي لتصويب البوصلة على المسار الصحيح؛ فالحب يفقد الإنسان القدرة على الاختيار ما بين الصواب والخطأ، ونحن لا نتلقى العلم عن السلف مغلفا بحبهم، بل محفوظا بمعاييره الموضوعية. فقد كان وما زال القساوسة يركزون على الجانب الروحاني لدى جمهور المصلين في الكنائس لمنعهم من إعمال عقولهم فيما يقال لهم، ولذلك اتجهوا إلى تهيئة أجواء الكنائس وإطفاء الأنوار وإسدال الستائر والاكتفاء بالشموع الهادئة توطئة لعمليات الأسر الروحي للسيطرة العاطفية الكاملة على الجمهور؛ ولذلك اقتبس الزعيم الألماني أدولف هتلر هذه الحيلة وقرر ألا يعقد مؤتمراته السياسية إلا في أجواء وظروف تماثل أجواء التراتيل في الكنائس حتى يتمكن من أسر عقول جمهوره من السياسيين دون جدلٍ أو معارضة ولتفادي المناقشات الموضوعية مع الجمهور، ولذلك كانت تعقد

جميع مؤتمراته الحزبية السياسية في منتصف الليل ضمانا لسكون العقل، واستغلالا لبلاغته الخطابية في السيطرة على الجمهور، حتى فاز برئاسة ألمانيا وأودى بها إلى الهاوية في الحرب العالمية الثانية.. ثم بعد مرور الزمن عاد التساؤل؛ كيف اختار الشعب الألماني هذا الزعيم النازي الدكتاتوري (بالانتخاب الحر المباشر).

وبالطبع فإن هذا المعيار الشخصي كان محل طعنٍ من كثيرين من علماء السلف أنفسهم، فلم يكونوا جميعهم عقولهم مُغيّبة وخاضعة بمازوخية عقلية للعرب، بل هناك الكثيرين من الفقهاء رفضوا اعتماد هذه الطريقة في التوثيق، لأنها غير مضمونة ١٠٠٪ كي تصير دينا لشعوب العالم على مدار التاريخ إلى يوم القيامة، وشككوا صراحة في مصداقية الرواة في نقل الأحاديث شفويا، كانوا يرون أن العقلية العربية في الأساس لا تؤتمن على دين، ومن ثم ما تناقله العرب شفويا لا يجوز منحه الثقة المطلقة حتى وإن تعدد الشهود، لأنهم في الأصل تربة غير خصبة وإنما تربة مالحة وشديدة الملوحة.. ومن هنا طلع الفريق الآخر بحجة عصمة الصحابة وعدلهم وصدقهم وضبطهم في نقل مرويات رسول الله، على اعتبار أنهم إنما نقلوها بذات الطريقة التي نقلوا بها القرآن ! ومن يطعن في المصداقية الشفوية للمرويات فهو يطعن مباشرة في النص القرآني الذي وصل إلينا بفضل الصحابة وبذات الطريقة !.

مع أن ذلك مردود عليه؛ فالصحابة ليس لهم فضل في توصيل القرآن إلينا، ولم يتفضلوا به علينا، ولم يقدموا القرآن منة منحة وفضل منهم، بل هو فضل الله أنزله على رسوله إليهم لعلاجهم وعلاج أنفسهم وهدى ورحمة للعالمين، لا أن يكون مصدرا للمنة والفضل من العرب على الشعوب، وما كان الله ليرسل لنا القرآن عاجزا عن حمايته وتوصيله إلينا سالما ثم يحاسبنا في النهاية ! أي أن الله كي يحاسبنا في الأساس لا بد أن يضمن لنا طريقة وصول القرآن دون أن يجعلنا عبيدا للعرب الذين تفضلوا علينا بالقرآن، بل إن الله حفظ القرآن من الرعب أنفسهم حينما ضمنه مكتوبا وتكفل هو بحفظه، ولم يتركه يتداول شفويا على لسان العرب وهم تربة مالحة غير خصبة للعبادة، ثم نعيش نحن طوال العمر مدينين للعرب بعبادتنا، فهل هي عبادتنا لله أن خلقنا وأرسل لنا دينه أم هي عبادتنا للعرب الذين منوا علينا بدينهم ؟ بالطبع فالدين لله والعبادة لله ولا فضل سوى ما أمرنا به الله أن نصلي على نبيه كما يصلي هو وملائكته عليه ونشكره على أن أتم رسالته بالخير والهدى للعالمين. أما أن القومية العربية من طبيعتها وتكوينها النفسي أنها تعشق أن يكون لها المنة والفضل على العالمين، ولهذا

جعلوا أنفسهم شركاء في النبوة وأنه لولاهم لما عبدنا الله، وأن الله اختصهم بالقرآن لاعتبار خيريتهم على شعوب الأرض، وأن الله اختص القرآن بلغتهم لاعتبار أفضليتها على لغات العالم، مع أن ذلك غير صحيح كما تبينا سابقا، فالله اختصهم بالرسالة بسبب فسادهم العقائدي واختص القرآن باللغة العربية لتكون حجة ودليل الإدانة في الإنذار الموجه لهم، وغير ذلك.

بل إنه في الواقع فإن منزلة الصحابة لا يمكن أن تتجاوز منزلة الصحفيين في كل عصر برغم أنهم لم يكونوا صحفيين ولا يجيدون القراءة والكتابة هم فقط دافعوا عن النبي أي قدموا عملا عظيما استحقوا به الثواب من الله ولا يعني ذلك منتهم علينا، فلا يستساغ القول أنه لولا الصحابة ما وصل الدين إلينا، لأنه لولا إرادة الله ما وصل الدين إلينا، ثم لماذا لم يرسل لنا الله رسولا بالهيروغليفية لغتنا ! فلو كان الله قد أرسل نبيه في إيجبت لكان الدين قد حفظ تماما بلا مرويات ولا ضعيف ولا حشن ولا مشكوك في أمره، وبلا غزوات هجومية ولا دفاعية ولا يحزنون ، فالمجتمع القبطي مجتمع مدني وليس ثعالب برية تعيث في الصحراء بسلوكياتها الشيطانية.. لماذا يرسله وسط ثعالب الصحراء ليصبحوا أسيادا علينا ! وما كان الله عاجزا عن توصيله إلينا، ثم يأتون بعد ذلك ليقولوا لولا جهادنا لم وصلكم الدين ؟ فليتركونا كافرين أفضل من إجرامهم تحت مظلة الإيمان الكاذب هذه.. هم يقولون أن الله اختارهم لينزل عليهم الدين، بينما الحقيقة أنه اختارهم لأولويتهم في العلاج من غيرهم، وركز الله على ذلك في أكثر من موضع حينما قال (أم القرى وما حولها) أي المنطقة الموبوءة بالثعالب البرية. فالدين جاء لهم علاج، بينما هو وقاية لشعوب العالمين.

بل إن العقبة الكبرى أمام عولمة الإسلام كانت هي القومية العربية ذاتها، ولو لم يضمن الله طريقة وصول آمنة ما كان ليحاسبنا إلا عما علمنا.. بل إن الدين نزل من عند الله سليما كاملا ونحن ندعو ألا يكون الصحابة قد عبثوا به لأن رواياتهم له جاءت متناقضة مع بعضها، فهم لم يخترعوا لنا الدين ولم يبذلوا مجهودا في حفظه لأنه لم يتعرض لطوفان نوح مثلا.. هو تعرض لطوفان العرب وعبثهم وتحريفهم له، ولو تركوه لنا كما تركه لهم النبي لكان أفضل، إذن فما دور الصحابة في توصيل الدين بعد رحيل النبي؟ أو ما هو فضلهم علينا؟! هل كل فضلهم أنهم لم يحرفوه وتركوه لنا سليما كما تركه لهم النبي؟ !!! هل قاموا بترجمته إلى الهيروغليفية كي نفهمه ؟! للأسف لم يترجوا لنا كلمة واحدة ! فقط سلبوا أموالنا واحتلوا بلادنا ونهبوا ثرواتنا وأخذوا بناتنا سبايا ! فلماذا لم يتركونا ليصل

إليينا الدين بالطريقة التي وصل بها إندونيسيا ! بعيدا عن شرورهم ! ثم يعودون بعد ذلك ليقولوا أنهم أصحاب فضلٍ علينا !

وإذا كانوا هم بمثابة القناة التي انتقل إلينا الدين من خلالها، فهذا لا يعني أفضلية لهم لأنهم ما بذلوا أي جهد في ذلك، فالله إذا لم يضمن وصول الدين إلينا لن يحاسبنا على شيء.. بل إن معنى ذلك أنه على جميع أفراد الشعب المصري أن يسجدوا صباحا مساءً للسودانيين والإثيوبيين والإرتريين و....إلخ من دول حوض النيل العشرة الذين انتقل إلينا النيل بين يديهم وبفضلهم وجهدهم وعرقهم كما انتقل الدين إلينا بفضل الصحابة !!! خاصة إذا قيل أن مصر هبة النيل، وهو شريان الحياة في مصر، فالواقع يقول أن نهر النيل هو عصب الحياة وعصب الحضارة المصرية، ولولاه وإرادة الله ما استطاع أجدادنا بناء هذه الحضارة العظيمة، ولكانت مصر صحراء قاحلة مثل صحراء العرب.. فلماذا لا نسجد للسودانيين كل صباح على أنهم سمحوا بمرور نهر النيل ولم يقوموا بردمه أو منعه من المنبع ؟

إنما من طبيعة الشعب العربي أنهم يعشقون أن يشعروا بأنهم أصحاب منة وفضل على الشعوب، ولما طعن الفقهاء في طريقة توثيق الحديث شفويا هكذا وبشهادة الشهود، رد الفريق الآخر بأن الروايات وصلت بذات الطريق الذي وصل به القرآن، وأن من يطعن في الروايات يعتبر طاعنا في القرآن، وأن الصحابة حفظوا أحاديث النبي بذات الطريقة التي حفظوا بها القرآن، وأن النبي ترك القرآن متفرقا شفويا بين العرب ثم قام الخليفة أبي بكر بجمعه من صدور الرجال.. أو قام الخليفة عثمان عفان بجمعه بعد ٢٥ عاما من رحيل النبي.. وغير ذلك من الروايات لنشعر بأنهم أصحاب منة وفضل علينا وعلى الشعوب إلى يوم الدين.. فجعلوا أنفسهم شركاء في النبوة بشكل غير مباشر.. برغم أن النبي ما كان له أن يترك القرآن متفرقا شفويا هكذا، خاصة في منطقة القومية العربية التي عانى فيها كثيرا لإتمام دعوته فيهم، بل إنه دون القرآن بأعينه واستعمل كتبة الوحي ووجههم للتدوين وتصحيح ما كتبوه كلمة بكلمة وحرفا بحرف.. كما وردت روايات العرب..

عبقرية قواعد تدوين القرآن

عندما نطالع كتاب الله فلا يمكن أن نقتنع بأن هذا الكتاب كان مجرد آيات وسور متناثرة في صدور العرب، كما يقولون. بل إننا نجد قرائن عديدة تؤكد أن القرآن نزل من السماء بالصيغة المكتوبة أولا وليس بمجرد الصيغة الصوتية الشفوية، فالقرءان نزل مكتوبا من السماء ولم ينزل شفويا. وقد نشر المستشار أحمد عبده ماهر مقالا [٣] في هذا الأمر وجدناه أقرب للمنطق من التسليم بمبدأ شفوية القرآن التي تبنتها المرويات كي تنسب الفضل للعرب وتنسب التقصير لرسول الله. فيقول: هذا المقال كتبته منذ عدة سنوات، وما كنت لأبوح به إلا لأني عاينت نضجا فكريا وإدراكيا في الناس عن ذي قبل.. ولا تسألوني أين النسخة الأصلية للقرآن... فعليك أن تسأل الحضارات التي لم تكن تهتم بالتوثيق.. بل لابد أن تسأل أين صحف إبراهيم وموسى الوارد ذكرها بالقرآن.. فهي بالطبع صحفا مكتوبة.. فكل رسالات السماء نزلت مكتوبة.. فهل تقوموا بتكذيب القرءان لتصدقوا التاريخ البشري وتكذبوا كتاب الله لتقولوا مقولاتكم الباهتة بأن القرءان نزل بالمشافهة وتناقل في الصدور بالمشافهة ؟!

١ـ فيشهد على أن القرءان نزل مكتوبا من السماء سيرة بن هشام حيث ورد بها أن جبريل نزل على النبي بديباج مكتوب فيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق.....)...والديباج هي قطعة من الحرير أو القماش.

٢ـ ويشهد على ذلك أيضا دلالات النص لقرءاني في قوله تعالى: (اقرأ & هذا الكتاب & ذلك الكتاب &كتاب أنزلناه إليك & نَزَّلَ عليْكَ الكِتَاب بالحقِّ & هوَ الذِيَ أنزَلَ عليْكَ الكِتَاب مِنْه آيات & أنزلَ اللهُ عليْكَ الكِتَاب والحِكْمَة وعلَّمَكَ ما لمْ تَكُنْ تعلمُ & ومَا أنزَلْنَا عليْكَ الكِتَاب إلا لِتُبَيِّنَ لهُمْ & ونَزَّلنَا عَليْكَ الكِتَاب تِبْيَانا لكُلِّ شيْءٍ & أولمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنزَلْنَا عليْكَ الكِتَاب & إنّا أنزَلْنَا عليْكَ الكِتَاب لِلنّاسِ بالحقِّ .....) وغير ذلك كثير.

(٣) ـ نقلا عن المستشار أحمد عبده ماهر مع كثير من التصرف

فهل يمكن أن يقول الله تعالى [إن هذا الكتاب...] دون أن يكون مكتوبا ؟ ويقول [اقرأ] وليس هناك ما يمكن قراءته من تدوين خطي؟.. لأن الجذر اللغوي عموما لكلمة كتاب لا يرد بمشتقاته إلا مع مادة مكتوبة مسطورة خطيا وليس صوتيا، فهذه الصيغة الصوتية الأقرب ملائمة معها هو أن يقول الله لرسوله " اسمع أو استمع " بما يلفت النظر لحاسة السمع والتركيز الذهني مع الأذن.. فهذا ما يتلاءم أكثر مع المادة الصوتية المسموعة، إنما إذا تحدث الله بصيغة الكتابة والقراءة فذلك يعني انصراف التركيز بحاسة البصر ولا ينصرف بأي حال إلى المادة الصوتية المسموعة شفويا. وليس من المنطق تعمية العقول عن كلام الله احتراما لمرويات العرب.

٣ـ فهل كلمة كتاب تعني بأنه غير مكتوب؟ أو تعني بأنه مسجل صوتيا ؟ أو نزل بصورة صوتية غير محتفظة بصورتها الكتابية الخطية؟ فإذا كان الله قد اكتفى بكلمة " قرآن " فكان من الممكن صرفها إلى أن القرآن هو كلام الله بوجه عام سواء كان مادة مكتوبة أو صوتية، لكننا لا نجد الله يستخدم أي إشارة إلى اعتماد مادة صوتية منفردة، بل استخدم الله صيغة القراءة والكتابة ومشتقاتهما بما يعني أنه مدون في يد النبي أيا كانت طريقة أو وسلة التدوين وأيا كانت خامات التدوين، المهم أنه موجود بالصيغة الشكلية الخطية الكتابية وليس فقط الصيغة الصوتية. خاصة أن الله تعلى يقسم بالقلم، في قوله " ن ۚ والقلم وما يسطرون)/ سورة القلم، فهل نقتنع بأن النبي أدى رسالته بأن ترك القرآن شفويا متفرقا متناثرا في صدور الرجال؟ وهل نقتنع بأن الله يقسم بالقلم دون أن يكتب القرآن؟

فماذا تعني كلمة [هذا الكتاب لا ريب فيه & وذلك الكتاب & هذا كتابنا] في قاموس اللغة ؟، ألا تعني اسم إشارة لما هو موجود بصورة مكتوبة خطيا؟ لأن كلمة كتاب وكتابة ومكتوب لا صلة لها بمنهج عام أو مادة صوتية مسموعة وإنما مادة دخل عليها فعل الكتابة الخطية بالقلم، وهذا الفعل بعد دخوله يترك أثرا ماديا في الحياة، وليس معنويا، عكس فعل " قرأ" ومشتقاته يترك أثرا معنويا، وحتى وإن أحدث أثرا ماديا نتيجة انتقال الموجات الصوتية في الهواء، فهذا لا يعني ديمومة هذه المادة الصوتية، إنما فعل الكتابة فهو يعني تحويل هذه المادة الصوتية إلى رموز تشكيلية تمكن من إعادة استنطاقها في أوقات أخرى. فهل يقول الله هذا الكتاب وهو يقصد المادة الصوتية الشفوية غير المكتوبة؟ أو أنه يقصد القرآن الذي من الممكن مجازا تدوينه وكتابته على أبي بكر الصديق بعد

وفاتك يا محمد؟ فما منعه من أن يقول هذا القرآن مثلا؟ فهي قد تحمل دلالة المادة المقروءة صوتيا، إنما كلمة الكتاب ومشتقاتها بأدوات الإشارة هكذا فلا بد أن تعني الصيغة الكتابية المدونة خطيا، غير أن كلمة قرآن، والقرآن قد تعني بعضا منه سواء سورة أو جزء وغير ذلك يطلق عليه قرآن بوجه عام، إنما كلمة الكتاب، وهذا كتابنا، فهي تعني كامل المصحف في صورته المكتوبة، سواء كانت الكتابة على شيء مادي مصنوع بشريا أو إلهيا أو حتى كانت صورة الكتابة مجرد حفظ الشكل الكتابي للقرآن في قلب النبي بما يسهل نقله إلى مادة لوحية أو صفحات يدون عليها.

٤ـ والبرهان الرابع بشأن أن القرءان نزل مكتوبا هو ما يدل عليه قوله تعالى: {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً } ٢/البينة، ومجرد قوله تعالى (رسول يتلو صحف وهو يقصد النبي محمد، فهل تكون الصحف إلا صحفا مكتوبة؟! وهل هناك صحف صوتية؟ ولماذا لم يقل الله "رسول - يتلو قرآن أو القرآن؟ لماذا أورد كلمة صحف وهي ذات طبيعة مادية مرئية ملموسة؟ والصحف هي ألواح الكتابة وليست مقطوعة من القرآن سواء سورة أو ربع أو جزء أو آية، إنما هي ألواح الكتابة، فكيف تقولون بالمشافهة الصوتية ؟ فلو فرضنا أن النبي تلقى القرآن على قلبه بالصورة الكاملة "صوتيا وشكليا من حيث الكتابة" وقام بتدوينه في صحف وعلى ذلك يخاطبه الله حول قراءة هذه الصحف، فهل أن ذلك يعني أن الرسول ترك القرآن شفويا متناثرا متفرقا في صدور العرب؟ ففرضية كون القرآن - مكتوب خطيا في صحف أو ألواح - هذه الفرضية قائمة حتما بنص كلام الله، ولا يمكن إنكارها لمجرد تصديق روايات تقول أن النبي ترك القرآن منثورا شفويا بين الناس، لأن هذه الروايات هي أخبار نقلها أصحاب الثقافة الشفوية وليس أصحاب حرفة الكتابة والتدوين، وتناقلها الناس عبر العصور وليس من المنطق تغليبها على كلام الله ولا من المنطق تغييب عقولنا عن تفسير وفهم كلام الله لمجرد أنه يتعارض مع مرويات العرب.

فما هي تلك الصحف المطهرة... ومن كتبها ؟ أم أنها كانت مدونة بصحف بعد كتابتها من الصحابة ؟ فهل ذلك يمنح كلمة (ذلك الكتاب وهذا الكتاب) صفة بعد كتابته بواسطة الصحابة؟ أم أنه مكتوب قبل أن يكتبوه؟ أليست كصحف إبراهيم وموسى؟.. غير أننا نتساءل إذا كنا نحن جميعا نعرف أن جميع الرسالات السابقة نزلت مكتوبة على ألواح وصحف مثل صحف إبراهيم وموسى، فلماذا نصر ونتمسك بإنكار الصيغة الكتابية عن القرآن؟ إن ذلك فقط مجرد فتح ثغرة لوضع بصمة القومية العربية كي تعيش مخلدة بخلود الدين، فإذا كانت كافة الرسالات السابقة نزلت مكتوبة

خطيا، فهل من المنطق أن تنزل الرسالة المحمدية وهي خاتم الرسالات تنزل شفويا صوتيا لتتفرق وتضيع وتتشوه معالمها نتيجة التداول الشفوي بين الناس دون أصل مكتوب يرجعون إليه؟ فالمادة الصوتية تذوب سريعا أما الصورة الشكلية للكتابة تتناقلها الأجيال بسهولة وثبات، أما المادة الصوتية فهي هشة تتغير بسهولة وتستلزم جهد ووقت ومصاعب في انتقالها من جيل لآخر إذ لا بد من حفظها وإعادة ترديدها وتشترط حياة الشخص نفسه الحامل لها كي تنتقل من جيل لآخر.

٦- ومن بين ما دل عليه القرءان في طريقة الوحي للرسل وأنه يكون بالصورة المكتوبة

•وقالوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }الفرقان ٥.. أي أن العرب كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله، ويقولون أنه قصص تاريخية قديمة كتبها محمد بنفسه ويتم إملاءها عليها، إذن نفهم من ذلك أن النبي كان يحتفظ بالقرآن مكتوبا أمام أعينهم. حتى أنهم قالوا (فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ) وفعل الإملاء لا يكون إلا مع الكتابة وهو يختلف عن فعل الحكاية والرواية الشفوية التي هي أساس الثقافة العربية، ففعل يملي وتملى وأملى ومشتقاته لا يرد إلا مع الفعل كتب ومع حركة القلم، ولا يمكن صرفه إلى معنى حكاية قصة بالطريق الشفوي دون تدوين.

• ويقول تعالى: وَالطُّورِ{١} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{٢} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{٣} الطور. وهذا ما يؤكد أن الصورة الكتابية الخطية للقرآن هي وحي من الله وليست نتاج العقلية العربية، لأننا كي نقول أن الوحي اقتصر فقط على الصيغة الصوتية للقرآن، فماذا تعني كلمات: كتاب ومسطور ورق منشور؟ ولماذا يقسم الله بالكتاب والقلم والسطور؟

• ويقول تعالى: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{٥٢}....المدثر. وهذا ما يعني توقهم لتلقي مادة مكتوبة وليس وحيا سماعيا شفويا.

وإذا كان هناك فريق ينفي أن يكون الله قد أنزل القرآن على النبي في ألواح وصحف مادية يمكن طيها وحملها والاحتفاظ بها كما قال ابن هشام في سيرته أن الرسول تلقى من جبريل ديباجة حريرية مكتوبة وعليها أول آية في القرآن (اقرأ باسم ربك..) على اعتبار أن القرآن نزل منجما أي متفرقا حسب مقتضى الظرف والموقف وحسب أسباب النزول، فحتى وإن لم تكن هذه رواية ابن هشام صحيحة، فهذا لا يعني عدم نزول القرآن محتفظا بصورته الكتابية التشكيلية الخطية التي تتلاءم مع أفعال وردت بالقرآن مثل " قرأ ويملي ويملل وكتب ومشتقاتهما"، فالمهم أن طريقة الكتابة والتشكيل

الحرفي هي جزء من الوحي أنزله الله على رسوله وليست من إبداعات العرب، أي أن طريقة الكتابة وتشكيل الكلمات هي جزء من الوحي السماوي وليست نتاج القومية العربية وليست جهد العقلية العربية ، وطالما كانت طريقة الرسم والكتابة القرآنية جزء من الوحي فهذا يعني حتما أن النبي تركه للصحابة مكتوبا وليس مجرد ترانيم صوتية شفوية. غير أننا نجد أن المادة المكتوبة هي الأكثر ثباتا في الوجود من المادة الصوتية سريعة التلون، ولذلك نجد أن الصيغة الصوتية للقرآن أو القراءات الصوتية قد تعددت بمرور الزمن وصلت إلى عشر قراءات ثم خمسة عشر قراءة ثم في عصر العباسيين يقال أنها وصلت مائة وخمسين قراءة مختلفة عن بعضها صوتيا، برغم أنهم تلقوا هذه الصيغة الصوتية للقرآن من النبي مباشرة، إنما رغم هذا التعدد في القراءات الصوتية لأن الصيغة الصوتية بطبيعتها هشة ومتلونة وليست ثابتة متحجرة، نجد أن الصيغة الكتابية الخطية ثابتة في جميع الحالات وعلى اختلاف العصور، حتى أننا نجد بعض الكلمات مكتوبة بطريقة رسم حرفي لم يستطع العرب فهمه أو تفسيره، فكيف نقول أن الصيغة الشكلية الكتابية للقرآن ليست وحي وإنما نتاج وجهد القومية العربية؟ إذا كانوا هم لم يستطيعوا تفسير هذه الاختلافات في الرسم رغم ما بها من إعجاز؟ فالإعجاز القرآني والتحدي ليس فقط في الصياغة اللغوية والبلاغية للقرآن وإنما في طريقة رسم الحروف وتشكيل الكلمات التي اختلفت كتابيا مع القالب الصوتي الخاص بها. فمن قال للنبي بأن يرسم تكوين أحرف الكلمات القرآنية والتي تختلف اختلافا جذريا عن قواعد الإملاء والنطق في اللغة العربية. وهل من المنطق أن يلزم الله نبيه بكتابة خطية معينة للقرآن بينما النبي ينقله للعرب شفويا فقط؟ فالصيغة الصوتية الشفوية مجال حفظها هو العقل أما الصيغة الخطية مجال حفظها هو الكتابة على الألواح.

فلماذا ذكر القرءان نبي الله (إبراهيم) بسورة البقرة بدون حرف الياء وحرف الألف ؟.. بينما هي مكتوبة بباقي المصحف بدون حرف الألف فقط، وما سبب كتابته كلمة (ضعفاء) هكذا ثم يكتبها (ضعفؤا) مرات أخرى؟ وما سبب كتابة (أينما) هكذا بالقرءان ويكتبها القرءان أيضا (أين ما) وما سبب كتابة (رأى) بهذا الشكل بالقرءان ثم تكتب أيضا (رءا)، وكلمة صلاة والصلواة، وكذا كلمة حيوان وحيوات.. ومئات الاختلافات الأخرى، كيف عرف العرب أن كتابتها تختلف عن نطقها إذا كانوا يزعمون أن النبي لا يعرف القراءة والكتابة والحروف وأنه ترك لهم القرآن شفويا؟ فلو كان قد ترك لهم القرآن شفويا فلماذا لم يكتبوه كما ينطقوه؟ . علما بأن لكل كلمة رسم ومعنى يدلل

عليه ذلك الرسم وليس الأمر اعتباطا ولم يترك النبي تفسيرا لهذه التشكيلات، فهم إذا قالوا أن طريقة كتابة القرآن خطيا هي سنة عن الصحابة فهذا مستحيل، لأنهم لم يستطيعوا تفسير هذا الإعجاز في اختلاف الكتابة، وإذا قالوا أن الصيغة الكتابية الخطية للقرآن ليست وحيا وإنما سنة نبوية، فهذا أيضا مستحيل لأن النبي ما كان ليترك لهم سنة دون أن يفسرها لهم... وهل علمهم النبي طريقة كتابة القرآن خطيا شفويا؟ أي علمهم طريقة الكتابة الخطية بالكلام الشفوي دون كتابة؟ فما منعه من الكتابة؟

ويسوق المستشار أحمد ماهر جملة أخرى من الشواهد التي تثبت محاولات العرب المستميتة لتحوير الرسالة وجعل أصلها أو غلافها وسندها مستمد ومشتق من القومية العربية، فيقحمون أنفسهم في عملية توثيق الرسالة كي يكون لهم الفضل على العالمين، ويجعلون من أنفسهم ورثة النبي وحملة رسالته، بينما في الواقع ذلك انتقاص من قيمة الرسالة وإعلاء للقومية العربية؛ بداية من زعم أمية النبي أي جهله بالقراءة والكتابة مثل أغلبهم أو أنه كان يجهل القراءة والكتابة بينما الأعراب يجيدونها ! في حين أن القراءة والكتابة هي أول أدوات الرسالة.

فيقول الأستاذ أحمد ماهر عن الكتابة القرءانية وأمية الرسول: يزعم الفقهاء أن كلمة (أمي) الواردة بكتاب الله تعني الأمية الأبجدية بما تحمله من عدم الإلمام بالقراءة والكتابة... ولقد كتبت مرارا أدلة عديدة على أن النبي كان يعرف القراءة والكتابة، وأن الأمية التي عناها القرءان بشأن الرسول والأمية التي عناها بشأن قومه حين أطلق عليهم لقب (الأميين) هي الأمية الإلهية، أي المنهج، فوصف النبي بأنه أمي تعني أنه صاحب منهج ورسالة، ولا تعني أبدا أنه بصمجي كما حاول العرب أن يقنعونا.. ويطرح الأستاذ أحمد ماهر شواهد عديدة عن عدم أمية الرسول بل ومعرفته التامة للقراءة والكتابة، أنه كان هو الذي يقوم بكتابة القرءان، أو يوجه كتبة الوحي في الشكل الإملائي لتشكيل الحروف واختلافاتها. وبالطبع نعلم جميعا أن للقرءان تكويناته الحرفية المخالفة لما عليه نظم اللغة العربية التي نمارسها، فمن الذي كان ينبه كتبة الوحي لتلك الاختلافات؟. إنه الرسول الأعظم، وعلى سبيل المثال لا الحصر.

١ـ كلمة (فإلم) كُتبَت كذلك في هود ١٤ ... وكُتِبَت (فإن لم) كُتبَت ١٢مرة بالقرآن

٢- كلمة [أن لا] كُتِبَت هكذا ١١ مرة... وكُتِبَت [ألا] ٨٩ مرة.

٣- كلمة [أين ما] كُتِبَت هكذا ٨ مرات .....وكُتِبَت [أينما] ٤ مرات.

٤- كلمة [فى ما] كُتِبَت هكذا١١مرة .....وكُتِبَت [فيما] ٢٣مرة.

٥- كلمة [لكى لا] كُتِبَت هكذا فى النحل ٧٠ والأحزاب٣٧ والحشر٧ ...وكُتِبَت [لكيلا] هكذا فى آل عمران١٥٣والحج ٥والأحزاب٥٠ والحديد٢٣.

٦- كلمة [مثل ما] كُتِبَت ١٥مرة منفصلة ولم تكتب متصلة فى عموم القرءان...

٧- وكذا كلمة [بين ما] كُتِبَت مرة واحدة منفصلة ولم تكتب متصلة.

٨- كلمة [أن لن] كُتِبَت هكذا فى الأنبياء٨٧ - الحج١٥ - محمد٢٩ - الفتح١٢ - التغابن ٧ - الجن٥و٧و١٢ - المزمل٢٠ - الإنشقاق١٤ - البلد٥ ... وكُتِبَت [ألن] هكذا فى الكهف ٤٨ - القيامة

٩- كلمة [أن لو] كُتِبَت هكذا فى الأعراف١٠٠وسبأ٣١ والرعد١٤ ... وكُتِبَت [ألو] فى الجن١٦ فقط.

١٠- كلمة [كل ما] كُتِبَت هكذا فى النساء٩١\المؤمنون٤٤... وكُتِبَت [كلما] فى ١٥موضع آخرفى القرءان الكريم.

١١- كلمة [سبحان] كُتِبَت بالألف الكاملة فى الإسراء٩٣ ... وفى ٤٠ موقع آخر كُتِبَت بالألف الخنجرية أي بدون حرف الألف.

١٢- كلمة [كتاب] كُتِبَت بالألف الكاملة فى الرعد٣٨ الحجر٤والكهف٢٧والنمل١ ....وفى باقي القرءان بالألف الخنجرية أي بدون حرف الألف.

١٣- كلمة [صاحب] كُتِبَت بالألف الكاملة ٩مرات فى النساء٣٦- الأعراف١٨٤ - الكهف٣٧ - لقمان ١٥ - سبأ٤٦ - النجم٢ - القمر٢٩ - القلم٤٨ - التكوير٢٢ .... وبالألف الخنجرية٩مرات فى الأنعام١٠١ - التوبه٤٠ - يوسف٣٩ - ٤١\الكهف٣٤ - ٧٦ - المعارج١٢ - الجن٣ - عبس٣٦ أي بدون حرف الألف. فضلا عن الواو التي أصلها ألف فتكتب واو وعليها ألف خنجرية وكذلك الياء وكذلك الصاد التي تنطق سين.

١٤- كلمتى [والد ووالدة] فكلمة والد تكتب بالقرآن هكذا[والد] بينما كلمة والدة تكتب هكذا [ولدة] بدون حرف الألف في الوسط، أتدرون لماذا؟؟. وكلمة الوالدين تكتب بدون حرف الألف الوسطية أيضا لماذا؟ وكلمة آباؤكم بالألف الوسطية بينما كلمة أمهاتكم تكتب هكذا [أمهتكم] بدون

حرف الألف الوسطية....أتدرون لماذا؟؟. إن ضم كلمة والدة لتكون (ولدة) أو كلمة (أمهتكم) بدون حرف الألف الوسطية تعني أن الابن أو الابنة ملتصق بأمه، وهو من داخل وعائها البطني، لذلك تم تضييق الكلمة وترابطها. بينما كلمة الوالد أو كلمة (آباؤكم) فلأنه يسعى ليستجلب الرزق فهو منفصل بحرف الألف الوسطية لأنه منفصل أغلب الوقت عن الأسرة... هذا فضلا عن ضعف عاطفة الآباء على الأبناء عن الأمهات. أما كلمة (والدين) فتكون بغير الألف الوسطية فتكتب (ولدين) لأن اجتماع الوالد والوالدة في كلمة واحدة يعني الترابط، ويعني أن عاطفة الأمومة تجمع الأسرة وتطغى على جمود الأبوة. لذلك لم تتواجد حرف الألف الوسطية الذي يفرق الكلمة.

١٥- وكذلك كلمة (بحار) وكلمة (أنهار)، فكل كلمة بحار في القرءان تكتب عادية يعني بحرف الألف الوسطية، أما الأنهار فتكتب بدون ذلك الحرف، أتدرون لماذا ؟ .. لأن البحار لها اتساعها فلذلك فهي ترد بحرف ألف المد الوسطية، أما الأنهار ولأنها محدودة فتكون بغير حرف الألف الوسطية.

١٦- وكلمة " ألواح – ألوح " هل تدرون لماذا كُتبت كلمة ألواح عادية إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ }القمر١٣؛ فإنها كتبت بالقرءان هكذا (ألوح) بدون حرف الألف الوسطية.؟ لأن ألواح موسى منفصلة فتجدها بحرف الألف الوسطية، ولأن ألواح سفينة نوح يجب أن تكون متصلة وإلا نفذ إليها الماء فتغرق، لذلك فكلمة ألواح فيها بدون حرف الألف الوسطية.

١٧- وكلمة "كتاب- كتب" فهو حين يورد كلمة (كتاب) فإنه يوردها بدون حرف الألف الوسطية فيكتبها هكذا (كتب)... حيث وضع الذين قاموا بتشكيل المصاحف لنا حرفا صغيرا يسمونه (الألف الخنجرية) كي يساعدونا على النطق الصحيح... وهذه تعني أي كتاب غير اللوح المحفوظ.. ولقد وردت بالقرآن ٤٤ مرة في ٤٣ آية. بينما هناك كلمة (كتاب) وردت صريحة (كتاب) في ثلاث مرات في ثلاث آيات كما نكتبها نحن، وهذه تعني اللوح المحفوظ، وتعني أيضا تحديد الأعمار بالوفاة وفقا لسياقها داخل النص القرآني، وقد وردت بالآيات ٣٨ الرعد،٤ الحجر، ٢٧ الكهف.

١٨- وكلمة (رأى) وردت بالقرآن على شكلين الأول هو (رءا) وهذه وردت عشر مرات...بالآيات ٧٦ و ٧٧ من سورة الأنعام، ٧٠ هود، ٢٤ و٢٨من سورة يوسف، ٨٥ و٨٦ النحل، ١٠ طه، ٢٢ الأحزاب. وكلها تعني رؤيا العين

الحقيقية...ويمكن الرجوع للآيات للوقوف على ذلك الملمح. والثانية وردت بشكل [رأى] وهذه وردت مرتان بالآيات ١١و١٨من سورة النجم، وهي تعني الرؤية الإدراكية وليست رؤية النظر؛ أي أنها رؤية بصرية بغير أداة العين، أي رؤية قلبية. وهنا نخلص إلى أن رؤية النبي محمد لجبريل كانت رؤية بصرية إدراكية بالقلب بغير أداة العين، لذلك قال تعالى : {ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى } النجم١١.

١٩ـ وإبدال التاء المربوطة بتاء مفتوحة أحيانا، مثل (شجرت الزقوم، معصيت الرسول ـ لعنت الله ـ قرت عين ـ بقيت الله) فكلمة [شجرة] تمت كتابتها بالقرءان بالتاء المفتوحة مثل : إنَّ شجرتَ الزَّقوم ﴿٤٣﴾ طعام الأثيم } الدخان؛ وهي تكتب هكذا لتوحي بالاستمرار في الزقوم والعياذ بالله، لأن فتح حرف التاء إنما هو فتح لما ترمز إليه من استمرار وتكتب بالتاء المفتوحة لتثبت استمرار معصية الرسول، مثل (ألمْ ترَ إلى الذينَ نهوا عنِ النَّجوى ثمَّ يعودونَ لِمَا نهوا عنْهُ ويتناجونَ بالإثم والعدوانِ ومعصيتِ الرَّسولِ وإذا جاؤوكَ حيَّوكَ بما لمْ يحيِّكَ بهِ اللهُ ويقولونَ في أنفسهِمْ لولا يعذِّبنا اللهُ بما نقولُ حسْبُهمْ جهنَّمُ يصلوْنها فبئسَ المصيرُ } المجادلة٨ . وتكتب هكذا أيضا لتبيان استمرار لعنة الله...مثل قوله تعالى: فمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِن بعدِ ما جاءكَ منَ العلمِ فقلْ تعالوا ندْعُ أبناءنا وأبناءكمْ ونساءنا ونساءكمْ وأنفسنا وأنفسكمْ ثمَّ نبتهلْ فنجعل لعنتَ اللهِ على الكاذبينَ{٦١}{والخامسةَ أنَّ لعنتَ اللهِ عليهِ إن كانَ منَ الكاذبينَ ويدْرأُ } النور٧، أو استمرار قرة العين بما يعني استمرار الحب والمودة، مثل: (وقالتِ امرأتُ فرعونَ قرَّتُ عينٍ لي ولكَ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أوْ نتخذَه ولدا وهمْ لا يشعرونَ) القصص٩. أو استمرار بقية الله مثل قوله تعالى (بقيَّتُ اللهِ خيرٌ لكمْ إن كنتم مؤْمنينَ وما أنا عليكم بحفيظٍ) هود٨٦

٢٠ـ وإن تركنا كاتب الوحي على سجية علمه ستجد الكاتب يكتب كما تعلم الكتابة، فإذا أمليت عليه مثلاً أحرف ح م ع س ق فسيكتبها أحرف مفرقة كما كتبناها هكذا...لأنه سمعها منك مفرقة وأنت تنطقها، أما بالقرءان كما ورد بمطلع سورة الشورى (حم (١) عسق (٢) كذَٰلكَ يوحي إليكَ وإلى الذينَ من قبلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيمُ(٣).. فقد أمر الرسول بكتابة الحرفين ح م متصلين هكذا [حم] وفصل بينهما وبين ع س ق وأمر بتوصيل ع س ق لتصبح [عسق]، فاصبحت حم][عسق] وكل واحدة منهما آية منفصلة، مع أنه كان يمكنه أن يشبك حرف الميم مع حرف العين إذا أراد أن يشبكهما جميعا ، فتلكم هي الرقابة النبوية على كتبة الوحي. ولم يكن العرب يعرفون معاني هذا الأسلوب ولا سبب

تقطيع هذه الأحرف، هم فقط تداولوها كما تسلموها من الرسول، وإلا فلماذا لم يكتبوها كما ينطقوها؟ لماذا كتبوها بشكل مختلف عن النطق؟ ومن أين جاؤا بهذا الشكل الكتابي المختلف عن النطق؟ إلا إذا كانوا قد تعلموه من النبي؟ وهذا معناه أن النبي كان على علم بالحروف والكتابة وشكل الكلمات ونطقها وعلمهم أن بعض الكلمات مختلف شكلها عن نطقها. فكل هذه الاختلافات عن الصورة المعروفة بالكتابة العربية إنما تؤكد معرفة الرسول للقراءة والكتابة واختياره بعناية قصدية لطريقة كتابة الحرف والكلمة، وأن كتبة الوحي لم يكونوا يكتبوا كيفما اتفق في عرفهم، بل كانوا يكتبون بتوجيهات الرسول، هذا فضلاً عن أن لكل تشكيل حرفي معناه وهذا أمر آخر سنشرحه بمقال منفصل في وقت آخر.وهو مما يدل على أن النبي كان يعرف القراءة والكتابة وفوارق الحروف والكلمات. ولم تكن هذه الاختلافات بلا مذاق أو بلا معنى بل كانت توحي بمعان خاصة.

والغريب أن تزعم روايات أخرى بأن عثمان عفان هو من جمع القرءان وكتبه بكتاب.... وأن زيد بن ثابت كان يأتي بشاهدين قبل أن يقوم بتدوين أي آية... كيف تناقلتم كل هذه الخرافات وصدقتموها وقمتم بتكذيب كتاب الله؟.. فإذا كان الله قد أمر المؤمنين إذا تداينوا بدينٍ أن يكتبوه، " يا أيها الذينَ آمَنُوا إذا تدَاينتم بديْنٍ إلىٰ أجلٍ مُسَمًى فاكتُبوه ۚ وليَكتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالعَدْلِ ۚ ولا يأبَ كَاتِبٌ أن يَكتُب كَمَا علمَهُ اللهُ ۚ فلْيَكتُب وليُملِلِ الذي عليْهِ الحقُّ وليَتّقِ اللهَ ربَّهُ)٢٨٢/البقرة. فهل لا يأمر نبيه بكتابة القرآن؟ وهل يتركه النبي شفويا للعرب؟

فإذا كنا اعترفنا بأن طريقة كتابة القرآن ورسم حروفه وكلماته هو جزء من الوحي السماوي، وبرغم أن الله تحدث عن القرآن بصيغة الكتابة والتسطير والقراءة والإملاء واحتفى بالكتابة والتدوين وأقسم بالقلم وغيرها من الألفاظ الدالة على فعل التدوين، فهل من المنطق أن يتركه النبي للصحابة غير مكتوب؟ ألا يعتبر ذلك تقصيرا؟ فهل يتركه شفويا ويرحل برغم أن الصيغة الصوتية لا تحتفظ بتفاصيل الصيغة الكتابية؟. خاصة أنه لو قلنا أن الصحابة حفظوا القرآن شفويا فما يتلاءم مع الحفظ الشفوي هو صوتية القراءة والترتيل أي الصيغة الصوتية للقرآن، إنما الصيغة الكتابية والتي هي مختلفة عن القراءة فمن غير المنطق انتقالها مع الحفظ الشفوي، ثم إذا انتقل علمها شفويا فلماذا وجدن أصلا؟ لأنها لا تؤثر في النطق وإنما تؤثر في المعنى فقط وطالما لا يحملها النطق الصوتي فكيف

تنتقل صوتيا ؟، خصوصا أن الثقافة العربية لا تعرف نظام الحروف الصامتة (Silent letters) كما في اللغات اللاتينية، إنما كل ما هو مكتوب منطوق وكل ما هو منطوق مكتوب، بخلاف بعض المواضع في القرآن فقط[٤]. وهذا ما يؤكد أن القرآن ظل بمنأى عن تدخل القومية العربية.. غير أننا لو سلمنا بأن النبي ترك القرآن شفويا ورحل، وأن أبي بكر جمعه على رقاع وأحجار وأن عثمان عفان نسخه في هيئة "كتاب" فهل كان النبي عاجزا عن فعل ذلك؟ وهل كانت تقنيات الكتابة في عصر النبي عاجزة تماما ثم مع تقدم والعلوم والتقنيات الحضارية في عهد عثمان تم تصنيف "أول كتاب"؟... بالطبع الأمر هو محض زيغ من زيغ المرويات العربية لرفع عثمان عفان وقبيلته بني أمية درجات فوق العرب ودرجات أخرى فوق الشعوب على غرار وصف عمر الخطاب بأن إبليس كان يهابه ولا يهاب النبي ! وهذا عمر الذي فكر مرارا ف اغتيال هذا النبي قبل سنوات قليلة !

إنما ما يتسق مع العقل والمنطق السليم هو الرواية التي أوردها ابن هشام في السيرة والتي تقول أن الرسول تلقى من جبريل ديباجة حريرية مكتوب عليها أول آية في القرآن (اقرأ باسم ربك..) ثم توالى بعد ذلك نزول الوحي منجما على قلب الرسول من الله مباشرة وبدون الواسطة جبريل عليه السلام، وأن الوحي كان ينزل منجما متفرقا حسب الظرف ومقتضى الحال، وهذا ما أشار إليه الأستاذ أحمد ماهر بقوله أن الله أنزل القرآن كاملاً كتابا مكتوبا على النبي محمد وأمره بعدم الإفصاح عنه إلا بعد نزول الوحي به وفي مناسبته...وتبين ذلك من قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ{١٦} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ{١٧} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ{١٨}...القيامة. أي احتفظ به وإذا نزل الوحي فما عليك إلا تتبعه في الكتاب، وقوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ <u>وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ</u> وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) طه.١١٤ أي لا تنطق بالقرآن قبل أن ينزل عليك وحيه... وهذا المنطق هو ما يتلاءم مع الطبيعتين المزدوجتين للقرآن (الصيغة الصوتية والصيغة الكتابية الخطية).

---

[٤] ـ هذا بالإضافة إلى أساليب أخرى للقسم لم يفهمها العرب مثل " طسم، وكهيعص، ون، والم، والمر..إلخ. وهي السبع المثاني " فواتح السور: قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)/الحجر، وهي اختصارات مماثلة في الكتاب المقدس السابق وتعادل ترجمتها باللغة السريانية البسملة في اللغة العربية، لأن القرآن نزل من عند الله كامتداد للوحي السماوي يجب الكتب المقدسة الأخرى التي أشار إليها مثل كتاب عيسى وموسى، وغير ذلك من الألفاظ والكلمات الأعجمية والسريانية الأخرى وأسماء الأنبياء والرسل الذين بعثهم إلى أقوامهم، وهذه وردت في القرآن دون أن يفهمها العرب.. وكل ذلك جملة يمثل "الكتاب" الذي نزل مكتوبا ومرسوما بالصيغة الخطية.

فالقرآن بذلك يكون قد نزل مرتين؛ المرة الأولى مجمعا مكتوبا مطويا في صحف، وفي المرة الثانية نزل منجما متفرقا بالصيغة الصوتية فقط بمناسبة الأحداث والمواقف، ليكتمل بذلك القرآن (جمعه وقرآنه: الصيغة المكتوبة كاملة والصيغة الصوتية المقروءة). وهكذا نقتنع أن النبي محمد عليه السلام قد أتم رسالته على الوجه الأكمل لا الناقص، فقد ترك النبي لهم النسخة الأصلية للقرآن وقد نسخها الصحابة في عدد من النسخ هي التي وصلتنا ، أما النسخة الأصلية التي دونها النبي بنفسه فربما فقدت كغيرها من الكتب المقدسة أو سرقها منهم اليهود الذين كانوا يكنون عداءً شديدا للإسلام، واستعاض عنها الصحابة بالنسخ التي نسخوها منها، لكنهم أبوا أن يفصحوا عن ذلك لأنه يعد منقصة للقومية العربية وأيكونة الصحابة، فحاولوا أن يجعلوا من المنقصة عملاً بطوليا وإنجازا عظيما هي جمع القرآن من قلوب الرجال المجاهدين.. وهذه من طبيعة العرب وبراعتهم الذهنية وقدرتهم على المناورة والدهاء بما يجعل من العيب والنقيصة مصدرا للفخر.. وما زالوا إلى يومنا هذا لا ينافسهم شعبٌ من الشعوب في براعتهم هذه!

غير أن هناك إشكاليات أخرى واقعية تدور حول الطريقة التي قيل أن القرآن تم تدوينه بها، فمن المعروف في هذا العصر برغم أن العرب كانوا متأخرين حضاريا جدا عن غيرهم من الشعوب، لكنهم كانوا يعرفون صناعة التدوين من حيث وجودها، فكانوا يهتمون بالأشعار والمقطوعات النثرية والخطب والأنساب العربية، وكانوا يدونون الشعر على أستار الكعبة، وفي رقع من الجلد الممهد والقماش المعد وغير ذلك، فلماذا وردت الروايات بأن القرآن تم جمعه متفرقا من صدور الصحابة وتم تدوينه على رقاع الجلد وقحف النخيل وأكتاف الحيوانات والعظام والأحجار؟ فكلتا الظاهرتين هما مجرد عملية تفتيت متعمد للقرآن وإضعاف لموثوقيته من حيث المصدر ومن حيث التدوين؛ وفي الغالب فإن عمليات التفتيت والإضعاف هذه كانت تتم من العرب المناهضين للإسلام وليس المسلمين والصحابة، وإنما المناهضين له سواء كانوا منافقين أو يهود؛ ذلك لسببين ظهرا في عملية التفتيت المتعمد التي وردت بها المرويات، حيث قيل أنه تم تدوين القرآن على قحف النخيل وألواح حجرية وعظمية وغير ذلك بما يعني أنه مفتت وليس هناك كيان منظم اسمه مصحف أو كتاب مقدس، برغم أنهم كانت لديهم كتب كثيرة وكان ورقة بن نوفل مثقفا ولديه مكتبة وكانوا يعرفون كتابة الرسائل والشعر على الورق والجلد والقماش بما يمكّن من طيه وحفظه في صورة " كتاب " فلماذا وردت راويات تهدر وتفتت كيان القرآن هكذا ما بين قحاف وعظام وأحجار بما يستحيل معه اعتبار ذلك كتاب؟ ولماذا

اعتمدت الروايات "منظومة التدوين " في العصر الحجري بينما القرآن نزل فيما بعد العصر الحجري، والعرب كانوا يعرفون صناعة التدوين الحديث؟ ألا يبدو ذلك متعمدا ومجافيا للواقع؟ ..

وهي ذات الملاحظة للتفتيت نجدها في طريقة جمع القرآن كما قيل من صدور الرجال وحفظة القرآن الذين تم استدعاءهم من جيوش القتال حتى لا يموتوا ويموت معهم القرآن ! بما يوحي مباشرة أن صدور الرجال كانت هي " الصحف المطهرة" ! وبما يوحي مباشرة أن " هذا الكتاب" و"هذا كتابنا" و"ذلك الكتاب" ما كان إلا فتات مفتت في صدور الرجال المقاتلين!، وأن القرآن ما كان إلا فتات سور وآيات وأرباع متناثرة على شفاه الرجال تم التقاطها في الوقت الضائع وقبل فوات الأوان (وهذا ما يفتح ثغرة مباشرة للطعن في القرآن ومدى صحته وموثوقيته) بالاعتماد على شهادة الشهود وهي أضعف أدلة الإثبات ولا يمكن اعتمادها إلا إذا عجزت القرائن والبراهين، في حين أن الواقع والمنطق يقول بغير ذلك لأن القرآن نفسه يحمل رسالة ومأمورية تدوينه ضمن آياته، فلا يمكن القول أن الرسول رحل وتركه مفتتا في صدور الرجال وتم التقاطه مفتتا على الأحجار والقحاف ورقع الجلد وغير ذلك من المهاترات التي حملتها مرويات العرب أنفسهم.

بالإضافة إلى محاولات أخرى للترويج بأن النبي محمد كان أميا لا يجيد القراءة ولا الكتابة، مع أن الشواهد التاريخية تثبت عكس ما رمت إليه هذه المرويات في محاولة لإثبات أنه تلقى الوحي من الله مع أن إثبات أن القرآن من عند الله ليس بحاجة إلى إثبات جهل الرسول وعدم درايته بمبادئ القراءة والكتابة، لأن من يقرأ ويكتب ليس من شأنه تأليف آية واحدة من القرآن، فالنبي محمد لم يكن أميا، بل كان يجيد القراءة والكتابة ولفظ الأمي في القرآن كانت تطلق على غير اليهود ممن ليسو لهم كتاب وكان العرب كلهم أميون ..حتى بعث الله في الأميين رسولا منهم يعلمهم . وكان محمد يتاجر لخديجة وإن كان لا يجيد القراءة والكتابة والحساب ما لقبوه بالصادق الأمين وهو الذي كان يراجع ما ينقشه كتبة الوحي ويصحح لهم.

غير أن دعاوى الترويج هذه بأنه كان لا يقرأ ولا يكتب تطعن في القرآن نفسه الذي جاء بصيغة القراءة والكتاب، وما كان الله ليحمل رجلا لا يقرأ مهمة مقروءة مكتوبة بأي حال، بل إن هذه الادعاءات معناها أن التشكيل اللفظي والكتابة الخطية للقرآن ليست وحيا طالما لم يفهمها النبي! فذلك كل محاولة لتدعيم روايات أن عملية تدوين القرآن وتحويله إلى الصيغة الخطية المكتوبة

ليست وحيا سماويا ولا سنة نبوية وإنما من مجهودات القومية العربية ! برغم أنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لنا أسباب الاختلافات التي وردت بين كلمات متماثلة نطقا صوتيا ومختلفة رسما خطيا، فهل يكون رسم القرآن خطيا من إبداعات ونتاج القومية العربية؟ إن ذلك محض عملية تعريب للمنهج الإسلامي برمته وصبغه بصبغة القومية العربية كي تكون هي سيدة القوميات فيما بعد.. فهذه عادة العرب حتى يومنا هذا أن ينسبون لأنفسهم ما ليس من جهدهم ومحاولة احتكار المعرفة والتعالي على الشعوب.. فلا ينبغي بأي حال أن نأخذ من العرب كل ما قالوه بحسن نية وإلا وقعنا فريسة سهلة وساذجة لهذه العقلية العربية البرية.

أما وأن القومية العربية قد اعتادت وضع بصمتها في كل شيء، فقد حاولت المرويات نفي الحفظ الإلهي والحفظ النبوي عن القرآن ونسب عملية الحفظ للعرب باعتبارهم شركاء في النبوة كي تكون لهم حسنة ومنة وفضل على الشعوب التي أرادوا حكمها عنوة وتحصيل جزية وخراج وإتاوات منهم وسبي نسائهم وأطفالهم وبيعهم في أسواق النخاسة. وكأنهم يأخذون مقابل حفظهم لكتاب الله من هذه الشعوب، وهذه طبيعة القومية العربية بوجه عام حتى يومنا هذا أن تخلق لنفسها مصدر رزق من لاشيء وبلا عمل حقيقي تؤده. فهم قد عدلوا عن الطريقة الموثوقة الرسمية بنص القرآن في التدوين بالكتابة الخطية، ونزلوا به درجة ليفسحوا مجالا لوضع بصمة القومية العربية التي ترفعهم درجات ونزلوا بالقرآن درجات إلى التداول الشفوي كي يجعلوا أنفسهم أوصياء على الناس باعتبارهم جزء مندمج في الدين وعلى من يصدق كلام الله أن يصدقهم لأنهم هم من حملوا الدين في قلوبهم. فقد نزلوا بالقرآن إلى مرتبة تداول الثقافة شفويا لأن ذلك هو صنعتهم الأساس في تداول معرفتهم شفويا وهو ما يمثل القومية العربية لأنهم ليسو من أمم الحضارات والكتابة وصناعة التدوين وإن كانوا يعرفون التدوين فعلا، وما كان الله ليتبع نهج العرب في تداول المعرفة والثقافة وهم أجهل الأمم في توثيق العلوم، فلا يغرنا احترامنا للصحابة أن نعترف بأنهم أضعف الشعوب علما وحضارة، وأن العقلية العربية بوجه عام هي عقلية أدبية وليست علمية، وأن طبيعة المجتمع العربي تقوم على العنصرية والتعالي والعصبية غير أنه مجتمع حربي بري وليس مدني، ومجتمع لديه العديد من الإشكاليات العقائدية التي ناقشها الله في حوارات قرآنية متكررة مع نبيه في القرآن، حتى أنهم افتتنوا وقتلوا بعضهم بعضا في نهاية المطاف بعشرات الألوف.

والخلاصة أن القرآن نزل مدونا كتابة وخطيا أيا كانت خامات الكتابة ومادتها أو هيئتها، فما يخصنا هو الرسم الخطي للحروف والكلمات والآيات، هذا التشكيل هو جزء من الوحي السماوي وليس نتاج العقلية والقومية العربية بأي حال، وطالما كان جزءا من الوحي السماوي فهو بذلك يحمل إلزامية للنبي بتدوين القرآن وليس تركه في الصيغة الصوتية وحدها، وقد انتقل القرآن مدونا بالتواتر عبر العصور ولم تتمكن القومية العربية من العبث به لأنهم وجدوا بغيتهم في تحريف التفسير ونسخ الآيات ببعضها ونسخ الآيات بالمرويات بما يحقق كل تطلعاتهم، غير أن الله توعد البشرية بحفظ القرآن.. وبالمناسبة؛ فإن تعهد الله بحفظ القرآن يعني حتما حفظه في صورته الخطية الكتابية التي تضمن موثوقية للشعوب الأخرى، وليس مجرد حفظ صوتي في صدور العرب، لأن صدور العرب مهما كانت حافظة فهي مليئة بأمور أخرى كانت سببا في اختصاصهم بالقرآن بلسان عربي مبين. غير أن حفظ الصدور هش وضعيف من ناحية أخرى كونه عرضة للفقد نتيجة انشغال الصحابة ف الفتوحات وموتهم في القتال، وطريقة الحفظ الشفوي لا تضمن انتقال القرآن من جيل لآخر إلا إذا كان الجيل الأول على قيد الحياة شرط أن يكون متمتعا بالصحة الكاملة الضامنة لسلامة الحفظ، وحتى وإن كان الحفظ الكتابي بيد العرب أنفسهم، فالكتابة دليل وقرينة وتحمل فيها ذاتها ما لم يستطع العرب تغييره، وتمكن نقله من جيل لآخر بسهولة ودقة أكثر.. غير أننا لو عدنا لطبيعة العقل البشري من ناحية التحلل النفسي والفكري فلا يمكن، بل مستحيل أن يظل العقل ثابتا ساكنا، ومستحيل أن يظل الحفظ على حاله بل لا بد أن يتغير لأن طبيعة العقل البشري قائمة على التغير الموجي باستمرار وهي طبيعة العملية الفكرية، فما لم يحدث تغير موجي في العقل توقف الفكر تماما وأصبح مثل الكمبيوتر دون أي قدرة على التفكير، أي أن الله عندما خلق العقل البشري كان على يقين من طبيعته في تغير أحواله كي ينتج فكرا. وعلى كل حال، فالقرآن الذي بين أيدينا لم يستمد مصداقيته من مصداقية الصحابة أو الشاهدين الذين جاء بهما زيد ابن ثابت عليه، ولا حتى استمد مصداقيته من مصداقية الرسول من وإنما من إعجازه البلاغي وانتظامه في المعنى والفكر والسياق، فيظل قوامه حافظا لمصداقيته بعيدا عن أي تدخل بشري.

وهذا يختلف تماما عن المرويات التي هي بالفعل نتاج القومية والعقلية العربية، وقد بدأ البحث عنها ولملمتها من البيئة العربية بعد مائتي عام من رحيل النبي وقد اختلطت بالموروث الثقافي للعرب واندمجت في ثقافتهم، وحملت من قومية العرب أكثر مما حملت من لدين، وجسدت القومية العربية أكثر مما

مثلت الدين، أخذت غطاء الدين وجسد وجوهر القومية العربية، وخلال المرحلة التالية وهي مرحلة الفتوحات والصراعات السياسية حول السلطة كان لها الأثر الأكبر في تشكيل العقلية الفقهية وعقلية التفسير على وجه الخصوص بما يخدم العقلية العربية وسياساتها في هذه العصور، وليس ذلك تواطؤا من الفقهاء والعلماء مع العرب وإنما نتيجة خضوعهم لمؤثرات نفسية أثرت على العقل الجمعي للشعوب التي وقعت وانكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية بما أصابها بمتلازمة ستوكهولم العربية. وكل ما يمثل القومية العربية في الإسلام هو نتاج تفاعل المعيار الشخصي، سواء كان هذا الاعتبار الشخصي لأفراد من الصحابة أو فئة من الصحابة العرب أو كان القومية العربية برمتها فهي موطئ المعيار الشخصي بالنسبة للشعوب الأخرى، ولهذا وينبغي استبعاد كل ما يمت للقومية العربية بصلة من القرآن حتى يعود إلى الحياة نظيفا كزهرة اللوتس.

يقول الأستاذ سامر الإسلامبولي: جمعتنا مناسبة مع بعض الأخوة، وأخذتنا الأحاديث إلى مختلف المواضيع، حتى وصلنا إلى موضوع ديني، فاستدل أحد الحضور على رأيه بحديث من البخاري ومسلم، وكان هذا الموضوع؛ هو إمكانية وقوع السحر على النبي محمد.

فقلت له: إن هذا الرأي يُخالف القرآن ؟

فقال: المسألة ثابتة في البخاري ومسلم.

قلت: وهل يُمكن للحديث أن يُخالف القرآن ؟

قال: ومَن قال لك أنَّ الحديث يُخالف القرآن ؟ بل من الممكن أن يخصص الحديث القرآن، أو ينسخ بعضا من مفهوم الآية.

قلت: المحدثون يَعدُون ثبوت الحديث إنما هو على طريق الظن، والذوق، فكيف الظني ينسخ القطعي الذي هو القرآن!؟.

قال: الحديث لا يثبُت ظنا، وليس خاضعا لذوق المحدث، بل يخضع لعلم الجرح والتعديل، وهو علم له معايير وقواعد.

قلت: عجبا! منذ متى صارت معرفة سير الناس، وأحوالهم، علما له معايير وقواعد!؟.

قال: هذا شيء اختص الله به الأمة الإسلامية، وقد قال المحدثون: لولا الإسناد لهلك الدين، ولقال من شاء بما يشاء.

قلت: إنَّ العلم هو مجموعة قواعد وقوانين يتم البرهنة عليها من الواقع والفلسفة، فتصير معيارا، وميزانا، يستخدمها العلماء في بناء الحضارة على صعيد الآفاق والأنفس، فهل الإسناد هو علم بهذا المفهوم ؟

قال: نعم، إنه علم، وإلا، لماذا أمضى وأفنى المحدِّثون عمرهم في دراسة الحديث!؟

قلت: عجبا من استدلالك هذا! منذ متى كان الإدمان على شيء يُصيِّره علما!؟

قال :يا أخي! إنَّ الأمة تلقت أحاديث البخاري ومسلم بالقبول، وحصل على ذلك إجماع.

قلت: إنَّ هذه إشاعة انتشرت بين المسلمين، فالأمة لم تتقبل أحاديث البخاري ومسلم كلها، وقد قام فئة من المحدثين بنقدهما، مثل الدارقطني، وغيره. بل أزيدك علما ومعرفة! إنَّ البخاري نفسه رفض مجموعة من أحاديث مسلم، ومسلم رفض مجموعة من أحاديث البخاري.

قال: وكيف ذلك!؟

قلت: لقد وضع البخاري شروطا لصحة الحديث، منها، أن يُعاصر الراوي من يروي عنه، ويلتقي به، ولو مرة واحدة، مع التصريح بذلك. أما مُسلم فلم يشترط المقابلة واللقاء بين الرُواة، وإنما يكتفي بالمعاصرة مع عدم التصريح بانتفاء اللقاء بينهما، أي السكوت عن الأمر.. وهذا الاختلاف بين البخاري ومسلم، ترتب عليه في الواقع، رفض البخاري لمجموعة كبيرة من الأحاديث التي أخرجها مسلم، لعدم تحقق شرطه بها، وبالتالي تكون هذه الأحاديث التي انفرد مسلم بها، ضعيفة عند البخاري حسب شرطه. وبهذا العمل يكون البخاري هو أول من ضعَّف وردَّ أحاديث تلميذه مسلم!، فكيف تقول بأن الأمة تلقتهما بالقبول!؟ أما مسلم فقد جرح الراوي (عِكرمة مولى ابن عباس) وردَّ حديثه إتباعا لرأي المحدثين المختصين بالجرح والتعديل، ولكن البخاري ترجح عنده عدالة (عكرمة) فروى عنه أحاديث كثيرة؛ وهذا العمل من البخاري ترتب عليه أن يرفض مسلم كل أحاديث عكرمة، ويُضعِّفها، وبذلك يكون أول عالم يرفض ويطعن بمجموعة من أحاديث شيخه البخاري، ومن هذا الوجه ظهرت الأحاديث التي انفرد بها البخاري عن مسلم، ومسلم عن البخاري. والانفراد بالحديث لأحدهما، دليل على ضعف الحديث عند الآخر.

مع العلم، أنك لو حللت شَرطي البخاري ومسلم، لوجدت أنهما مُخالفان للمنطق، ولا وزن لهما البتة، لأن شرط البخاري، اللقاء مرة واحدة بين الرواة، لا يُعطي الثقة والمصداقية لأحاديث وأخبار الراوي كلها، لاحتمال وقوع الكذب، واستغلال اللقاء الوحيد، ووضع الأحاديث، أما شرط مسلم بالمعاصرة مع عدم التصريح بانتفاء اللقاء، فهو عجيب وغريب! منذ متى كان عدم التصريح بانتفاء حصول شيء،

دليل على حصوله!؟ فموضوع الجرح والتعديل، وتصحيح الحديث أو تضعيفه، يخضع لمزاج وذوق المحدث، ومستواه الثقافي، وولائه السياسي، ومن هذا الوجه نلاحظ أنَ الإمام فلانا ثقة، إلا إذا روى أحاديث متعلقة بآل البيت، مثل الحاكم الذي استدرك على البخاري في كتابه المشهور (المستدرك) فإنه يتساهل بروايتها، فيرفضها الآخرون، بحجة تشيّعه.!

قال: إنَ كلامك هذا اتهام لأئمة الحديث بالكذب ووضع الحديث النبوي، وأنهم يُصحّحون الحديث حسب مزاجهم وذوقهم!؟

قلت: إنَ هذا ليس كلامي، اسمع كلام أحد أئمة الحديث الكبار، وهو العلامة (التهانوي) فقد ذكر في كتابه (قواعد في علم الحديث) تحقيق (أبو غدة) ما يلي :((لاشكَ أنَ أصول التصحيح والتضعيف ظنية، مدارها على ذوق المحدث والمجتهد غالبا، فلا لوم على مُحدث ومجتهد يخالف فيها غيره من المحدثين والمجتهدين، ألا ترى مسلما قد خالف البخاري في بعض الأصول...))

قال: ولكن يا أخي إنَ الرُواة الذين رووا الحديث هم ذاتهم رووا القرآن، فكيف ترفض روايتهم للحديث، وتقبل روايتهم للقرآن!؟

قلت: يا أخي إنَ أمرك عجيب وغريب، من قال لك إنَ القرآن اعتمد على رُواة مُعيَّنين ومُحددين!؟ أخبرني بأسماء رواة القرآن ؟ وأين السند له ؟ ألم يكن للنبي كتبة يدونون الوحي له؟ إنَ القرآن تم نقله عن طريق التواتر المدون، الذي هو ظاهرة ثقافية، وذاكرة اجتماعية، تعالت على السند، وقد شارك فيها الكفار من أمثال أبي جهل وأبي لهب!، وذلك عندما سكتوا والتزموا جانب الصمت، ولم ينقضوا النص القرآني، أو يطعنوا فيه، مع حاجتهم لنقضه، لكسب الصراع، وإثارة الشبهات، لصد الناس عن الإيمان به، ومع ذلك لم يَرِد في التاريخ أنهم طعنوا في النص القرآني، بل وصلتنا شهادات أدلوا بها فيما بينهم على مصداقية وصواب النص القرآني ونسبته إلى الله.

لذا؛ فإن عرض هذه الإشكالية وتكرارها، لا مُبرر له، فوصول القرآن إلينا لا ندين به للرواة، ولا فضل لهم أبدا، ولا يصح قياسه على مادة الحديث النبوي، لأن القرآن وصلنا بجهد النبي وحرصه على التدوين أوّل بأوّل، وهذا واضح وصريح في الواقع، فمادة النص القرآني مختلفة تماما عن مادة الحديث النبوي.

قال: هل أفهم من كلامك أن ما يُسمى علم الإسناد والحديث، ليس علما، ولا قيمة له!؟

قلت: نعم، إنه خدعة، ووَهم!!، شغلوا به المسلمين زمنا طويلا، لصدهم عن التفاعل مع القرآن.!

قال: هل أفهم من كلامك أنّ كل الأحاديث النبوية كذب

قلت: لا، لم أقل ذلك، وإنما قلت: الوضع على لسان النبي قد فشا بعد وفاته، نتيجة الصراع السياسي، والوعظ والإرشاد، واختراق الثقافة الإسلامية من قِبَل أهل الكتاب، والثقافات الوافدة للإسلام، كل ذلك، وغيره، ساهم في اختراع وافتراء الحديث النبوي.

قال: وما الحل إذا لمعرفة الأحاديث النبوية، أليس الإسناد هو الأساس!؟

قلت: أساس معرفة صواب الحديث النبوي هو القرآن والعلم أولا، (المعيار الموضوعي) فإن وافق متن الحديث القرآن، وانسجم معه بين يديه لا يتجاوزه، يتم النظر في سنده، فإن صح على غلبة الظن ننسبه إلى النبي، وإن لم يصح سنده، ننسبه إلى الحكماء والعلماء، ويكون قولا أو حكمة صوابا، وهذا الحديث الصحيح متنا وسندا، ما ينبغي أن يكون مصدرا تشريعيا، وإنما هو تابع للقرآن، مع استغناء القرآن عنه، ولا مانع من روايته بعد الاستدلال بالقرآن على المسألة المعنية بالدراسة، والتنويه على أنه ليس برهانا أو مصدرا شرعيا. أي أن يكون الاستدلال فقط بكتاب الله، وإن أمكن ذكر أمثلة تطبيقية من السنة، لا أن تكون الأمثلة التطبيقية هي التشريع بذاتها.

اقرأ قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} يونس١٥

واقرأ حديث النبي الذي يقول:

١ـ (الحلال ما أحلَّ الله في كتابه، والحرام ما حرَّم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه). ابن ماجه ٣٣٥٨، الدار قطني والحاكم والبيهقي و البزار و الطبراني.

٢ـ (أطيعوني مادمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلُّوا حلاله وحرِّموا حرامه) مسند أحمد ٦٣٨١، وصححه الألباني في الصحيحة تحت رقم ١٤٧٢.

٣ـ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنِى إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ كُنَّا قُعُودا نَكْتُبُ مَا نَسْمَعُ مِنَ النَّبِىِّ ـعليه السلامـ فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ « مَا هَذَا تَكْتُبُونَ ». فَقُلْنَا مَا نَسْمَعُ مِنْكَ . فَقَالَ « أَكِتَابٌ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ ». فَقُلْنَا مَا نَسْمَعُ. فَقَالَ « اكْتُبُوا كِتَابَ اللَّهِ امْحِضُوا كِتَابَ اللَّهِ وَأَخْلِصُوهُ أَكِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِ اللَّهِ امْحِضُوا كِتَابَ اللَّهِ أَوْ خَلِّصُوهُ ». قَالَ

فجمعنا ما كتبْنا في صَعيدٍ واحِدٍ ثمَّ أحرقْناه بالنَّارِ قلنا أي رَسُولَ اللهِ أنتحدَّث عنْكَ قال « نعَم تحدَّثوا عنِّى ولا حرَج ومَنْ كذَب علىَّ مُتعمِّدا فليَتبوَّأ مَقعدَه مِن النَّارِ.« الإمام أحمد

٤- عن أبي موسى قال: قال رسول الله عليه السلام:" إن بني إسرائيل كتبوا كتابا واتبعوه وتركوا التوراة."أبو إِسْمَاعِيلُ عَنْ صَالِحِ بْنِ عُمَرَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ عَنْ أبي هُرَيْرَة قَالَ كَانَ إِذَا حدَّث عَن رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام مَنْ كَذَب عليَّ مُتعمِّدًا فليَتبوَّأ مقعدَه مِنْ النَّارِ فكَانَ ابنُ عبَّاسٍ إذَا حدَّث قالَ إذَا سمِعتُمُونِي أحدِّث عَن رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام فلَمْ تَجِدُوه فِي كِتَابِ اللهِ أوْ حسَنًا عِنْدَ النَّاسِ فاعلَمُوا أني قدْ كَذَبْت عليْهِ (سنن الدارمي: ٥٩٣

٥- حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه ، أنبأ العباس بن الفضل الأسفاطي ، ثنا أبو الوليد ، ثنا همام ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ، أن النبي عليه السلام ، قال : « لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن من كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه » . « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه.

٦- قال رسول الله عليه السلام اعملوا بالقرآن أحلوا حلاله وحرموا حرامه واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولى العلم من بعدى كما يخبروكم وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتى النبيون من ربهم وليسعكم القرآن وما فيه من البيان (السنن الكبرى للبيهقي)

قلت: هل أزيدك من الأحاديث.

قال:لا؛ لقد اكتفيت، إنك قلبت مفاهيمي كلها، وأنا الآن بحاجة إلى فرمتة وتحديث لكل أنظمتي المعرفية".

بل إن الأمر الغريب أنهم يضعفون حديثا هو من أعمدة الإسلام ، وهو حديث: إذا رُوِيَ عني حَدِيث فاعرضوه على كتاب الله ، فإن وافق فاقبلوه، وإن خالف فردُّوه. «.. الغريب أنهم قالوا الحديث ضعيف بل موضوع ولا يصلح الاحتجاج به، مع أنه ليس بحاجة لأن يكون حديثا أصلا كي يكون صحيحا؛ فهو قاعدة أصلية ولا يمكن منطقيا العمل بالإسلام بدونها.

إشكالية المعيار الشخصي

إذا نظرنا إلى العلوم الطبيعية سنجدها تتخذ المعيار الموضوعي وحده دون اعتداد بثقة في أشخاص نهائيا، فالعلوم الطبيعية يتم تدريسها في كافة ربوع العالم وبمختلف اللغات واللهجات والثقافات والأقاليم بذات مضمونها لأنها تجردت تماما من الاعتبارات الشخصية، فحملت أعمدة ثباتها في ذاتها، أما العلوم الإنسانية والدينية فقد تعرضت للكثير من التشويه والتحريف بسبب تدخل عنصر الاعتبار الشخصي وحلوله محل الاعتبار الموضوعي حتى أن الناس قد عبدت زارادشت الداعي إلى عبادة الله خالق الكون وحده، وعبدوا بوذا وقدسوا الحكماء في مختلف الثقافات، ولذلك حذرنا الله جل وعلا من الشرك به.. ومع ذلك انشق الشيعة الإمامية عن عصب الدين لاعتبارات شخصية قوامها الاثنا عشر ابنا من عترة على أبي طالب.. وهكذا عاشت الكثير من المعتقدات في عقول البسطاء دون قواعد علمية موضوعية بزعم أن الدين للروح وأن العلم للعقل، مع أنه لا يمكن الفصل بينهما فعليا، فكلاهما العلم والدين والعقل والروح مكملين لذات الكيان الإنساني. وهذه كارثة كبرى جعلتهم أكثر الخلق مخالفة لقواعد وأصول البحث العلمي في التاريخ مما خرّب العلوم الشرعية وأخرجها من دائرة الصلاحية، ذلك أنهم جعلوا من ثقتهم بالعلماء معيارا لصحة العلم، لدرجة أنهم حينما يتناولون موضوعا نجدهم يدورون حول صاحب الموضوع وسيرته وعاداته وخصاله أكثر من دراستهم للموضوع ذاته، ولهذا حملت الكتب أسماء مؤلفيها لا عناوين لموضوعاتها.

ثم نجد في المذاهب المختلفة كارثة أخرى، وهي أن كل إمام له مذهب يتبعه تلاميذه تكريما لشيخ المذهب واحتفاءً به، وحين شرع الشيخ في وضع مذهبه لم يكن لديه كل المراجع العلمية والأحاديث، ولم يكن لديه كل مصادر التراث والفقه الموجود في العالم الإسلامي، ولم يكن لديه كل تفاسير المفسرين، فاجتهد بقدر ما توفر له من أحاديث ومرويات. ولذلك نجد أن البخاري أورد كمًا من الأحاديث لم يسمع عنه الإمام مالك ولم يعثر عليه بأي حال، فلم تتوفر له كافة المصادر، ولا الإمام الشافعي، وهكذا الإمام الشافعي أفتى بقدر جهده وبقدر ما توفر له من مصادر رغم فقرها مقارنة بالمجموع، وكذا الإمام أبو حنيفة اجتهد بقدر ما توفر له من مصادر وأحاديث لم تتجاوز المائة، ولذلك نجد في المناهج المختلفة للمذاهب أحاديث ليست موجودة في كل المذاهب، وهذا ما يعني أنها لو وصلت أو أتيحت لكل الأمة على السواء لتساوت آراؤهم في الغالب وانحصرت الاختلافات في أركان ضيقة،

لكن اختلاف المصادر هو ما جعل بينها تباينا فجا، ويبقى القاسم الوحيد المشترك بين جميع الأئمة والفقهاء هو النص القرآني

لكن العملية الفقهية في كافة الأحيان تقوم في حالة غياب النص أصلا، ففي حال وجود النص الصريح فلا اجتهاد ولا فقه، لكن الاجتهاد فقط في حال غياب النص الصريح المباشر، وهذا ما يعني أن الفقه برمته قائم على الاجتهاد لغياب النص الصريح المباشر (سواء في القرآن أو السنة)، ومع ذلك تمسك تلاميذ كل شيخ بمذهبه رغم ثبوت عجزه ورفضوا دمج الموضوعات في بعضها، أو عجزوا عن دمجها ، وكان ينبغي على التلامذة عبر العصور بعد اطلاعهم على المناهج الأخرى وحصولهم على كافة المصادر الصحيحة أن تكون لهم رؤية فقهية متحدة بمجرد اجتماع كافة مصادر التراث في أيديهم ولم يكن لديهم أي مبرر للاستمرار في مذاهبهم الناقصة، لكن ذلك نابع فقط من الاتجاه العام لدى أجيال الفقهاء وميولهم إلى تشخيص العلوم بأسماء المشايخ والأئمة تكريما لهم، حتى ولو كان ذلك على حساب الدين، فهم تنازلوا ضمنيا عن الحق احتراما لأسماء مشايخهم السابقين، وسعوا جاهدين إلى تحويل كتبهم إلى ماركاتٍ تجارية تتنافس الشهرة ليتزايد عليها طلاب العلم من أرجاء الأرض ويصبح لها ظهيرا شعبيا.

إن الإسلام كمنهج عبادة وحياة أقوي وأسمي من أن تكون معايير صحته هي بمقدار الثقة في الأشخاص الذين حملوه إلينا، فالمادة العلمية قائمة بذاتها ودعائم إثباتها وصحتها نابعة من قوامها ومضمونها لا من الثقة في رواتها، وبالتالي يجب أن يكون المعيار الأول لتحقيق الحديث هو بمدي موافقته للنص القرآني والمبادئ العامة التي تبناها القرآن، لا أن يكون المعيار هو معيار الثقة الشخصية حتى وإن تحققت كاملة، وهذا يعني ضرورة التخلص من المعيار الشخصي وتفعيل المعيار الموضوعي.

وهناك إشكاليات كثيرة يثيرها المعيار الشخصي في تحقيق النصوص، نتناول بعضها فيما يلي؛

١- التبعية

الناس يعشقون الانسياق وراء كهنوت يثقون في أفكاره وأقواله ومسلماته، لا يجهدون عقولهم في إعادة هضم هذه المسلمات، وهذا يريحهم من التفكير والتعليم، ويكتفون باتباع غيرهم. وإذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا لما رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، يقولون ربنا إن اتبعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل.. ربنا آتهم ضعفين من العذاب، فلا ينفعهم دعاءهم ولا نعيهم على من سبقوهم لأن العقل

هو محل المسؤولية. فالمعيار الشخصي للعلم يركن العقل والتدبر جانبا ويقوم على التبعية، فهو لا يسمح بأي مجال للعقل في التفكير، وإنما فقط يسمح للعواطف في التبعية العمياء اعتمادا على الثقة في الأولين والسلف. تلك الحماقة البشرية علي مر التاريخ ما زلت مستمرة إلي الآن، ومن المثير للعجب أن تلك الحماقة منتشرة بقوة في الأمة الإسلامية العربية والتي كتابها المقدس (القرآن) ممتلئ من أوله لآخره عن قصص الأمم التي أهلكها الله، منها أمم دمرت تماما وتم القضاء عليها بأكملها بسبب فساد أفكار شعبها التي كانت تضر بكيان الإنسان وتجعله خاضع ذليل عبد للمجتمع وأفكار الأقدمين فيه.

ومن حيث تحديد المسؤولية عن الصواب والخطأ من الأفعال، فمجرد تبعيتنا للسلف لن تخلي مسؤوليتنا عند الحساب، فهم إذا كانوا قد أخطأوا فيتحملون وزرهم عن أنفسهم فقط ولن يتحملون أوزار من أتوا بعدهم لأن خطأهم لم يكن عمديا، إنما نحن اتبعناهم في خطئهم وكانت أمامنا فرصة للتمييز تخلينا عنها احتراما لهم واختزلنا عقولنا تكريما وثقة فيهم، فنحن مسئولون عن خطئنا ولو لم يكن عمديا منا لأن الله منحنا العقل وأمرنا بالتعقل والتدبر والتفكير في كل ما نفعل وفي كل ما نقرأ ولم يأمرنا باتباع السلف ليتحملوا المسؤولية عنا أمام الله. فمجرد فكرة التبعية فهي ناشئة من باب التخلي عن المسؤولية وإلقاء عبء التحري على من تحرى قبلنا، وهذا لن يعصمنا من العقاب والحساب أمام الله. وبوجهٍ عام، فإن اتباع السلف ليس مُخلصا من المسؤولية أمام الله، فيقول تعالى إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) / البقرة

غير أن المعيار الشخصي للمعرفة يعتمد على عنصر الثقة الشخصية في شخص السلف الراوي دون تقديم دليل وحجة على صلاحية النص المروي، فالقرآن لا يعتمد بأي حال على العنصر الشخصي في الانتقال من جيل إلى جيل؛ لأن النبي عليه السلام تركه متكوبا وكان يستعين بكَتَبة الوحي لتدوينه أوّل بأوّل، وبذلك يكون قد اعتمد في النقل على دليل مادي يقبله العقل، أما رواية الحديث فقد اعتمدت على عنصر الثقة الشخصية في حفظ وتخريج نص الحديث وصياغته ومعناه ومضمونه وألفاظه كاملا من خلال النقل بالحكاية والرواية الشفوية من جيل لجيل عبر أكثر من مائتي عام.

إن القرآن العظيم هو أول نص سماوي يرسي قواعد تكفي حياة البشر على مر العصور، وهو أول من شرع حقوق الإنسان وضمن حرياته. فالميثاق العالمي لحقوق الإنسان ما هو إلا جهد بشري ونتاج خبرة بشرية، لكن القرآن وهو نص إلهي يعلو ولا يعلى عليه. فلا مقارنة على الإطلاق. فالإيمان بالله وحده الذي يقوم على التسليم، أما ما سوى الإيمان من الأحكام الفقهية وغيرها تخضع لمعيارية وحجية الدليل، ولا علاقة لشخص بهذا الدليل. ولا يمكن التسليم المطلق بصحة حديث ما اعتمادا على وصف راويه بأنه من الرواة العدول أو الصادقين، فمهما كان الراوي صادقا، فكيف يكون الحل إذا تناقض النص المروي مع آيات القرآن؟ بالطبع سيخلق ذلك كوارث أخرى على غرار نسخ الحديث للقرآن وترهات أخرى لا معنى لها إلا أنها ترفع نص بشري تاريخي فوق كتاب الله. !

٢- المذهبية

لو عدنا للبداية سنجد أن الأحداث والوقائع التاريخية هي سبب تشرذم الدين وتعدد المذاهب، فطبيعة العرب أن السياسة هي صانعة الدين، برغم أنه على مدار التاريخ نجد السياسة هي صانعة القانون إلا في دولة العرب لا نجد قانون ونجد سياسة تصنع الدين مباشرة، فلم تنشأ هذه المذاهب كأثر للتنوع الفكري أبدا، فبداية الانقسام الديني كانت سياسية ومرتبطة بوقائع تاريخية سياسية شخصية وليست أسس ومعايير فكرية وفقهية بأي حال، ولو عدنا لعصر النبي وحذفنا الحقبة التاريخية التالية لوفاته لعاد الإسلام منهجا واحدا متحدا، ساد في عصر النبي عليه السلام، ثم بمجرد رحيله انقسم المسلمون سياسيا إلى فرق، مجموعة منها تؤيد أبي بكر الصديق رئيسا وحاكما وأميرا للقوم باعتبار خلفيته الدينية المضيئة إلى جوار الرسول، ومجموعة أخرى تتمسك بأحقية علي أبي طالب في الحكم باعتبار صلة الرحم بينه وبين الرسول، وأنه الأقرب نسبا للرسول، مع أن ذلك ليس له علاقة برشادة الحاكم، لكنهم تمسكوا وأصر كل فريق على وجهته، وهنا بدأ الانقسام السياسي الأول في تاريخ الإسلام يتحول إلى انقسام ديني بغيض نتج عنه طائفة السنة وطائفة الشيعة.. ثم تمسك السنة بشدة بجانب أبي بكر هو ما يخلق العداء لدي شيعة علي أبي طالب، لأن السنة بطبيعتهم النفسية لديهم غريزة أن يستسلموا لمن يغلب وينضموا إلى لوائه حتى ولو كان ظالما، ولا نقصد هنا شخص أبي بكر أو علي بالطبع ولكن غريزة المازوخية وهي حالة نفسية تتجسد في الرغبة في التضامن مع الغالب والمنتصر المسيطر وليس المواجهة أو محاولة رفض الظلم أو حتى التعبير عنه.

في الواقع اتخذ الشيعة من هذا الحديث محورا للدين وجعلوا من آل البيت أصناما يقدسونهم مع الرسول وبعده باعتبارهم امتداد جسماني وروحاني له، ثم تصاعد نجمهم وقداستهم حتى جعل الشيعة علي أبي طالب يكاد يتفوق في المنزلة على رسول الله، مع أن منزلة علي كانت محض علاقة نسب بينه وبين الرسول.! أما المسلمين السنة فقد بالغوا في كل المرويات واعتبروها أحاديث صحيحة تعادل في قدسيتها كتاب الله وتقترن به، ومن هنا بدؤوا ينقسمون إلى مذاهب وفرق، كل مذهب يتميز بمجموعة من الأحاديث والمرويات ليست موجودة لدى أتباع المذهب الآخر، ومن هنا اختلفت الأحكام الفقهية بناء على ما توفر لكل مذهب من الأحاديث. هذه المذاهب، قامت بينهم حروب مستعرة، حروب ليست بالأقلام وإنما بالسيوف.. ولذلك سقط منهم كثير من الضحايا، نتيجة هذه النزاعات والصراعات الحزبية، ولذلك كان من الطبيعي أن يسعى كل فريق لتكملة آراء وأحكام مذهبه لكسب مزيد من الأتباع والمريدين أو ما يعتبر ظهيرا شعبيا من المؤيدين لكل فريق.

ثم عندما ننتقل إلى داخل المراجع سنجد تقديسا غير طبيعي للفقهاء والمشايخ يفوق احترامنا للعلم ذاته؛ فهم لا يضعون أسماء العلماء والمراجع في الهوامش، بل يسطرونها في متون الكتب تبركا بها واستئناسا بمصداقية أشخاصها، إذ عندما نتناول موضوعا ما وليكن موضوع الشفعة في الفقه الإسلامي، فأول ما يفتتح به الموضوع قول الشافعي في تعريف الشفعة، ثم قول أبو حنيفة في تعريف الشفعة ثم قول المالكية في تعريف الشفعة ثم قول الحنابلة في تعريف الشفعة ثم قول الإمامية في تعريف الشفعة، ثم قول الظاهرية في تعريف الشفعة.. هكذا تذكر أسماء العلماء والمذاهب في مواقع العناوين الرئيسية والفرعية وقبل أن تدخل في الموضوع ذاته، ولا تقوم التقسيمات على أسس ومعايير علمية موضوعية ولكن على أسس المذهب والجماعة، حتى وإن كانت حجتهم هي الحفاظ على الأمانة العلمية، فكان عليهم أن يذكروا أسماء المصادر والمراجع والعلماء في هوامش الكتب وكيفما شاءوا حتى يفسحوا المجال للحوار الفكري في صميم الموضوع، لكنهم تغافلوا أو غفلوا عن الموضوع وارتكنوا فقط للثقات من الشخصيات تقديرا لضعف عقليتهم عن الاستيعاب والفهم والتحليل، واحتراما وتبجيلا للقدامى من العلماء حتى ولو على حساب المبادئ الأصلية في الدين!

والمذهبية في حد ذاتها هي معيار شخصي وليس موضوعي لأنها تقوم على الثقة في شخص أو عالم أو فقيه وليس الاقتناع بدليل دون غيره أو مدرسة فقهية دون غيرها، ولا تقوم على حجية الأدلة وسلطانها على العقل، فلو نظرنا إلى العلوم الطبيعية سنجد الموضوعية واضحة حتى في حالة

الاختلاف، فمثلا في مجال علم النفس هناك مذهبان، الأول يرى أن علم النفس لابد يوما سيصبح علما حقيقيا تحكمه قواعد الفيزياء، ويقدم الأدلة على ذلك ويبحث عن أدلة جديدة كل يوم تؤيد وجهة نظره، بينما المذهب الثاني مقتنع بأن علم النفس سيظل هكذا علما هلاميا ولا يمكن أن تحكمه قواعد الفيزياء، لأن الإنسان ليس مادة فيزيائية وإنما أحاسيس ومشاعر وجدانية وظروف اجتماعية إذا حاولنا إخضاعها لحسابات الفيزياء المادية فإن الإنسان سيفقد قيمته الإنسانية..

ولو دققنا النظر في حجج ومبررات كلا المذهبين (برغم أننا على يقين مبدئي بأن أحدهما خطأ والآخر صواب) سنجد أنهما معا يعتمدان على حجج وأدلة موضوعية، ويجتهد كل فريق في جمع المزيد من الأدلة العلمية يثبت بها وجهة نظره.

بينما إذا نظرنا إلى العلوم الدينية سنجد غابة من المذاهب، وليس من بينها مذهب يبحث عن دليل يكون له سلطان على العقل، بل فقط تعتمد المذاهب على الالتفاف حول أشخاص وذم آخرين، فكل مذهب يتبنى وجهة نظر فقيه ويحاول قدر جهده التأكيد على أن شيخه صادق ومحسن ومحبب إلى الله ومن زمرة الأولياء، بينما الفريق الآخر يحاول قدر جهده التقزيم من ذات الشيخ وتلويث سمعته والتأكيد على كذبه وضلاله وأنه من أصحاب النار ومن اتبعه من بعده..! برغم أن العلوم الإنسانية هي أم العلوم، وهي أهم وأولى درجة من العلوم الطبيعية، ولها معاييرها الموضوعية، ولا يمكن أن تقوم على العنصر الشخصي أبدا. ذلك أننا لو عدنا إلى بداية صدر الإسلام، سنجد قريش قد طلبت من الرسول مرارا أن يأتيهم بمعجزة تجعلهم يصدقونه، ولكن الله كان يرفض في كل مرة، لأن اعتماد الإيمان على المعجزة هو إيمان بشخص صاحب المعجزة وتصديق أصم له، بينما الله أراد أن يكون الإسلام دين الحكمة والعقل وأن يعتمد على الدليل لا مجرد تقديس شخص، ولذلك نجد في كثير من آيات القرآن يضرب الله الأمثال للمؤمنين ولغير المؤمنين حتى يؤمنوا، ومعروف في علم النفس أن ضرب الأمثال هو الوسيلة المثلى للإقناع. فلو جعل الله دليل رسالته ونبوة محمد هي معجزة، لاعتمد إيمان الناس به على التسليم دون وعي، إنما أراد الله أن يكون إيمان الناس بخاتم الرسالات مبني على الاقتناع والفهم، ولذلك خاطبهم بالعقل وضرب لهم الأمثلة، وبذلك طالبهم بالتسليم برسالته. فليس من المنطق الحكم علي صحة النص من الثقة بالشخص الناقل له لأن ذلك يعتبر شرك بالله لا علم لنا به، ولكن موضوعية النص تكون دليلاً علي مصداقية الشخص، كما حدث مع الرسول فكان النص هو حجته ودليل

مصداقيته، ولم تكن مصداقية الرسول هي حجية القرآن، برغم أنه كان مشهورا عندهم بأنه الصادق الأمين.

كذب الصحابة على رسول الله

الإسلام عبارة عن كتاب (قرآن) مسطور في مصحف مغلف محفوظ ومعروف، ولم تنل منه يد العبث العربية، ليس باعترافهم ولكن بالنظر إلى إعجازية النص القرآني ذاته وموضوعيته، إذ لا نجد فيه اختلافا، وإن وجدنا شذوذا في معنى النص القرآني وخروجا عن المنطق الرباني والإنساني، فسريعا ما نكتشف أنه نتج عن انحراف في العقلية التي فسرت هذا النص لا أكثر.. لكن العرب بعد رحيل النبي عنهم ما لبثوا أن أهالوا التراب على هذا النص القرآني بطرق ملتوية ومتعددة، فالنص القرآني معقد جدا لأنه يحمل معجزة، وهذه المعجزة لغوية بحتة، وعلوم اللغة وفنونها في لسان وعقل العرب دون غيرهم، أي أنهم هم من يملكون مفاتيح هذه اللغة دون غيرهم من السريان والقبط والفرس والبابليين..إلخ. إضافة إلى أن اللغة العربية ليست لغة أداة تواصل مثل كل لغات العالم لكنها تحمل الكثير والكثير في طياتها من ملامح وإمكانات العقلية العربية الأدبية اللغوية البلاغية المجازية الكنائية.. فهي تحمل النفس العربي في التفكير، وأما العقول الأعجمية (ألفرس والروم والقبط..) فهم عقول مدنية علمية تفكر بطريقة مختلفة عن العرب، أي في النهاية امتلك مفاتيح النص القرآني العرب دون غيرهم، وهذا ما يعني أن الفقهاء والعلماء (وجميعهم من العجم ولا يوجد بينهم واحد من أصل عربي) سيكونون تبع للعقلية العربية في تفسير القرآن وتأويله، أي لا شخصية مستقلة لهم، إنما فقط تبعية للعقل العربي والفكر العربي وباللغة العربية والتراث العربي..إلخ. ومن هنا امتلك نواصي الدين العرب فقط بشكل غير مباشر لكنه مُحكم جدا كما لو كان مباشرا بالضبط، فهم في الواقع كما المدير الذي يملك الأمر والنهي، وهم المستشار والمشير والآمر والناصح..

ولما كانت العقلية العربية ذات طبيعة حربية همجية شرسة وبرية، فقد تغلبت على العقول وحجبتها عن التفكير باستقلالية وتغلبت على النص القرآني ذاته بتعمية الغير عن مضمونه باستخدام الغبار العربي والتراب الذي أهالوه على النص القرآني، هذا التراب هو صنعة المرويات التي تمكن العرب من خللها تغطية القرآن وتفعيل الأدوات الأخرى، فصارت هي الضابط للنص القرآني ذاته ! وتبعهم العلماء والفقهاء التبع لأن الناس على دين الملك.. فلو سرق الملك يقول الفقهاء أن السرقة حلال ومشروعة، ولو زنا الملك يقول الفقهاء أن الزنا شرعة ومنهج، ولو اغتصب وسلب ونهب الصحابة يقول الفقهاء أن ذلك سنة، وأن النبي نهب وسلب واغتصب كما فعل الصحابة الذين كانوا حوله مثل الكواكب الدرية والنجوم والشمس والقمر، ولا مانع من نسب ذات الجرائم إلى النبي الذي قاد هذه النجوم !!

خاصة وأن المسلمون قد انحرفوا عن المنهج العلمي وتركوا الموضوعية واتبعوا المذهبية والمعيار الشخصي، وانقسموا فرقا وشيعا متناحرين ومتنابذين، وكما يقول د. أحمد ماهر؛ فلا نكاد نجد أحد يتبع منهج القرآن، فالصوفية تتطلب منك أن أطفئ سراج عقلك واتبعني. والسلفية تتطلب قرودا تقلد بلا إدراك وقتل بلا رحمة وتعظيم المرويات على الآيات. والسنية تتطلب كارها بالميراث لكل من حوله ومعاديا للشيعة بلا هوادة. والشيعية تتطلب متحدثا رسميا باسم أصحاب القبور وحاقدا على أمواتنا من الصحابة. والجميع يعادون القرآنيين ويتخذون القرءان مهجورا. هذه هي توجهات أهم فرقنا التي ترعى الإشراك باسم الوحدانية، والله تعالى يقول: ولا تكونوا من المشركين سلطان مِنَ الذِينَ فرَقوا دِينَهمْ وَكانوا شِيَعا كُلُ حِزْبِ بِمَا لدَيْهِمْ فرِحُونَ} الروم٣١، ٣٢

ومن النماذج العملية للإشكاليات التي يخلقها المعيار الشخصي، باعتماد مصداقية الرواية فقط بناءً على الثقة في شخص الراوي، ما يلي:

المثال الأول:

حيث تتوالى كوارث المعيار الشخصي لتخليد ذكرى الأولين وتقديسهم ورفعهم دون إدراك على قيم ومبادئ القرآن، فقد أورد البخاري أكثر من رواية لا تحمل سوى الإسفاف والتجريح والإساءة إلى النبي في شخصه وأخلاقه، ولنقرأ معا الرواية التالية ونبحث عن الدروس العظيمة المستفادة منها إن كان لها أي أثر أو فائدة حقيقية تستدعي من البخاري توثيقها؛ ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال وليس الحصر (يسند البخاري رواية لأنس تجعل النبي يخلو بأم سليم الأنصارية، تقول الرواية" إن أم سليم كانت تبسط للنبي نطعا فيقيل عندها ـ أي ينام القيلولة عندها ـ على ذلك النطع، فإذا نام النبي أخذت من عرقه وشعره فجعلته في قارورة ثم جمعته في سك" (البخاري الجزء الثامن ص ٧٨)، ويريدنا البخاري أن نصدق أن بيوت النبي التي كانت مقصدا للضيوف كانت لا تكفيه وأنه كان يترك نساءه بعد الطواف عليهن ليذهب للقيلولة عند امرأة أخرى أجنبية عنه، ولا تحل له ولا يحل له أن يدخل بيتها في غياب زوجها، وأثناء نومه كانت تقوم تلك المرأة بجمع عرقه وشعره.. وكيف كان يحدث ذلك.. يريدنا البخاري أن نتخيل الإجابة.. ونعوذ بالله من هذا الإفك.. ثم يأتي دور العلماء والفقهاء الأجلاء لتبرير الرواية بالتخمين أن أم سليم هذه إما كانت من أقارب الرسول أو كانت أخت مرضعته أي خالته في الرضاعة! ومن ثم فهي محرم !

ثم يؤكد البخاري على هذا الزعم الباطل بحديث أم حرام القائل" كان رسول الله يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة أبى الصامت فدخل عليها رسول الله فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟... إلخ" فالنبي على هذه الرواية المزعومة تعود الدخول على هذه المرأة المتزوجة وليس في مضمون الرواية وجود للزوج، أي تشير الرواية إلى أنه كان يدخل عليها في غيبة زوجها ويصور البخاري كيف زالت الكلفة والاحتشام بين النبي وتلك المرأة المزعومة، إذ كان ينام بين يديها وتفلي له رأسه وبالطبع لابد أن يتخيل القارئ موضع رأس النبي بينما تفليها له تلك المرأة في هذه الرواية الخيالية، ثم بعد الأكل والنوم يستيقظ النبي من نومه وهو يضحك..

ويدور حديث طويل بينه وبين تلك المرأة نعرف منه أن زوجها لم يكن موجودا وإلا شارك في الحديث. وصيغة الرواية تضمنت الكثير من الإيحاءات والإشارات المقصودة لتجعل القارئ يتشكك في أخلاق النبي أو على الأقل يستهزي به. فتقول الرواية " كان رسول الله يدخل على أم حرام.." ولاحظ اختيار لفظ الدخول على المرأة ولم يقل كان يزور والدخول على المرأة له مدلول جنسي لا يخفى، والإيحاء هنا موظف جيدا بهذا الأسلوب المقصودة دلالته . ثم يقول عن المرأة " وكانت أم حرام تحت عبادة أبى الصامت" فهنا تنبيه على أنها متزوجة ولكن ليس لزوجها ذكر في الرواية ليفهم القارئ أنه كان يدخل على تلك المرأة المتزوجة في غيبة زوجها، وهى عبارة محشورة في السياق عمدا حيث لا علاقة لها بتفصيلات الرواية. إلا أن حشرها هكذا مقصود منه أن النبي كان يدخل على امرأة متزوجة في غيبة زوجها ويتصرف معها وتتعامل معه كتعامل الزوجين منفردين. وحتى يتأكد القارئ أن ذلك حرام وليس حلالا يجعل الراوي اسم المرأة " أم حرام " ليتبادر إلى ذهن القارئ أن ما يفعله النبي حرام وليس حلالا. ثم يضع الراوي بكل وقاحة أفعالا ينسبها للنبي عليه السلام لا يمكن أن تصدر من أي إنسان على مستوى متوسط من الأخلاق الحميدة فكيف بالذي كان على خلق عظيم .. عليه الصلاة والسلام، فيفتري الراوي كيف كانت تلك المرأة تطعمه وتفلي له رأسه وينام عندها ثم يستيقظ ضاحكا ويتحادثان .. نعوذ بالله من الافتراء على رسول الله..وقد كرر البخاري هذه الرواية المزعومة بصور

متعددة وأساليب شتى ليستقر معناها في عقل القارئ (راجع البخاري: الجزء الرابع ص ١٩، ٢١، ٣٩، ٥١ والجزء الثامن ص ٧٨ والجزء التاسع ص ٤٤).[٥]

وأيا كان سند هذه الرواية، فموضوعها السافل يؤكد أن البخاري إنما اتبع حكايات الأشخاص الذين نقل عنهم واعتبرهم المعيار الأوحد لمصداقية الرواية، بغض النظر عن الموضوع، سواء كان فيه فائدة أو عديم الفائدة أو حتى فيه مفسدة تخالف شرع الله، فلم يركز البخاري على موضوع مروياته ومعانيها ودلالاتها، ولا حتى الفائدة المستفادة منها أو الإساءة المترتبة عليها، فقط ركز على المعيار الشخصي، واعتبر الرواية صحيحة مطلقا طالما وصف الراوي بالصدق والعدل، ووضع عدة معايير لإثبات مصداقية الراوي لكنه لم يطبقها عمليا ، وكانت هذه هي النتيجة ! ثم يأتي دور العلماء والفقهاء مرة أخرى في محاولة لتبرير هذا الهراء بقولهم وتخمينهم أن أم حرام هي الأخرى ربما كانت من أقارب الرسول أو ذات محرم، أو أنها كانت خالته من الرضاعة أو كانت أخت سابقتها أم سليم ! وعلى فرض كونها ذا محرم، فهل يصح أن نصدق مثل هذا الكلام أو نقرأه أو نكتبه عن رسول الله؟ فليس ذلك من شيم ومكارم الأخلاق التي بعث النبي ليتممها، بل كان قرآنا يمشي على الأرض، لا متسكعا في بيوت أقاربه ينام هنا وهناك دون حياء.. لكن هكذا أراده العرب أن يكون كي يكونوا على راحتهم، وتبعهم الفقهاء، لأن متلازمة ستوكهولم العربية تحتم ذلك علميا.

المثال الثاني:

تتراكم أدلة انهيار المعيار الشخصي لرواية الحديث يوما بعد يوم، وبالاطلاع على تاريخ الرسالة المحمدية المشرفة، نجدها مليئة بالأنوار، حياته نور للبشرية، حركاته نور، سكناته نور.. لكن العرب أدخلوا الإسلام كهف الظلام الذي نشأوا فيه.. وبتتبع المعارك التي خاضها الرسول الكريم، برغم كبر عددها الذي يصل إلى " ٢٨ غزوة " سنجدها في الحقيقة سبعة فقط، وأما البقية فكانت محض سرايا استطلاعية بدون أي مهام قتالية، لكن العرب كعادتهم قبل الإسلام، حاولوا بعد وفاة الرسول المبالغة في الجانب الذي احترفوه كي يجعلوا لهم سندا دينيا ومقدسا لممارساتهم التي تخالف الإسلام، فما كان سبعة جعلوهم سبعة وعشرين عند الإجمال، ليبدو تاريخ النبي تاريخا حربيا لا مدنيا، وليكون

(٥) - نقل بتصرف من موقع منتديات حراس أهل العقيدة.

النشاط الأبرز في حياته هو الحروب، بما يبرر لهم امتهانها وغزو العالم واحتلاله والتطفل على مصادر دخل الأمم والشعوب واستعبادهم وتشريد أبنائهم..

ليس ذلك فقط، بل إن جميع الحروب التي خاضها النبي الكريم كانت حروبا دفاعية، ولم يقم النبي بأي حرب هجومية على الإطلاق، ولم يعتد على أحد من الشعوب المجاورة له، بل كان ينشر الحب والسلام في كل الدنيا.. فهذا نبي وليس فارسا مغوارا، بل رجل سلام جاء رحمة للعالمين.. بل أنه لم يقتل إنسانا في حياته قط، برغم تعرضه لعشرات من محاولات الاغتيال.. ولم يعتد على أحد ولم يباغت أحد ولم يهجم على أحد خلال فترة دعوته كاملة، ومع ذلك نجد أن العرب أطلقوا على الحروب التي خاضها دفاعا عن مجتمعه مسمى " غزوة " بالمخالفة للواقع؛ لأن مصطلح غزوة يعني حرب هجومية، بينما كانت جميع حروبه دفاعية، وذلك ثابت من رواياتهم أنفسهم لا رواية غيرهم، وهذا ما يؤكد انحراف العرب وتزويرهم للتاريخ النبوي بعد وفاته.. ومع ذلك استمر التدليس على مدار ألفٍ وأربعمائة عام من الزمان، فقط لأن الفقهاء يعتمدون على المعيار الشخصي في تصديق الرواية، حتى بالمخالفة للواقع والحقيقة، فالحقيقة الموضوعية تؤكد أن كلمة غزوة هي اصطلاح معاكس تماما ويحمل معنى العدوان، ويعني المبادأة والمبادرة بالتحرك العسكري. لكن المعيار الشخصي للفقهاء تغلب على المعيار الموضوعي، فتجاهلوا حتى المعنى الموضوعي للكلمة في المعاجم والقواميس وفي الاستخدام اليومي للمجتمعات العربية.

وهذا ما يفسر ارتضاء الفقهاء والسلف إلى يومنا هذا أن يطلقوا على المعارك التي خاضها النبي عليه السلام مسمى " غزوة " برغم أنه هو بذاته قد أوتي جوامع الكلم، لم يطلق علي أي واحدة منها مسمى غزوة لأنه يفهم ويدرك ويعرف جيدا ما معنى الغزو وما معني الدفاع الشرعي، حتى أن الفقهاء والسلف لم يرتضوا فقط بإطلاق كلمة غزوة على المعارك التي خاضها النبي عليه السلام بل أطلقوا هذا المسمى حتى على السرايا الاستطلاعية التي كان يبعثها النبي ولم يكن لها غرض القتال ولا هجوم ولا الدفاع، بل فقط استطلاع الأمر، هذه أيضا حصلت على صك مسمى الغزوة، وهذا كله في محاولة مستميتة لتبرير المسار المنحرف الذي سار فيه العرب بعد الرسول بداية من حرب الردة، حتى تحول المجتمع الإسلامي إلى جيوش جرارة تجوب الصحارى والوديان متعطشة للقتل وسفك الدماء وسبي النساء والأموال باسم الدين، وهي في حقيقتها فتوحات توسعية استعمارية حتى وإن تلحفت باسم الدين ونشر الإسلام إلا أن ذلك في حد ذاته انحراف في فهم الصحابة لمنعني الدين، ولم يدركوا أن الأديان لا تنتشر بالإكراه

ونسوا ما قاله الله جل وعلا في منع رسوله من إكراه الناس على أن يكونوا مسلمين. لكن في الواقع نجح بني العباس في إعادة صياغة التاريخ النبوي وتحويله من كونه تاريخ نبوي مدني إلى تاريخ حربي من الطراز الأول.!

ظاهرة الخنزير البري

هذه ظاهرة نسميها نحن الأقباط منذ القدم ظاهرة " الخنزير البري" وهي مجموعة سلوكيات غريبة يرتكبها بعض البشر الذين يحتسبون على جنس البشر لكنهم في الحقيقة من جنس الخنزير، ليس الخنزير الأليف أو المستأنس الذي يربيه المسيحيون في الحظائر، وإنما الخنزير البري ذو الشنبات الشوكية الحادة والوجه الغضيب والنعرة المرعبة، والجسد المترهل مثل العجل ، هذا الخنزير البري أشبع بالضبع، المهم أن ظاهرة الخنزير البري قد ظهرت في إيجبت القديمة على قدم الهكسوس أجداد العرب حينما احتلوا إيجبت لمدة ١٥٠ سنة تقريبا حيث كانوا يمارسون رياضة الخنزير البري وهي خطف الأطفال والنساء والفتيات ونكاح واغتصاب البنات ثم بيعهم في أسواق النخاسة أو استبدالهم بالحيوانات أو البضائع، وقد انتشرت مجموعة سلوكيات الخنزير البري في إيجبت خلال فترة تواجد الهكسوس بها، وبعد تحرير بلادنا من الاحتلال الهكسوسى. وبمجرد عودة الأمن والنظام، أصدر الملك أمنحتب الأول إعلانه العالمي بتجريم الرق واستهجانه لمن يفعلها تقليدا للهمج الهكسوس، وكان هذا أول إعلان لإلغاء الرق خرج للبشرية، حيث أصدر الملك أمنحتب الأول ـ ابن الملك أحمس الأول ـ في السنة الأولى من حكمه (سنة ١٥٢٥ ق.م) فيما يشبه ميثاقا أو تعهدا لإلغاء الرق، وهو المرسوم الملكي التالي:

(لن يباع الإنسان و يشترى كالحيوانات، كما كان الهمج (بدو آسيا) يفعلون)

هذا البيان أصدره جلالة الملك أمنحتب الأول بالفطرة الإنسانية السليمة لأنها كان ابن حضارة مدنية ولم يكن بحاجة إلى دين يأمره بحظر تجارة البشر ، بل هو تحرك بدافع ذاتي إنساني ، ويلاحظ في صيغة المرسوم الملكي أنه تكلم عن الإنسان (بوجه عام) ، وليس فقط الإنسان القبطي.. وكان يوم إعلان إلغاء الرق والعبودية من أعياد مصر القديمة يحتفل به الشعب[٦]، مثل احتفاله بأعياد الربيع والحصاد والفيضان، وكان ذلك قبل "سبارتاكوس" صاحب أول ثوره لعبيد الإمبراطورية الرومانية سنة ٧٣ ق.م، قبل الرئيس الأمريكي "أبراهام لينكولن" صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا سنة ١٨٦٣ ميلادية، وقبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨ ميلادية، والذي تنص مادته الرابعة على: (لا يجوز استرقاق أو استعباد أي إنسان، وتحظر تجارة الرقيق بكافة أنواعه).. وقبل اتفاقية الأمم

[٦] ـ انظر كتاب "الأعياد" للأستاذ سامى حرك

المتحدة لمنع " الاتجار بالبشر واستغلال الغير" الصادرة في الثاني من ديسمبر سنة ١٩٤٩ ميلادية والتي يحتفل بها سنويا فيما يسمى باليوم العالمي لإلغاء الرق.

وبذلك تم القضاء على ظاهرة الخنزير البري تماما، لكنها عادت بعودة الهكسوس مرة أخرى حينما جلبها الصحابة الكرام إلى بلادنا بقيادة عمرو ابن العاص عام ٦٤٠ م ، لكن المشكلة أن الأقباط كانوا مستسلمين جدا وتركوا الخنزير البري ينتشر في كل مكان وينشر مجموعات سلوكياته ويمارس رياضاته باستمتاع حتى استقرت، وبدأ الأزهر يعمل بتدريس رياضات الخنزير البري للأقباط أنفسهم !! على اعتبار أن البيئة الثقافية المعرفية التي عاش فيها الصحابة الكرام كانت يوتوبيا ، أي بيئة مثالية من العبودية الروحانية الطاهرة الخالصة لوجه الله، بينما بيئة يوتوبيا الصحابة العرب هذه كانت أقذر بيئة إنسانية عرفها التاريخ؛ بدليل كذبهم على رسول الله وشيوع ظاهرة الخنزير البري.

نموذج غزوة بني المصطلق

هناك رواية أوردها البخاري ومسلم والترمزي وغيرهم من رواة الحدث الموثوق بهم، وقد أقر هذه الرواية جميع فقهاء المسلمين على مدار التاريخ، وأقرها النووي بفحواها وقبل مضمونها، لم ينكرها أحد من علماء وفقهاء المسلمين على الإطلاق..وبالبناء على هذه الرواية شرع المسلمون حقا لهم فحولوا جريمة غير إنسانية إلى حق شرعي، وقدم الفقهاء ما في جعبتهم من أدلة وأسانيد ونصوص مقدسة لتأكيد هذا الحق.. لكننا عندما نبدأ في تفعيل المعيار الموضوعي والذي يستمد دعائمه من (القرآن والرسول والدليل والعقل)، سنجد أن الرواية مبنية على المعيار الشخصي وهذا ما سبب انحرافا خلقيا خطيرا في الفقه، وليس الانحراف ناشئا من الدين ذاته ولا عن سوء نية الفقهاء، مع حسن نيتهم وثقتهم العمياء في المعيار الشخصي، بل نشأ هذا الانحراف من انحراف عقلي حدث في المجتمع وهوس نفسي جعلهم يقبلون دليلا هو ليس بدليل.

نص الرواية يقول: حدَثَنا عَلِيُّ بْنُ الحسَنِ بْنِ شَقِيقٍ ، أَخْبَرَنا عَبْدُ اللَّهِ ، أَخْبَرَنا ابْنُ عَوْنٍ ، قَالَ : كَتَبْتُ إِلى نافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ ، " إِنَّ النَّبِيَّ عليه السلام أَغارَ على بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غارُّونَ ، وَأَنْعامُهُمْ تُسْقَى على الماءِ ، فَقَتَلَ مُقاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرارِيَهُمْ وَأَصابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ " . حدَثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَكانَ فِي

ذَلِكَ الجَيْشِ. [صحيح البخاري، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية]

وفي محاولة متواضعة لإعمال المعيار الموضوعي (القرآن والرسول والدليل حتى بدون عقل)، وبسذاجة بديهية، فقط تفعيل عناصر البحث الموضوعي، وهذا بالطبع يقتضي استبعاد عنصر الثقة في رواة الحديث من الصحابة، لكننا لن نستبعدهم ولن نفقد الثقة الشخصية في مصداقيتهم، برغم أن الثقة الشخصية في واحد من الصحابة لا تجعله مصدر للدين، على كل حال، فنحن سنستبعد عنصر الثقة الشخصية في الصحابي راوي الحديث لبضعة دقائق فقط .

فأصل هذه الرواية جاءت عن حادثة وقعت في عصر الرسول الكريم، إذ بعد هزيمة المسلمين في موقعة أحد، تشجع المشركون وقبائل العرب لسحق المسلمين، لأنها كانت المرة الأولى التي يُهزم فيها المسلمون، وبالتالي تكسرت معنوياتهم وتشجعت قبائل العرب وبدؤوا التفكير في الاتحاد لمواجهة المسلمين. ومن هذه القبائل نجد قبيلة بني المصطلق. (والخلفية التاريخية لهذه الأحداث وردت بكل المراجع التاريخية دون اختلاف في المضمون)

وبنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانوا يسكنون منطقتي (قديد وعُسفان) الواقعتين على الطريق من المدينة إلى مكة، حيث تنتشر ديار خزاعة علىٰ الطريق من المدينة إلى مكة، ومنطقة قديد تبعد عن مكة ١٢٠كيلو متر، وعُسفان تبعد ٨٠ كيلو مترًا، وبذلك يتوسط بنو المصطلق ديار خزاعة، وموقعهم مهم بالنسبة للصراع بين المسلمين وقريش، وديارها كانت أقرب إلىٰ مكة منها إلىٰ المدينة. وبوجه عام كانت قبيلة خزاعة مسالمة مع المسلمين رغم التحالفات السابقة بينهم وبين قريش لتسيير المصالح التجارية، وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم في جيش قريش في غزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون. وقد تجرأت بنو المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أحد، كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة وربما كانت بني المصطلق تخشى انتقام المسلمين منها لدورها في غزوة أحد، وكذلك كانت ترغب في أنْ يبقى الطريق التجاري مفتوحا أمام قريش لا يهدده

أحد لما في ذلك من مصالح لها محققة، فكانت بزعامة الحارث أبي ضرار تتهيأ للأمر بجمع الرجال والسلاح وتأليب القبائل المجاورة ضد المسلمين.[٧]

بلغ رسول الله أن بني المصطلق يجمعون له الناس ويجهزون جيشهم للإجهاز على المسلمين وسحق ما تبقى منهم بعد معركة أحد، فحاول النبي أن يتأكد من الخبر، وأرسل أحد الصحابة واسمه " بريدة الأسلمي" ليقضي يومين أو ثلاثة بين بني المصطلق يجمع الأخبار عن تحركاتهم ونيتهم، وبالفعل رجع بريدة وأكد للرسول خبر التعبئة واستعدادهم للتحرك، وأنهم يجهزون جيوشهم للهجوم على المسلمين، وفي ذات الوقت أمسك المسلمين جاسوسا بينهم يلملم الأخبار عن حالتهم. فنادى الرسول في الصحابة ليجهزوا أنفسهم للخروج، وأعد جيشه فيما يقارب سبعمائة رجل، وتحرك باتجاه مكة بالقرب من بئر ماء لبنى المصطلق تسمى " مُريسيع" وتهيأ للقتال وصف رجاله، حيث وقعت المعركة عند هذه البئر..

ويقول الواقدي: خرج رسول الله لليلتين مضتا من شعبان سنة خمس من الهجرة في سبعمائة من أصحابه إلى بني المصطلق، وكانوا حلفاء بني مدلج، فلما انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويقال إلى عمار ياسر، وراية الأنصار إلى سعد عبادة، ثم أمر عمر الخطاب فنادى في الناس: أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا فتراموا بالنبل".

****

((هذه هي الخلفية التاريخية وملخص الأحداث التي وردت في جميع المراجع التاريخية، مهما اختلفت يبقى مضمون الحدث واحد)) ((أما عندما ننتقل إلى الروايات المترتبة على ما بعد الحدث، (تلك الروايات التي انتقلت من مجرد كونها وقائع تاريخية إلى كتب التراث المقدس فأصبحت تشريعا دينيا مقدسا) نجد وضعها مختلفا تماما عن الواقع، بل إنها رتبت نتائج غريبة جدا من الناحية التشريعية، الحقوق والواجبات والآداب الإنسانية، وعلاقة الإسلام بالمجتمعات المجاورة. تعالوا بنا نتعرف عليها:

" أمر رسول الله المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة وأسر سائرهم، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد. وجميع الروايات أخبرت أن المعركة انتهت على قتيل واحد بين المسلمين وقع عن طريق الخطأ، إذ ضربه أحد المسلمين بالخطأ معتقدا أنه من الأعداء، وأخبرت جميع المراجع التاريخية أن هذه المعركة جلبت على المسلين خيرا وفيرا جدا من الأموال والنساء

[٧] - «السيرة النبوية الصحيحة» ٢/٤٠٤، ٤٠٥.

والأطفال والسبايا (أسر بكاملها)، وأن المسلمين اغتصبوا من النساء ما شاءوا وكيفما شاءوا، ومن هنا بدأت عملية تشريع السبي (خطف النساء والأطفال والفتيات في الحروب)، ومن هنا أيضا بدأ تشريع الاغتصاب في ميدان الحروب، وهذا متفق عليه من جميع المراجع الفقهية والتاريخية وجميع العلماء إلا القليل للأسف.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خَرَجْنا مع رَسُولِ الله عليه السلام فِي غَزْوَةِ بني المُصْطلِقِ فأصَبْنا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ العَرَبِ فاشْتَهيْنا النِّساءَ واشْتَدَّتْ علَيْنا العُزْبَة وأحبَبْنا العَزْلَ فأرَدْنا أنْ نعْزِلَ، وقلْنا: نعْزِلُ ورَسُولُ الله عليه السلام بيْنَ أظْهُرِنا قبْلَ أنْ نسألَه فسألْناه عنْ ذلِكَ، فقال: «ما عليْكُمْ أنْ لا تفْعلُوا ما مِنْ نَسمَة كائِنة إلى يوْمِ القِيامة إلا وهِيَ كائِنة».[8] وقد أغارَ النبي عليه السلام على بني المُصْطلِقِ وهمْ غارُّونَ وأنعامُهمْ تُسْقى على الماءِ فقتَلَ مُقاتِلَتَهمْ وسَبى ذَرارِيَهمْ وأصابَ يوْمَئذٍ جُوَيْرِية.[9]

وروي عن ابن محيريز أنه قال دخلت المسجد فرأيت أبا سعيد الخدري فجلست إليه فسألته عن العزل قال أبو سعيد خرجنا مع الرسول في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيا من سبي العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فأردنا أن نعزل، وقلنا نعزل ورسول الله عليه السلام بين أظهرنا قبل أن نسأله، فسألناه عن ذلك فقال ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة". هذا لفظ البخاري في المغازي وفي كتاب العتق (كتاب العتق باب من ملك من العرب رقيقا ١٢٩/٣ وكتاب المغازي ٩٦/٥ باب غزوة بني المصطلق من خزاعة).

وثبت في الصحيحين: من حديث عبد الله عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فقال: قد أغار رسول الله على بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، فأصاب يومئذ ـ أحسبه قال ـ جويرية بنت الحارث. وفي كتاب النكاح: عن ابن محيريز عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبيا فكنا نعزل، فسألنا رسول الله عليه السلام فقال: "أو إنكم لتفعلون؟ "ـ

(٨) ـ متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٣٨)، كتاب: المغازي، باب: غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع، ومسلم (١٤٣٨) كتاب: النكاح، باب: حكم العزل.

(٩) ـ متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٤١)، كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية، ومسلم (١٧٣٠)، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة.

قالها ثلاثا ـ ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة"[٤]. وفي كتاب القدر عن عبد الله بن محيريز الجمحي أن أبا سعيد الخدري أخبره أنه بينما هو جالس عند النبي جاءه رجل(١٠) من الأنصار فقال: يا رسول الله إنا نصيب سبيا ونحب المال، كيف ترى في العزل؟

((هذه هي طائفة الروايات التي ترتبت على معركة بني المصطلق، وحصلت على قدسية البخاري ومسلم وغيرهم من كتب الصحاح وأصبحت تشريعا للمسلمين حول العالم وعلى مدار التاريخ)).. وفيما يلي سنثبت بالدليل أنه مجرد حكايات من بناة أفكار العرب وليست من إسلامهم الذي حرفوه وصدروه إلى العالم ملوثا بسيئاتهم.. تحول تاريخهم القذر إلى دين للشعوب !

****

نعود مجددا لرواية البخاري التي يقول فيها: " إِنَّ النَّبِيَّ عليه السلام أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ ". حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ".

ونجد بداية (مع حفظ المقام للجميع ودون تشكيك أو تجريح، نجد أن الرواية بدأت بعبارة :

- " أغار النبي على بني المصطلق". ونعود إلى أصل هذه المعركة كما وردت أخبارها في كتب ومراجع التاريخ، سنكتشف أن بني المصطلق هم من فكروا في الهجوم على النبي، وهم من جمعوا الجيوش وحفزوا القبائل للإجهاز على المسلمين بعد هزيمتهم في موقعة أحد، وعندما وردت أخبار هذا الاستعداد إلى النبي أرسل مبعوثه " بريدة الأسلمي" يستطلع الخبر، فأكد له، إذن كانت حرب النبي هنا دفاعية وليست هجومية، لأنه لم يبدأ بالهجوم وإنما تحرك للدفاع كرد فعل على تحرك الأعداء، وطالما كان تحركه مجرد رد فعل فلا يمكن وصفه بعبارة غزو أو إغارة، وأولى خطوات الدفاع هي الاستطلاع، ثم التحرك، بينما رواية البخاري تقول أنه " أغار " وكلمة أغار تعني هجم بصورة عدوانية ، كما نجدها في كافة المعاجم والمراجع اللغوية. وتعني نية الغدر والمباغتة والمفاجأة على حين غفلة..

---

(١٠) ـ قوله: جاء رجل من الأنصار: قال ابن حجر: "تقدم في غزوة المريسيع وفي كتاب النكاح من صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: "سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجه النسائي من طريق ابن محيريز أن أبا سعيد وأبا صرمة أخبراه أنهم أصابوا سبايا قال: فتراجعنا في العزل فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلعل أبا سعيد باشر السؤال وإن كان الذين تراجعوا في ذلك جماعة" الخ. فتح الباري ٤٩٥/١١.

- عبارة " وهم غارُون " أي غافلون، وفي الحقيقة هم لم يكونوا غافلون بل إنهم هم من فكروا في الحرب ودبروا لها وجمعوا الجيوش وحفزوا القبائل للإجهاز على المسلمين بعد هزيمتهم في موقعة أحد، فكيف تصفهم رواية البخاري بأنهم " غافلون " ؟
- ثم تكمل الرواية بعبارة " وهم يسقون أنعامهم"، فهل فعلا كانوا يسقون أنعامهم من البئر؟ أم كانوا معسكرين قرب البئر في استعداد القتال؟ وكلمة أنعام هنا تشير إلى كونهم مدنيين وليسو محاربين، لأن المحاربين لا يصحبون أنعام معهم، والأنعام ليست من الدواب الحربية التي تستخدم في الحروب، مثل الخيول والجمال والكلاب الحربية، بل إن كلمة أنعام تحديدا كما ورد بالقرآن وفي لغة العرب تعني "الماشية الحلوب" أي البقر والغنم وسواها.
- ثم تكمل الرواية بعبارة " فقتل مقاتلتهم" وهذه تعني أنهم لم يكونوا جيشا محاربا، بل كانوا قبيلة أو مجتمع في صورته المدنية العادية، ومعهم أنعامهم، ومعهم الحراس، لأن كلمة " قتل مقاتلتهم" تشير إلى أنه هجم على مجتمع مدني وقتل حراسه، فالمقاتلة هم الحراس، وليسوا كل الناس الموجودين في هذا المكان حول البئر، فالسياق العام للرواية يشير إلى أنهم مجتمع مدني ومعهم حراستهم وأن النبي هجم عليهم بجيشه فقتل الحراس.. ! مع أن الواقع يقول بأنهم كانوا جيشا مستعدا للقتال.

- ثم تكمل الرواية بعبارة " وسبى ذراريهم " وكلمة ذرية تعني الأسرة أو العائلة (الأطفال والنساء والبنات)، بينما كلمة سبي، فتعني خطف المدنيين من (النساء والأطفال والبنات) لأن خطف واحتجاز الرجال المحاربين في ميدان الحرب اسمه " أسر " بينما كلمة سبي تعني خطف من لا يقوى على الدفاع عن نفسه، أي وجد مسالما وكأنه لقمة سائغة سهلة دون أي مقاومة..
- ثم تكمل الرواية بعبارة : وأصاب يومئذٍ جويرية" أي اختص النبي بها لنفسه للاستمتاع الجنسي بها وكأنها زوجة، وهو ما يعني بالطبع " جريمة الاغتصاب، إلا أذا كانت هذه الأسيرة قد وافقت على الخلع من زوجها والزواج بمن قتل زوجها وابنها وأنها وافقت على العلاقة الجنسية مع هذا المحارب الذي اقتحم بلادها وقتل أهلها وخطف أطفالهم ونساءهم.. بمعني إني لا أصدق علي النبي أن يختص نفسه بواحدة ويمنعها عنوة من أهلها وزوجها وأولادها وأخواتها، ويفرض عليها الإقامة الجبرية في بيته عنوة ويفرض عليها الخضوع له وتوطئة جسدها له دون رضاها بحجة أنها سبية أو أنه خطفها من زوجها فأصبحت ملك يمين له فحق له معاشرتها جنسيا دون إذنها !! ، فمجرد كونها أسيرة، فهذا لا يعني حتما قبولها

معاشرته جنسيا، ولا يجوز الاعتداء على أسرى الحروب ولا اغتصابهم، فهل يتوقع أحد أن النبي يجبر سيدة على معاشرتها جنسيا؟ هل هذا من أخلاق النبي؟ هذا كلام فارغ لا يقبله النبي ص، ولازم تتوقع أن أي سبية بطبيعة الحال ترفض البقاء خارج بلدها وقومها ومنزلها وأولادها وزوجها وأهلها،، ولا ينبغي أن نقنع أنفسنا بأن الإسلام أباح خطف النساء في البلاد الحربية (المدنيين العزل)، فهذا لا وجود له في الإسلام، ولا وجود له سوي في تاريخ العرب وفقه الفقهاء . وإن كانت الخلفية التاريخية تقول أن النبي تزوجها بعد ذلك بعقد نكاح، لكن السؤال، هل فعل الصحابة هذا الاغتصاب في ميدان الحرب كما تقول روايات البخاري؟ وإن كانوا قد فعلوا وسمح لهم النبي بذلك، فكأنما هو نفسه فعل ولا فرق.

وبالطبع، ودون تحليل لغوي أو تاريخي للوقائع التي ذكرتها كتب التاريخ الإسلامي، فالفطرة الإنسانية السليمة ترفض مثل هذا الفعل، والعدل الإلهي، والرحمة التي غرسها الله في الإنسان بفطرته السوية جميعها ترفض العدوان والخطف والاغتصاب والغدر، هذه الفطرة خلقها الله في الإنسان نقية قبل أن يبعث بها بالرسل والأنبياء، وإنما جاء الرسول محمد خاتم الأنبياء والرسل وبعث متمما لمكارم الأخلاق، إنني لا أصدق بالفطرة أن يهجم نبي علي أناس فجأة بهذه الطريقة الغادرة وهم يسقون أنعامهم فيقتل حراسهم ويخطف نساءهم وأولادهم وأموالهم. غير أن كافة العبارات المستخدمة في هذه الرواية معاكسة للواقع لغويا، ومخالفة لما ورد بكتب التاريخ العربي ذاتها ومعاكسة لأخلاق الرسول وقيمه ومبادئه.. ومعاكسة للواقع الثابت تاريخيا أيضا. أو بمعني أدق، فإن الرواية الفقهية تخالف الرواية التاريخية وتعكس معناها ١٨٠ درجة، فالشواهد التاريخية تقول أنها كانت محض معركة دفاعية شرعية، أما الرواية الفقهية فتحكي أنها كانت حرب هجومية الغرض منها (نهب الأموال وخطف الأطفال والنساء واغتصابهن)!

بل إننا عندما نبحث عن هذه الظاهرة القذرة في تاريخ العرب لن نجد لها مثيلا في الأديان الأخرى، لا الأديان السماوية ولا الأديان الأرضية الوثنية حتى.. فقط نجدها في الإسلام !! ذلك لأن العرب تمكنوا من هذا الدين فدمجوا عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم فيه.. بل إن ظاهرة السبي والوطء دون عقد نكاح بهذه الطريقة لا نجد لها مصدر إلا من تاريخ العرب الجاهلي، فتاريخهم وتقاليدهم ونشاطهم الاجتماعي والاقتصادي يقوم على الإغارة والدعارة، ولهذا وجدنا أبرز دور لهم في الإسلام هو الفتوحات والسبي والوطء .. ولو عرض عليَ اليوم دين يأمرني بسبي النساء والأطفال لرفضته فورا بالكلية، ودون مناقشة، إنما نحن مؤمنون بالإسلام لأننا نعلم يقينا أنه لا سبي في الإسلام، ولا وطء دون عقد نكاح بشرط رضا

وموافقة الأنثى، وأن الإسلام يقر بأن القتل والسبي والوطء جريمة حرب مارسها الصحابة.. لكن هكذا سار الفقهاء على نهج العرب وصنعوا من تاريخهم القذر دينا للشعوب.

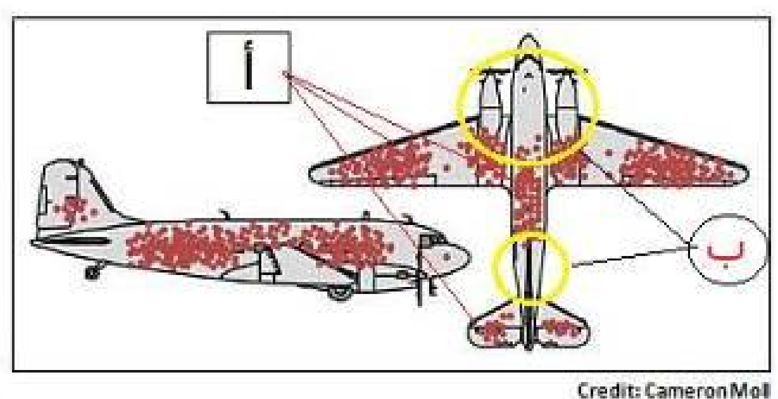
ومهما قيل بأن الحديث أو الرواية صحيحة سندا أو سندا ومتنا حتى، فنحن لا نقبل مثل هذه الروايات حتى وإن كانت صحيحة، لأن جدنا أمنحتب الأول علمنا أن الهمج هم من يبيعون الإنسان كما الحيوانات في السوق ، وهذه الظاهرة ليست من طبائعنا ولن نقبلها بأي حال، وإذا قال العرب أنها من دنيهم فلن نقبله منهم لأننا لا يمكن أن نقبل دين يهبط مستوى الإنسانية لدينا .. وأما تحججهم بأن رواة الحديث صحابة وأن من مارس ظاهرة الخنزير البري هذه صحابة أيضا، فنحن لا نعترف له برتبة الصحوبية حتى وإن كان صحابيا، لأن الصحابي في نظرنا وفي حضارتنا لا بد أن يكون إنسان، ثم تتوافر فيه الشروط الأخرى التي قال بها الفقهاء مثل رؤية النبي وملازمته له وألا يكون منافقا وأن يكون صادقا عدلا وغير ذلك، كل هذه الشروط لا بد أن يسبقها شرط الإنسانية، أي أن يكون الشخص لم يمارس ظاهرة الخنزير البري.

وبالطبع لا نتهم الفقهاء بالتواطؤ مع الرواة الكاذبين أو الخنازير البرية، لكن على أي طبيب نفسي أن يقرأ هذه الروايات، ويحكّم ضميره المهني فيما يقرأ كما لو كان راوي الرواية زائرا في عيادته، سيتأكد الطبيب من طغيان متلازمة ستوكهولم العربية على العقل الفقهي بالإجماع، ليس فقط فيما خالف القرآن ومبادئه وأخلاق النبي ومبادئه، ولكن لما خالف الفطرة الإنسانية ذاتها، لأن الإنسان لو قاس الأمور على نفسه سيرفض هذا الدين الذي يجعله غير إنساني كما فطرة البشر النظيفة، فالإنسان الذي يفقد الإحساس بالعدالة بالتأكيد أنه فقد إنسانيته، أو أنه واقع تحت تأثير نفسي، لكن وطأة المتلازمة كانت شديدة جدا على العقل الفقهي أصابته بالشلل والثبات أمام روايات العرب، لأن العرب بسطوتهم شكلوا غطاءً نفسيا على العقل حجبه عن التفكير بحرية وتذوق الأخبار بواقعية قبل إقرارها. ولذلك جاء هذا الفقه عربيا لا إسلاميا.

والعرب بطبيعة عقليتهم الأدبية السطحية، لا ينظرون إلى الأمور في جوهرها وعمقها، وإنما يأخذون ما يبدو لهم ظاهرا فقط، ولهذا نظروا لحقوقهم وما تمنوه أن يكون من حقوقهم وتغافلوا عن حقوق الآخرين في العيش بسلامٍ وحرية وكرامة وشرف.. فرضوا وجهة نظرهم دون النظر إلى الجانب الخلفي للحقائق، وجاء الفقهاء المصابين بمتلازمة الاحتلال العربي فتبنوا وجهة نظر العرب واعتبروها

هي الدين... لكن للأمور وجه آخر يجب النظر فيه بعناية؛ ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، حاولت الولايات المتحدة تقليل معدل فقدانها للطائرات في القتال فبرزت فكرة استخدام دروع تزيد من فرص نجاة الطائرات في المعارك. لكن الأمر كان بحاجة لحصر وإحصاء مواضع الإصابات في بدن الطائرة بدقة لأنه لا يمكن تدريع الطائرة بكاملها. ولذا لجأ المعنيون إلى فناء الطائرات المصابة لحصرها وتحليل المواضع التي يكثر إصابة الطائرات فيها وأنماطها لتقويتها بالتدريع.. وكان من الواضح في بيانات تحليل إصابات الطائرات أنه كثيرا ما تصاب الطائرات في أطراف الأجنحة والجزء المركزي العلوي من بدن الطائرة وروافع التوجيه السطحي (مجموعة المواضع أ)؛ وعليه تقرر وضع دروع على هذه المواضع وتصفيحها لحمايتها.





Credit: Cameron Moll

لكن عالم الإحصاء إبراهام والاد - الهنجاري الأصل- عارض ذلك. بل رأى أنه يجب استخدام الدروع على منطقة مقدمة الطائرة - قمرة القيادة- والمحرك والجزء الأوسط السفلي (المواضع ب).. وبالطبع تعجب المسئولون منه وأثار الأمر جنونهم لأنها ليست بمواضع إصابة الطائرات أصلا أو حتى أقلها إصابة.

والأمر بإيجاز أن البروفسير والاد أدرك ما فاتهم؛ فالطائرات لم تكن تصاب في المواضع (أ) فحسب بل كان يوجد طائرات أخرى تصاب كذلك في المواضع (ب) لكن لا يُكتب لها النجاة بل تسقط وتتحطم جميعها. لذا فهذه المواضع (ب) الأشد ضررا وخطرا لأن الإصابة في قاتلة، أما الموضع (أ) فالإصابة فيه جارحة فقط، ولهذا تصل الطائرات المصابة في المواضع (أ) إلى بر الأمان رغم إصابتها. أما ما فعلوه بالمقابل فكان الاعتماد الرؤية السطحية وتحليل وإحصاء مواضع الإصابة في الطائرات الناجية فقط !! وبالتالي جاءت أرصادهم ونتائجهم معيبة لأنه ركزت على الرؤية القريبة الظاهرة وتجاهلت حجم الإصابات

القاتلة التي أوقعت بالكثير جدا من الطائرات في الصحارى والغابات. وبهذا تأسس مصطلح "الانحياز للنجاة" survival bias " ، ومسألة "الانحياز للنجاة نقطة بالغة الأهمية والتأثير إذ تحكم الكثير من استقبال البشرِ للأمور وبناء التصورات وإطلاق الأحكام، ولهذا المفهوم تطبيقات مباشرة نجدها في الفقه الإسلامي " العربي" حيث انصرفت وجهة نظر الفقهاء إلى كل ما اعتبروه حق للمسلم والعربي بغض النظر عن حقوق الشعوب المقتولة والمنتهكة حقوقها، خاصة بشأن شرعية الجهاد الهجومي واقتران ذلك بحق شرعي للمجاهد هو سبي ووطء النساء ! وسبي الأطفال وبيعهم في أسواق النخاسة واستعبادهم... هكذا جعل العرب النجاسة جزء من الدين ومكافأة على الجهاد ! هكذا صارت النجاسة (سبي ووطء النساء بدون رغبتهن ورغما عن أزواجهن) صارت هذه النجاسة جزء من الدين احتراما للصحابة الذين مارسوا هذه النجاسة ! ثم أقنعونا بأن الإسلام قصير النظر ولا ينظر أصلا في حقوق هؤلاء الآخرين، بل فقط ينظر لحقوق المسلم وتطلعاته الاستعمارية.

لدرجة أنني في أحد المنتديات تبادلت الحديث مع أحد أصدقائي المسلمين المتدينين في مسألة السبي، وتطرق بنا الأمر بشأن أبو لؤلؤة المجوسي الذي قتل عمر الخطاب، فقلت أنه كان يشعر بظلم شديد وقد تم سبي أطفاله وزوجته وبيعهم في أسواق العبيد، وكان أبو لؤلؤة كما تذكر المصادر التاريخية يسير في الشوارع كما الجنون يتحسس الأطفال ويتفحص وجوههم ويتحسس شعرهم بحرقة وألم... كان يسكنه أمل العثور على أطفاله وزوجته بعدما تم بيعهم في أسواق لنخاسة... لكن الصديق نفر مني واستغرب من تعاطفي معه ! لأنه اقتنع بأن الإسلام قصير النظر ولا يرى إلا الرؤية السطحية القريبة فيقوم بتحصينها وتدريعها فقط بغض النظر عن الإصابات القاتلة الأخرى التي لا تظهر مباشرة! وفوجئت به يوبخني على تعاطفي مع الأعداء !! فسألته من هم الأعداء الذين تعاطفت معهم؟ فقال: إنك تلقي بمشاعر الإنسانية والرأفة على أبو لؤلؤة المجرم الذي قتل الخليفة عمر الخطاب. فقلت له: وماذا قبل أن يكون مجرما؟ أو ما الذي دفعه للإجرام؟ أليس إنسانا وله الحق في أن يحتضن أطفاله وفلذات أكباده ولو مرة ؟ أم أنه حرام على بلابـله الدوح حلال للعرب من كل جنس؟

ذلك لأننا نجد العدل والرحمة هي فطرة إنسانية فطر الله الناس عليها، ولا يمكن قياس الإسلام على سلوك العرب، ولا يمكن قياس سلوك العرب على جميع الشعوب لأنهم شعب بري ، والدليل أننا نجد من وصايا المصريين القدماء، ليس فقط توصية أبنائهم بهذا الخلق، وإنما حثوا الحكام والملوك أيضا على

الالتزام به؛ فها هو الحكيم «إيبور – ور» يُرسل بوصاياه للملك – خلال عصر الانتقال الأول – مبينًا له ضرورة الالتزام بهذا الخلق مبينًا له مفرداته قائلًا: إن الحاكم هو أبو اليتيم، وزوج الأرملة، وأخ من هجره أهله، وغطاء من لا أم له" ! [(11)]، وبالتالي ليس من المنطق والمقبول عقليا أن يترك الفراعنة هذه الحكم السامية المفعمة بالرحمة والإنسانية وينهلوا من مرويات العرب عن السبي والوطء عنوة وخطف واستعباد الأطفال والبنات... علينا أن نأخذ من العرب الدين فقط وليس القومية العربية.

غير أن هناك قرينة تستفاد من كون الفقهاء أعاجم، وهي أنهم إما أن يكونوا ضد العرب وإما أن يكونوا تحت العرب، وإما أن يكونوا حياديين، وبالنظر إلى أن جمهور الفقهاء كان من أبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت أقدام العرب وخضعت كليا (سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا عنوة) وطالما انكسرت إرادتها تحت العرب عنوة فلابد أن يكون هناك نتيجتان حتميتان؛ إما عداء شديد مستحكم ومستديم، وإما متلازمة ستوكهولم البديهية في هذه الحال، وفي الاحتمال الأول وهو استمرار العداء بين العرب السائدين والشعوب المكسورة إرادتها، فإن هذا العداء إذا ما زاد عن الحد إما أن يؤدي إلى ثورة ناجحة تنفجر كما البركان وتقلب الأمور رأسا على عقب، وإما أن ينطمر في النفوس ليبدو بمظهر متلازمة ستوكهولم، ومن الواضح من سجلات التاريخ أنه كان هناك عداء شديد عقب مرحلة الفتح في جميع الدول التي دخلها العرب وظهرت الكثير من الثورات وحركات التمرد التي قمعها العرب بالقوة والوحشية بداية من عصر عمر ابن الخطاب، وهذا ما يؤكد أن هذه الطاقات النفسية العفية لم تنجح في حركات التحرر فانطمرت داخل النفوس وانطوت على ذاتها وانعكست طاقتها بصورة قمعية للداخل مثل الثقب الأسود الذي زاد حجمه وزادت طاقته فانعكس لونه وانعكست طاقته للداخل، ما أنتج متلازمة ستوكهولم في أبناء وأجيال هذه الشعوب فيما بعد، خصوصا إذا كانت العقلية العربية عند تحليلها نفسيا سنجدها سادية سيادية، وينعدم لديهم " التعاطف المعرفي" ولذلك ارتكز نشاطهم في الجانب السياسي والعسكري فقط على مدار تاريخ دولتهم ولم ينشغل

---

(١١) ـ من مقال للدكتور حسين دقيل، منشور على موقع ساسة بوست، بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء ج(٥) التواضع " 23مايو، ٢٠١٨ – نقلاً عن مصادره من وصايا وتعاليم الحكيم «كاجمني» موجودة في «بردية بريس» المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس وترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، وبردية بريس تعتبر من أشهر البرديات الطبية، وقد عُثر عليها في الأقصر سنة ١٨٦٢، حيث اشتراها جورج أبريس – الذي قام بنشرها – من أدوين سميث، ويبلغ طولها ٢٠,٣ مترًا وعرضها ٠,٣ مترًا، وتحتوى ١٠٨ عمود، وكانت تحتوى على ٨٨٧ وصفة طبية لأنواع متعددة من الأمراض وأعراضها، ومن بينها وصفات لأمراض الجلد والتجميل والزينة وإنماء الشعر.

على رابط: https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-p5-humility/

أحدهم لا بالعلم ولا بالزراعة ولا البناء ولا الإنتاج، هذا إلى جانب عنصرية العرب وافتخارهم بالأصل والأنساب العربية، وانتقاصهم من المسلمين الجدد "الموالي" لأنهم ليسو من أصول أو جذور عربية، وهذه العنصرية تترجم بوضوح نزعة السادية والسيادية في العقل العربي والتي قابلتها باستحكام متلازمة ستوكهولم العربية لدى الشعوب المنكسرة تحتهم. وبالتالي نرى أنه من السذاجة المفرطة أن نعاتب أو نلوم هؤلاء الفقهاء على أخطائهم وأفكارهم لأنها قهرية.. فهم ضحايا العرب، ومن العبث أن نلومهم أو نعاتبهم على كارثة الإجماع في الأحكام التي سادت الفقه وصارت معيارا تشريعيا؛ لأنهم لم يتمتعوا بإرادة حرة

ولم يخرج من الفقهاء الأعاجم هؤلاء- وهم من أبناء الموالي وأحفادهم وأجيالهم المنكسرة بالتبعية الوراثية- مَن يعارض العرب في سلوكهم وتصرفاتهم لأنه مقيد تحت طغيان المتلازمة بالطبع، فلم يخرج من يهاجمهم فقهيا ولا من يحكم عليهم بحيادية تدين تصرفاتهم إلا القليل النادر، مثل ابن سينا وقد كفروه وأهدروا دمه وأهانوه وتعرض لمحاولات اغتيال، وكذا ابن رشد المحروقة كتبه أمام عينه والكندي المضروب بالسوط أمام العامة، وابن خلدون الذي أفلت منهم بأعجوبة، بل إننا نستطيع القول بطمأنينة أن علماء الطبيعة بالإجماع في عصر الدولة العربة رفضوا سلوكهم وفقههم ولم ينج واحد منهم من الملاحقات بسبب أفكاره ورفضه لفلسفة الفقه التراثي ((هؤلاء هم أعمدة الحضارة العلمية في عصر العرب وهم من بقايا الحضارات التي انكسرت تحت العرب لكنهم ظلوا متمردين على سلوكيات العرب، فالفئة التي خضعت للعرب وخضعت لمتلازمة ستوكهولم العربية هم فقهاء الدين بينما الفئة الأخرى التي ظلت متمردة وهم علماء الطبيعة وهم قلة قليلة جدا مقارنة بعدد علماء الدين)). وفيما عدا ذلك من فقهاء فقد كان خاضعا لتوجهات العرب كليا وصدَق على رؤيتهم الفكرية، خاصة بشأن معاملة الشعوب غير المسلمة، هذا الجانب بالذات في كافة جوانب الفقه والمعاملات هو ما يثبت جبروت العرب تجاه الغير، وما يثبت انحراف الفقهاء بذات الدرجة، برغم أن ذات الفقهاء لم ينحرفوا في جوانب الفقه الأخرى بما يلفت النظر، لكنهم انحرفوا كليا وبطريقة بشعة في هذا الجانب بالذات بصورة غير إنسانية (إضافة إلى جانب فقه المرأة وحقوقها تحديدا لأن هذان الجانبان من الفكر هما ما يترجم العقلية العربية، فالعقلية العلية عقلية سادية سيادية) وبذات درجة انحراف العرب في معاملتهم للشعوب الأخرى، وهو ما يثبت طغيان متلازمة ستوكهولم العربية على الفقهاء بوضوح، لدرجة أنهم لم يجرؤوا على رد روايات العرب، بل إنهم قبلوا تغليبها على آيات القرآن الواضحة الصريحة

القوية السند والمتن مقابل ضعف الروايات العربية سندا ومتنا، لكن القرآن لم يكن له عليهم سلطان السحر كما متلازمة ستوكهولم، ولذلك تخففوا من الالتزام بأحكام القرآن وشددوا في الالتزام برؤية العرب.

يقول الشيخ المتواضع، راجح العقل، متولي إبراهيم صالح؛ البخاري ومسلم ليسا على شرط الصحة القرآني، بل هما على شرط علماء الحديث، وهو أن يشهد على الواقعة شاهد واحد مرضي عدالة وضبطا، وأما شرط القرآن فأن يشهد عليها ما لا يقل عن شاهدين اثنين مرضيين عدالة وضبطا، فقول النبي واقعة لا تلزم من لم ير النبي إلا إن شهد له على ذلك اثنان سمعا النبي يقول، ورواية كل من هذين الشاهدين لما سمعاه من النبي لا تلزم من لم يرهما إلا إن شهد له على ذلك اثنان سمعاهما يقولان إنهما سمعا النبي يقول، ورواية كل من هذين الشاهدين اللاحقين لما سمعاه من الشاهدين قبلهما لا تلزم من لم يرهما إلا إن شهد له على ذلك اثنان سمعاهما يقولان إنهما سمعا الشاهدين قبلهما يقولان إنهما سمعا النبي يقول.. وهلم جرا ..

وتوافر الشرط القرآني للصحة في مرويات البخاري ومسلم متعذر المنال، وإذا كان هذا شأن البخاري ومسلم فكيف شأن ما دونهما ؟ وتوافر الشرط القرآني للصحة في مجموع المرويات كلها صعب المنال، ولا يتوافر إلا في قليل متواتر كمواقيت الصلاة وهيئاتها ومواقيت الحج وهيئاته ومواقيت الصيام وعدته على العلماء الربانيين الحذر من الغلو في المرويات، لاسيما ما يعكر منها على أخبار وأحكام القرآن. ومع ذلك، جاءت صياغة الروايات لتقلب المعني وتوحي للقارئ أن البادي بالهجوم والعدوان هو النبي، مع أن النبي برئ من ذلك. ولو عدنا إلى القرآن فلا يمكن أن نعثر على عبارات استخدمت هذه الألفاظ العدوانية، آية الفيء كمثال ستجدها تتحدث عن الغنائم ولا سبايا إطلاقا، وهذا تطبيق عملي لها في واقعة بني النضير. والقرآن استخدم لفظة الأسر والأسرى ولم يستخدم لفظة سبي ولا نهب ولا سلب لأن الأسر حق في الحرب أما السبي فهو خطف للعزّل المدنيين من أقارب المحاربين ولا ذنب لهم ، والسلب هو نهب وسرقة بالإكراه ، وكانت هذا العادات موجودة في الجاهلية فقط وألغاها الإسلام، لكن العرب بعد وفاة النبي عادوا إلى الجاهلية، ولو رجعنا لأحكام الأسر في الحرب، القرآن يقول ((فشدوا الوثاق إما منا بعد وإما فداءا حتى تضع الحرب أوزارها)) يعني فقط أسر للمقاتلين أيا كان جنسهم شرط أنهم مقاتلين، ويكون الأسر بشد وثاقهم حتى تضع الحرب أوزارها ثم عفوا أو فدوا ... أما فكرة السبايا الواردة في هذه الرواية

المكذوبة لا أصل لها في الإسلام، فكيف يأمر الله بالعفو عن الأسرى من الرجال المقاتلين، ثم يأتي بعد ذلك ليأمر بخطف النساء والأطفال غير المقاتلين ويسمح بانتهاك أعراضهم واغتصابهن واستعبادهم؟ !

لذلك ليس أمام المحقق للتثبت من صحة تلك الرواية التاريخية سوى استعمال العقل السليم بالفطرة، فلا عقل يقبل أن تكون هذه الجريمة البشعة حق أو أن يمارسها نبي مرسل من عند الله، لأن من يقبل ذلك فهو من ناحية التكوين النفسي ليس سويا بأي حال، وبالتالي فوسيلتنا للتحقق من مصداقية مثل هذه الروايات هو بحث مدى اتساق النص مع المفهوم العقلي وليس مع منزلة ناقل النص الرفيعة أو صلته بالرسول بحيث نرجح الحكمة من النص على هوية الناقل، خاصة وأن كثير من النصوص قد تم تحريفها على يد كثيرين مثل أبي هريرة حتى اشتهر هذا الأمر وصار حرفة لبعض الناس اختراع الأحاديث ونسبتها للرسول.

ونحن لا نعترض علي أمر من أوامر الله ونواهيه ولا أوامر رسوله ونواهيه، نحن نعترض على فكرة انعدام الإنسانية التي تأمرنا بها هذه النصوص الدينية.. خطف النساء والأطفال والبنات لأن الله لم يأمر بذلك أبدا، بل " ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"، وقال تعالى " ولا تزر وازرة وزر أخرى" أي لا يضار أحد بسبب جريمة أخيه أو زوجه أو والده أو إبنه.. وكذلك الرسول الكريم نهى عن ذلك حينما أوصي أصحابه المحاربين (لا تعتدوا علي طفل ولا امرأة ولا شيخ ولا راهب ولا صومعة ولا زرع.. إلخ). فهل يكون خطف الأسرة بكاملها حلال؟ واغتصاب المرأة عنوة هنا حلال؟ ألا يعتبر عدوان عليها؟ ، أم أنها بمجرد أن زوجها خرج لصد العدوان وانهزم أو قتل أو أصيب بعجز، تكون المرأة قد أصبحت غنيمة ؟

هذا ليس من الإسلام، ومن الفطرة السوية قبل نزول الإسلام، لأن الله خلق الإنسان ولديه حس فطري بالرحمة والعدل والإنسانية، لدرجة أننا جميعا تجتاحنا مشاعر الرفق بالحيوان، ولا يمكن أن نقتل حيوانا إلا إذا كان مؤذيا ، فكيف نغتصب إنسانة دون أن يكون ذلك عدوان عليها؟ وإذا كان فهمي للرواية سطحي، فأرجوك – عزيزي القارئ تدلني علي الفهم العميق. فهذا كذب لأن بني المصطلق لم يكونوا غازون بل هم المهاجمون أصلا. فالرواية تصور أن النبي أخذهم غدرا وعلي حين غفلة من أمرهم فقط لمجرد السطو والسلب وخطف النساء والأطفال، وهذا لم يحدث لأنه خرج بعد أن تأكد له أنهم مهاجمون علي المدينة فقابلهم حول البئر مثلما حدث في موقعة بدر. وكلمة سبي ذراريهم : خطأ لأن السبي معناه خطف العزل (أطفال ونساء وبنات وشيوخ عزل) وهذا يختلف عن الأسر لأن الأسر لا يكون إلا

لمحارب، ويقع في الأسر وقت الحرب. وهذا ما أقره الإسلام لأن الأصل أن القتل دفاعا شرعيا ، ولكن إذا تمكنت منه وقبل أن تقتله، أجاز لك الله أن تحتفظ به مقيدا (أسير) حتى تنتهي الحرب فتعفو عنه أو تطلب فدية تعوضك عن خسائرك في الحرب التي تسبب فيها أو شارك فيها هذا الأسير، أما كلمة سبي فلا أصل لها في الإسلام، وإنما هي من عادات الجاهلية فقط ، وتوقفت في عهد النبي فلم يمارسها ونهى عن خطف العزل لأن الله تعالي يقول (ولا تزر وازرة وزر أخري).

هل يعتبر أن مجرد رفضنا لرواية مكذوبة علي لسان أحد التابعين تعتبر طعنا في الدين؟ وهل الدين مجرد روايات وحكايات أم قرآن وَسَنة؟؟ . هذه الرواية المدسوسة لا هي قرآن ولا هي سنة ولا هي وحي، هي مجرد خيال وكذب من أعرابي منافق دلسها واخترع لها أسماء حقيقية كي يضفي عليها المصداقية، واستخدم عبارات تقلب المعنى لتتلاءم مع غايته الدنيئة في اغتصاب النساء وخطف الأطفال من عادات أجداده في الجاهلية، وهذا لا علاقة له بالدين ولا فائدة منها سوي الإساءة للدين وللنبي وتصويره وكأنه رئيس عصابة قطاع طرق وليس نبي.. مع أنه أكرم الخلق. وهو برئ من هذه الأكاذيب. فكيف لهذا الأفاق الكذاب بأن يصف الحبيب محمد بأنه (أغار) علي قوم وهم (غارّن) بل روى مسلم في صحيحه (٢٥٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ :إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً.

فالحساسية تحديدا في مسألة السبايا لأنها ليست من الإسلام في شيء، أما الغنائم فليس فيها حساسية بشرط تكون كما وردت في كتاب الله ، وهي وردت في سياق الحرب الدفاعية، بمعني أن جيش يهجم على المسلمين، ثم ينهزم فنأخذ كل ما معه ، هذه غنائم وفيء ورزق من الله وتعويض عن خسائر هذه الحرب التي تسبب فيها هو، لا أن نقوم نحن بحرب على الغير لتحصيل غنائم وسبايا، وإلا اعتبرت جريمة لتحقيق دخل قومي، فكيف تهجم علي بلد وتأخذ ما فيها من أملاك؟ فهذه ليست غنائم وإنما أسلاب وسلب يعني سرقة نتيجة سطو مسلح، وهذا غير مشروع، فالإسلام ليس دين صعاليق ولا يقر أعمال الصعلقة، وإنما العرب بطبيعتهم صعاليق، فصبغوا الدين بصبغتهم.

ثم نتساءل في النهاية، على فرض صحة رواية البخاري (رغم مخالفتها للواقع والمنطق وكتب التاريخ الإسلامي) ، فرواية البخاري تقول أن النبي هجم على شعب بني المصطلق وهم غافلون، وأحكم قبضته عليهم وهزمهم، فماذا فعل بعد ذلك؟ هل نشر الدين عندهم عنوة أم عاد إلى المدينة؟ برغم أنه منتصر؟ هل

فقط كانت الغاية هي حفنة النساء التي خطفها أصحابه؟ ثم أن الروايات تواترت بعد ذلك لتقول أن الصحابة خطفوا النساء واغتصبوهم في ميدان الحرب، لم ينتظروا حتى العودة إلى بيوتهم، أو خيامهم، لأنه وفقا للروايات أن عدد جيش المسلمين كان حوالي سبعمائة، ولا يعقل أن يتمكن الجيش من إنشاء سبعمائة خيمة مستقلة للاغتصاب في هذا الظرف، كي يكون لكل رجل خيمة يغتصب فيها سبايا كما شاء.

روي عن ابن محيريز أنه قال دخلت المسجد فرأيت أبا سعيد الخدري فجلست إليه فسألته عن العزل قال أبو سعيد خرجنا مع الرسول في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيا من سبي العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فأردنا أن نعزل، وقلنا نعزل ورسول الله عليه السلام بين أظهرنا قبل أن نسأله، فسألناه عن ذلك فقال ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة". هذا لفظ البخاري في المغازي وفي كتاب العتق (كتاب العتق باب من ملك من العرب رقيقا ١٢٩/٣ وكتاب المغازي ٩٦/٥ باب غزوة بني المصطلق من خزاعة).

وثبت في الصحيحين: من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فقال: قد أغار رسول الله على بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، فأصاب يومئذ ـ أحسبه قال ـ جويرية بنت الحارث. ونتساءل هنا حول سؤال السائل وجواب المسئول، فالسائل يقول أنه سألعن عن الدعاء قبل القتال، لكن جواب المسئول جاء عن الاغتصاب بعد القتال، وهو ما يؤكد خرافية الرواية وكذبها، لكن الغباء جندي من جنود الحق.

وفي كتاب النكاح: عن ابن محيريز عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبيا فكنا نعزل، فسألنا رسول الله عليه السلام فقال: "أو إنكم لتفعلون؟ " ـ قالها ثلاثا ـ ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة".

وفي كتاب القدر عن عبد الله بن محيريز الجمحي أن أبا سعيد الخدري أخبره أنه بينما هو جالس عند النبي جاءه رجل[١٢] من الأنصار فقال: يا رسول الله إنا نصيب سبيا ونحب المال، كيف ترى في العزل؟

(١٢) ـ قوله: جاء رجل من الأنصار: قال ابن حجر: "تقدم في غزوة المريسيع وفي كتاب النكاح من صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: "سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجه النسائي من طريق ابن محيريز أن أبا سعيد وأبا صرمة

كما يتضح من هذه الروايات أن الصحابي الأنصاري يتحدث إلى رسول الله فيقول (إنا نصيب سبيا ونحب المال، كيف ترى في العزل؟) (وهنا تجسد الرواية جريمة مركبة من ثلاثة أركان هي: سرقة الأموال ـ خطف النساء ـ الاغتصاب) فهل جاء رسول الله ليجاهد في سبيل الله كما أمره القرآن، أم أنه جاء مثل هذا الأعرابي الذي يحب المال ونكح النساء؟ لكن الغباء جندي من جنود الحق، ولم تكن هذه رسالة محمد على الإطلاق، فحينما ذهب ليدعوا أهل الطائف، فدعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم أن تحتضن الطائف دعوته، فكان رد أسياد الطائف على النبي قاسيا، فبعد أن طردوه منها أغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فتبعوه بالحجارة وسبوه ووصفوه بالجنون، حتى إنه عليه السلام أصيب بقدميه الشريفتين من أثر حجارة صبيان الطائف، وسالت منها الدماء، فزاد هم النبي وأصابه الحزن، ودعا ربه (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي). ودعا لهم بالهداية، فكيف نتصور أنه يهجم على الناس من أجل خطف النساء والأطفال، فلم ترجع (وفقا لرواية الفقهاء) لم يكن لمعركة بني المصطلق إلا خطف النساء والأطفال وقتل عشرة رجال ونهب أموال، بينما وفقا لروايات المؤرخين كانت معركة دفاعية من الدرجة الأولى.

بل إن الأعرابي يسأل عن العزل؟ والعزل كانت عادة شائعة عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام، حيث ينكح الرجل المرأة سواء الخدم والعبيد أو (في أوكار الدعارة) وكان يسحب قضيبه من محياها قبل إنزال السائل المنوي خوفا من الحبل، فإذا كانت عبدة وحملت منه سيضطر لإنكار نسب ابنها، وإذا كانت داعرة، سيضطر للتهرب منها وإلا لاحقته الفضيحة، وهذه الأمور كانت شائعة في مجتمع العرب الجاهلي قبل الإسلام، وكانت الداعرة إذا ولدت طفلا في نهاية العام، يكون لها أن تشير على أي واحد ممن جامعوها خلال الفترة وتنسب له الطفل، وبالطبع كان الجميع يتهرب من الفضيحة، وكانت الداعرة تختار أعلاهم حسبا ونسبا وشرفا لتنسب إليه طفلها من الدعارة، أو إذا كانت عبدة، فسيكون بيعها صعبا لأن الحامل لا بيع لها. ولذلك كانوا في الغالب يعمدون إلى حيلة إخراج القضيب من فرج المرأة قبل الإنزال للمني حتى لا تحمل منه، وهذا هو العزل. والغريب أن الصحابي الجليل يقول أنه سأل الرسول عن " العزل " فقال له النبي " أو إنكم لتفعلون؟ ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة" أي لا تشغل بالك بالعزل لأن الله لو أراد لمخلوق أن يولد سيولد" ! فسواء أخرجت القضيب أو لم

أخبراه أنهم أصابوا سبايا قال: فتراجعنا في العزل فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلعل أبا سعيد باشر السؤال وإن كان الذين تراجعوا في ذلك جماعة" الخ. فتح الباري ٤٩٥/١١.

تخرجه، فما هو مكتوب في مشيئة الله سيحدث، وسواء أخرجت القضيب بعجالة قبل الإنزال أو لم تخرجه، فإن ذلك لن يؤثر على مشيئة الله في الحبل إذا كان مكتوبا!

وبطبيعة الحال، فإن هذا الكلام الذي أجمع عليه الفقهاء أنه صحيح ، لا يمكن أن يكون صحيح ولا يمكن أن يحدث حتى لو سقطت السماء على الأرض، لأنه يخالف مبادئ الرسول في الأخذ بالأسباب من الأساس، فالقاعدة أن الإنسان إذا أراد زرعا أن يغرسه ويرويه، وإن أراد ولم يغرس ولم يرو ، فلن يكون هناك محصول، فكيف يساوي منطق رسولنا الكريم بين الأخذ بالأسباب وعدمه ؟ هل كان الرسول يجلس في بيته ويقول لو أراد الله النصر لنا سينصرنا ؟ أم أن يجتهد في الأسباب ويعد جيشه ويكافح لصد العدوان؟ لكن غباء الرواة العرب كان جندي من جنود الحق فظهر كذبهم على لسانهم.

ثانيا: هل أن الرسول لم يتوقع أن يهزمه الأعداء ويخطفوا نساءه وبناته في يوم من الأيام أو نساء المسلمين وبناتهم؟ هل كان الرسول يحكم بالعدل بين المسلمين فقط؟ أم أنه يحكم بالعدل بين المسلم وغير المسلم؟ فلماذا حكم على نساء المشركين ظلما بالخطف والاغتصاب والاستعباد؟ وما ذنبهم ؟ كون أزواجهم مشركين؟ فالسيدة زينب بنت رسول الله كان زوجها مشركا وأرادت هي أن تخلعه لكن الرسول رفض وأراد لها أن تحافظ على بيتها وأولادها.

وهناك خرافات أخرى غير منطقية، بل هي جرائم ضد الإنسانية، والمشكلة ليست في اعتبار هذه الأفعال جرائم، لكن المشكلة في إقناع الفقهاء في أنها جرائم أصلا لأنهم متمسكون بصدق الراوي وعدله، فطالما صدق الراوي عندهم فهذا بإمكانه تحويل الجريمة غير الإنسانية إلى حق وجهاد في سبيل الله ! بل إننا نتساءل كيف تقع مثل هذه الحرب يتم فيها أسر جميع رجال الجيش الآخر المهزوم، ويتم سبي نساءه وأطفاله (الأسر والعائلات) ويتم سلب أموالهم.. وتكون حصيلة الخسائر (عشرة قتلى من الأعداء ولا مصاب واحد من المسلمين) ! وكأن المسلمين كائنات نزلت من الفضاء تقتل بالليزر عن بعد، بل إن الرجل الوحيد الذي أصيب منهم كان بنيران صديقة، أي قتله أحد الأنصار بالخطأ ! أما الأعداء فقد سقط منهم عشرة فقط ووقع الباقون جميعهم في الأسر!، وكأنهم يسلمون أنفسهم ونساءهم وأموالهم وأطفالهم بالمجان للمسلمين كي يغتصبوهم أمام أعينهم، وقبل أن يذهبوا بهم إلى بيوتهم وخيامهم !.. بالطبع فإن هذه الروايات جميعها كاذبة (وفقا للمعيار الموضوعي) وجميعها صادقة (وفقا لمعيار الثقة في مصداقية الراوي الذي اتبعه الفقهاء)

أما الكارثة الكبرى، وهي النتائج التي رتبها الفقهاء على هذه المعركة تحديدا، وبرغم ما فصلناه منطقيا وتاريخيا أن البادئ بالهجوم كان هم بني المصطلق وأن الرسول خرج لصد الهجوم، لكن الفقهاء تركوا هذا الواقع واعتمدوا على رواية البخاري وغيره وقرروا أن الرسول كان مهاجما وبدؤوا يضعون أحكام الحرب في الإسلام بناءً على افتراضات واستنتاجات مترتبة على رواية البخاري، (منها أن النبي هو الذي بدأ بالهجوم على بني المصطلق وهم في غفلة وقاتلهم وأسرهم جميعا وسبى نساءهم وأطفالهم وبناتهم وسمح للصحابة باغتصابهم وأخذ لنفسه منهم واحدة هي ابنة ملكهم) وعلى ذلك قرر الفقهاء أنه يجوز في الإسلام أن تقوم الحرب فجأة ودون سابق إنذار للأعداء الذين سمعوا بخبر الإسلام ولم يعتنقوه، ويجوز الهجوم على المدنيين العزل من العرب واغتصاب نسائهم وأطفالهم، لأن النبي هجم على عرب مثله! (في الواقع هذا لم يفعله الرسول وإنما فعله الصحابة بعد وفاته). وسنعرض الآن بعض قطائف مما أورده الفقهاء من جرائم ضد الإنسانية في موسوعاتهم العلمية

صحيح البخاري:

حدَّثنا عليُّ بنُ الحسنِ بنِ شقيقٍ ، أخبرَنا عبدُ اللهِ ، أخبرَنا ابنُ عونٍ ، قالَ : كتبتُ إلى نافعٍ فكتبَ إليَّ ، " إنَّ النبيَّ عليه السلام أغارَ على بني المصطلِقِ وهمْ غارُّونَ، وأنعامُهمْ تُسقى على الماءِ ، فقتلَ مُقاتِلتَهمْ وسَبى ذراريَّهمْ وأصاب يومئذٍ جويريةَ". حدَّثني بهِ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ ، وكانَ في ذلِكَ الجيْشِ. [كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية]

تعليق : يعجز العقل عن تصديق هذا الحديث وشرحه، ولم ينفر الفقهاء من هضمه، فكيف نصدق أن الرسول يغزو عرب مثله وهم غافلون لمجرد أنهم لم يسلموا ، ويأخذ بنت كبيرهم جويرية بنت الحارث ملك يمين للمتعة الجنسية له، ثم لماذا هجم على بني المصطلق تحديداً وهم أبعد القبائل عن المدينة؟ فلماذا لم يهجم على القبائل والمجتمعات التي قابلته في الطريق؟ بل ويعجز العقل أكثر حينما نرى الإمام النووي وهو يشرح الحديث ويؤكد جواز أن تغير علي عرب مثلك وهم غافلون وجواز أن تستعبدهم!. ما هذه الوحشية والقسوة اللاإنسانية المتهم بها رسول أتي ليتمم مكارم الأخلاق ؟! بالطبع هنا مصدر التعليم الإجرامي في إباحة دم ونساء كل من يختلف معنا، هذا التعليم الوحشي هو تاريخ العرب القذر رعاه الفقهاء على مدار العصور ومازال الأزهر يرعاه إلى اليوم، وهذا يفسر قدرة بعض المسلمين علي قتل واغتصاب من يختلف معهم ويفسر كل المذابح والانتهاكات في المجتمعات الإسلامية قديما وحديثا كما تفعل داعش في العراق.

بل إن الكارثة التي تطعن في كتاب البخاري كله هو عنوان هذا الباب الإجرامي: [كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية] فالبخاري في الواقع لم يميز بين ما هو تاريخ إجرامي للعرب وقع بعد وفاة الرسول، وما هو من سنة الرسول الكريم وهديه، وتخيل ببساطة أن هدي النبي للبشرية إنما جاء ليسمح لأتباعه بممارسة كل هذه الجرائم! فكل الجيوش عبر التاريخ قتلت وأفسدت واغتصبت ومارست كل أنواع الإجرام، ولن ننس الإمبراطور الياباني حينما أصدر تصاريح لجنوده أثناء الحرب على الصين باغتصاب جميع النساء، فدخلوا مدينة بانكن القريبة من العاصمة ومارسوا كل أنواع الإجرام، واغتصبوا النساء أمام أطفالهم وأزواجهم ببشاعة. وكذلك الجيش الأمريكي حينما دخل برلين نهاية الحرب العالمية الثانية واغتصب جنوده وضباطه النساء الألمانيات، حتى أن ألمانيا ظلت تقيد الأطفال بأسماء أمهاتهم على مدار عشرة سنوات بعد الحرب بما وصل إلى أكثر من ٢٥٠ ألف طفل نتيجة الاغتصاب، وكذلك جنود وضباط الجيش الصربي حينما دخلوا مدينة سربرنتشيا عام ١٩٩١ أثناء الحرب على البوسنة واغتصبوا جميع النساء والفتيات المسلمات، كانت الفتيات تستغيث برجال المسلمين في العالم العربي بأن يرسلوا لهم حبوب منع الحب أو أن يقتلوا أنفسهم لوقف هذه المهزلة، فقد أراد الصرب على تلويث أرحام المسلمات بالجنس الصربي، فاغتصبوهم جميعا بعد قتل رجالهم جميعا الإثنى عشر ألف رجل وشاب في المدينة..

أما الجيش الإنجليزي حينما احتل مصر في القرن الماضي فلم يفعل الإنجليز هكذا، كانوا أكثر نزاهة من العرب، فقد رضت بريطانيا على الحكومة المصرية إصدار تراخيص دعارة لفتيات الليل كي يمارسن مع الجنود الإنجليز بحرية.. فالانجليز رفضوا الاغتصاب وفضلوا الممارسة برغبة المرأة.. لكن العرب لم يشترطوا موافقة المرأة وقرروا اغتصابها عنوة، ثم جعلوا من جريمة الجيوش كلها دينا لهم !! فلم يصدروا تصاريح للجنود بالاغتصاب مثل الإمبراطور الياباني، ولم يصدروا تصاريح لفتيات الليل بممارسة الدعارة مثلما فعلت الحكومة الإنجليزية، بل جعلوا الاغتصاب شرعا وحلال بدون تصاريح، بل قدسوه ضمن الجهاد في سبيل الله !! ولم يكتفوا بالاغتصاب وممارسة الجنس، بل أضافوا الخطف !! خطف النساء والأطفال!! .. وبالطبع فإن الله نهى عن كل ذلك وجرمه، لكن البخاري شرعه وجعله عرفا دينيا.. هذا قبل أن يأتي الميثاق العالمي لحقوق الإنسان ويحظر الاعتداء على المدنيين بالجملة، ويوصي بحسن معاملة الأسرى، لكن البخاري يقول أن العرب فعلوا ذلك قبل ظهور الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، على اعتبار إن الميثاق أكثر رقيا إنسانيا مما كان عليه النبي محمد !!

صحيح البخاري :

٢٤٠٤ قال رأيت أبا سعيد رضي الله عنه فسألته فقال خرجنا مع رسول الله عليه السلام في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيا من سبي العرب فاشتهينا النساء وأحببنا العزل فسألنا رسول الله عليه السلام فقال ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة.

تعليق : هذا حديث آخر يؤكد نفس القصة المؤلمة ولكن من منظور آخر، فبعد ما هزم المسلمون بني المصطلق وقتلوا الرجال وسبوا النساء ، وهم عرب مثلهم ، بل وهم كرائم العرب علي حد تعبيرهم ، واشتاقوا أن يعاشروهن جنسيًا ، فهن ملك يمين لهم، ولكن كانوا يخافون أن تحمل هؤلاء النساء وعندما يريدون بيعهن لا يستطيعون فسألوا الرسول حول رأيه في العزل !، وهو أن يعاشروهن جنسيًا ولكن قبل قذف السائل المنوي يوقفون المعاشرة حتى لا يحدث حمل، فرد الرسول: لا عليكم ، بمعنى استمتعوا كما شئتم وبدون عزل، فلو مشيئة الله أن نفسا تخلق سوف تخلق في كلا الحالتين. ما هذه القسوة ؟ ما هذا العنف والوحشية؟ يغزو عربا جيران لهم ويقتلون الرجال ويسبون النساء ويغتصبوهن، والإمام النووي يشرح بمنتهى الوضوح عن جواز غزو عرب مثلهم وجواز اغتصاب وبيع نسائهم. لاحظ كم التدمير الذي لحق بهؤلاء الرجال حتى يغتصبون نساء عرب مثلهم وكل ما يقلقهم هو خوفهم أن يحملن فلا يستطيعون بيعهن!. كيف يكون هذا دينا سماويا ؟ وكيف يكون هؤلاء صحابة ! هذا فقط تاريخ العرب الذي فعلوه قبل وبعد عهد الرسول.

فالصحابة العرب كانوا يعتبرون المرأة مجرد وعاء جنسي .. أو مجرد "برجل" وظيفته أن يفتح ساقيه بزاوية منفرجة أمام من له الغلبة ..! ثم جاؤوا ليقولوا لنا أن هذا هو دين الله !

الدكتورة دينا أنور، ردا على أحد مروجي الفتوحات ومبرري السبي ولاختطاف والاستعباد واغتصاب السبايا بحجة ملك اليمين وأن لها احتياجات جنسية، تقول: المرأة .. والمرأة فقط .. وحدها لا شريك لها.. هي من يحق لها أن تقرر إذا كان الشخص الذي يتعرَض لها أو يعرض نفسه عليها مُعجب أو مُتحرِش .. مرغوب فيه أو مغتصِب .. يستحق أن يكون حبيبا أو لا يستحق حتى أن يجلس على مقربة منها .. حتى و إن كان زوجها.

وهي فقط.. وبحسب حالتها المزاجية.. و رؤيتها الشخصية.. وتقييمها المجتمعي.. و وضعية نشأتها... من يحق لها قبول الدعوة والترحيب بالشخص.. أو رفضها ورفض الشخص.. دون أن تبدي أي مبررات أو

أسباب.. فما بالك أيها الرجعي عندما يكون ذلك الشخص إرهابيا معتديا غازيا.. استولى على أراضي وطنها.. قتل رجال عائلتها.. حوّلها من إنسانة حرة لجارية ذليلة ؟.. هل تعتقد أن كل هذه الانتهاكات ستجعلها تفكر في أي احتياجاتٍ جنسية تجاهه ؟

الطبيعي أن تفكر في الانتقام منه و قتله ثأرا لحياتها التي انتهكها . فهي لم تكن تراه مثلما تصفه في تاريخك المزوّر صحابيا جليلا ولا فاتحا عظيما ولا خليفة للمؤمنين.. كانت تراه غازيا إرهابيا خاطفا.. بلغة اليوم مجرم حرب.. ولكن حربه من أجل المال والنساء.. لا من أجل نشر الدين... هذا هو المنطق يا مبرري خطف النساء و اغتصابهن و هتك طفولتهن.. يا من زوّرتم المفاهيم الإنسانية والقيم الأخلاقية لصالح سعاركم الجنسي وسعار من سبقوكم من مجرمي الحرب غزاة الأوطان خاطفي النساء مشرّدي الأطفال..

ما الفرق بينك وبين الدواعش الذين سبوا الأيزيديات واغتصبوهن جنسيا بنفس منطقك ؟ .. كل من يتقبل هذه الأفكار أو حتى يحاول تمريرها وتبريرها فهو مريض، وأنصحه بالتوجه للمصحات النفسية الموجودة بالصين تحديدا.. لأنها معدّة خصيصا لكل من يعتنق التطرف ويمرر عقله الاعتداءات الجنسية والإنسانية ويبرر الإرهاب بحجة الدين..".

وهذا في معناه أن الصحابة الكرام كانوا يخطفون الفتيات ويغتصبونهن ويشردون الأطفال ويفتتون الأسر ويدمرون كيان الإنسان، فهل يكون ذلك لنشر الدين؟! أي دين هذا !! هل قال الصحابة أنهم فعلوا ذلك لينشروا الدين ؟! أم أن الأجيال القادمة بعدهم هي التي دونت ذلك في كتبها ! فالصحابة لم يزعموا أنهم نشروا دين ! هم مارسوا الغزو والاحتلال باسم الاستعمار ولم يكن لديهم أية نية عن نشر الدين، بدليل أنهم لم يترجموا كتاب واحد إلى الشعوب التي غزوها، فكيف نقول نحن أنهم غزوها لنشر الدين ؟!

نعود إلى كتب التراث العربي، ومن صحيح مسلم جواز الغزو على عرب مثلهم بدون إنذار وهم غافلون وقتلهم وسبي واغتصاب نسائهم : صحيح مسلم » كتاب الجهاد والسير » باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة :

١٧٣٠ إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول الله على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب جويرية ابنة الحارث..

والشرح :

قوله : (وهم غارون) أي : غافلون .

وفي هذا الحديث جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير إنذار بالإغارة ، .

وفي هذا الحديث : جواز استرقاق العرب؛ لأن بني المصطلق عرب، وهذا قول الشافعي في الجديد، وهو الصحيح، وبه قال مالك وجمهور أصحابه وأبو حنيفة والأوزاعي وجمهور العلماء، وقال جماعة من العلماء: لا يسترقون، وهذا قول الشافعي في القديم.

سلطانكتاب الأم للشافعي » كِتَابُ سِيَرِ الأَوْزَاعِيِّ » وَطْءُ السَّبَايَا بِالمِلْكِ: (كتاب الأم للشافعي ، والشافعي هو أحد الأئمة الأربعة أي علماء الدين الذي يجمع على إمامتهم كل المسلمين من أهل السنة)

وقال الأوزاعي : له أن يطأها ، وهذا حلال من الله عز وجل ، بأن المسلمين وطئوا مع رسول الله عليه السلام ما أصابوا من السبايا في غزوة بني المصطلق قبل أن يقفلوا.

السنن الكبرى للبهيقي»كتاب السير» جماع أبواب السير» باب وطء السبايا بالملك قبل الخروج من دار الحرب:

١٧٧٣٩ أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال : أصبنا سبايا في سبي بني المصطلق ، فأردنا أن نستمتع ، وأن لا يلدن، فسألنا عن ذلك رسول الله – عليه السلام – فقال : " لا عليكم أن لا تفعلوا ، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة " . رواه مسلم في الصحيح ، عن محمد بن الفرج مولى بني هاشم ، عن محمد بن الزبرقان .

تعليق : كما هو واضح من اسم الباب {باب وطء السبايا بالملك قبل الخروج من دار الحرب} هي أن المسلمين لم يريدوا الانتظار حتى العودة إلي بيوتهم وتقول الرواية أن الرسول سمح لهم باغتصاب السبايا في ميدان الحرب . !

صحيح مسلم » كتاب النكاح » باب حكم العزل :

١٤٣٨ وحدثنا يحيى بن أيوب.. عن محمد بن يحيى بن حبان عن ابن محيريز أنه قال دخلت أنا وأبو صرمة على أبي سعيد الخدري فسأله أبو صرمة فقال يا أبا سعيد هل سمعت رسول الله عليه السلام يذكر

العزل فقال نعم غزونا مع رسول الله عليه السلام غزوة بني المصطلق فسبينا كرائم العرب فطالت علينا العزبة ورغبنا في الفداء فأردنا أن نستمتع ونعزل.. فسألنا رسول الله عليه السلام فقال لا عليكم أن لا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة".

شرح النووي : معني العزل هو أن يجامع فإذا قارب الإنزال نزع وأنزل خارج الفرج . وقوله : (كرائم العرب) أي النفيسات منهم ، قوله : (فطالت علينا العزبة ورغبنا في الفداء) معناه احتجنا إلى الوطء وخفنا من الحبل فتصير أم ولد يمتنع علينا بيعها وأخذ الفداء فيها. فيستنبط منه منع بيع أم الولد وأن هذا كان مشهورا عندهم.

قول النبي: لا عليكم ألا تفعلوا ، ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون . معناه ما عليكم ضرر في ترك العزل . وفي هذا الحديث دلالة لمذهب جماهير العلماء أن العرب يجري عليهم الرق كما يجري على العجم وأنهم إذا كانوا (ص١٣) مشركين وسبوا جاز استرقاقهم (استعبادهم) لأن بني المصطلق عرب صلبية من خزاعة وقد استرقوهم ووطئوا سباياهم (عاشروهن جنسيًا) واستباحوا بيعهن وأخذ فدائهن. وبهذا قال مالك والشافعي في قوله الصحيح الجديد وجمهور العلماء .! مع أن ذلك لا يمكن أن يسمح به النبي ولم يحدث أصلا وإنما هو مدسوسات العرب من تاريخهم هم لا تاريخ النبي، لكن الفقهاء تلقوا هذا التاريخ بالقبول ! مع أن الله تعالى يقول وقال تعالى (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) / الأعراف

دليل آخر يؤكد السماح باغتصاب أسرى الحروب في بلادهم :

ﷺعون المعبود شرح سنن أبي داود » كتاب النكاح » باب في وطء السبايا:

أنه قال في سبايا أوطاس لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة.

تعليق: كما هو واضح أن بسبي هؤلاء النساء يلغى زواجهن ويحل اغتصابهن ولا يوجد غير شرطين فقط: الأول ألا يكن حوامل والثاني أن يحضن حيضة واحدة، ولكن لا مانع من اغتصاب البنات البكر

، ولا يعتبر ذلك زنا برغم أنه لا وجود لعقد نكاح وهم لا يشترطون موافقة الأسرى على هذا الوطء !. ولا نعتقد أن الاغتصاب في ميدان الحرب كان في خيام، وإنما كان في ساحات مفتوحة كما حفلات الجنس الجماعي ، لأن عدد الخيام لن يكفي العرب المهووسين بالجنس، إذا كانوا خرجوا في سبيل الله ! وبالطبع هذا هو تاريخ العرب قبل بعثة الرسول وبعد وفاته، لكنهم دمجوا تاريخهم الملوث في التراث الديني فأصبح دينا للشعوب التي فتحوها ! وعلينا إعادة هضم هذه الموروثات ووزنها بعقولنا لأننا سنحاسب يوم القيامة عن هذه الأفكار التي قبلناها من السلف دون تفكير فها، فببساطة علينا أن نضع أنفسنا مكان هؤلاء الأبرياء ونسأل، كيف يتم خطفهم واستعبادهم واغتصابهم؟ وما ذنبهم؟ فالحكمة تقول: كي تصل إلى الحقيقة، فعليك أن تقرأ من بلاط السلطان، وأن تقرأ للمسجونين خلف القضبان، لأن بذلك تتوازن الأمور كي تنجلي الحقيقة.. والظلم فقط هو الذي يوسع حدقة العين، أما من لم يتعرض للظلم فمن الصعب عليه إدراك مرارة هذا الظلم، وسيمر عليه وكأنه مجرد كلام نظري.. هل هذه أخلاق أناس رأوا الرسول الذي أرسل رحمة للعالمين وكان على خلقٍ عظيم؟ وهل بذلك انتفعوا بتعليمه وتزكيته؟

والخلاصة أن مثل هذا السلوك الإجرامي الهمجي لا يمكن أن يسمح به دين من الأديان، لا اليهودي ولا المسيحية ولا الزرادشتية، فكيف يسمح به الإسلام؟ ولا جاء به رسول مرسل أو نبي في قوم من البشر، ولا ورد بالتوراة ولا الإنجيل تصريح بهذه الأفعال الإجرامية، فاستخدام القوة في كافة الأديان حدوده الدفاع الشرعي، أما في أعراف المجتمعات فحدود القوة مفتوحة لتحقيق الغرض، والغاية تبرر الوسيلة، أما الاغتصاب أو الوطء أو الخطف عنوة فهل يكون دفاعا عن ماذا ؟ إن الاغتصاب هو فعل هجومي في حد ذاته ولا يمكن أن يكون دفاعا بأي حال من الأحوال، فالقتل قد يكون هجوميا وقد يكون دفاعا، وإذا كان هجوميا فهو جريمة وإذا كان دفاعيا فهو حق مشروع، أما الاغتصاب فهو جريمة في كافة الأحوال، ولا يتصور أن يكون حقا مشروعا لأي سبب. فهذا السلوك الهمجي يعود مباشرة إلى همجية العرب التي وصفها ابن خلدون، فهم مجتمع ضد المجتمع، وضد العمران وضد النظام، وليس من شأنهم إلا تخريب العمران وهدم الحضارات ونهب وسلب الشعوب، هذا السلوك التخريبي لم يتوقف عند حدود هدم الدور والقصور ولكنه امتد إلى هدم الإسلام ذاته إشباعا لرغباتهم البربرية، وهدم القيم والأخلاق، لقد سعى العرب على مدار تاريخهم إلى هدم الدين لأنه نظام وهم فوضويون لا يخضعون لنظام، حتى نظام السلوك الاجتماعي هدموه، بل إننا لو بحثنا في الحيوان والكلاب والضواري في الصحراء لن نجد حيوانا

يقبل على اغتصاب أنثى دون رضاها، لكن العرب قبلوا ذلك !، ولوثوا الدين وغرسوا عاداتهم الهمجية ودلسوا على الشعوب وصدروا لهم عادتهم الهمجية باعتبارها دين الله، والغريب أن البخاري إلتقم الطعم هو الآخر، وصدق أن هناك نبي مرسل من قبل الله جاء ليصرح لقومه باغتصاب بنات الناس وهتك أعراضهم في ميادين الحرب والقتال.!

كل هذا التراث العربي العفن اختلط بالدين الإسلامي فجعله ثقافة عربية، أي لم يعد لدينا دين إسلامي وإنما ثقافة عربية قذرة من مخلفات الصحابة الكرام، وهذا ما يثبت ارتدادهم عن الإسلام بالإجماع عقب وفاة الرسول ورحيله عنهم، وبالتالي علينا أن نتعامل مع الصحابة الكرام باعتبارهم هكسوس أفسدوا في الأرض فأنزل الله لهم جرعات علاجية لكنها لم تؤثر فيهم، بل تخضبت الجرعات العلاجية ببخرهم.. وإلا فنحن إذا تمسكنا بكونهم صحابة كرام عدول صادقين متبعين الرسول حق الاتباع فعلينا ألا نغضب من نفور الناس من هذا الدين ، ولنقرأ هنا مثال نقلته حرفيا للكاتب "سردار أمد" من موقع الحوار المتمدن، ضمن سلسلة مقالات وصلت إلى أكثر من ثلاثين مقال بعنوان" العبودية في الإسلام" وهي عبارة عن ثلاثين فضيحة فضيحة كل مقال فضيحة بحجم عشر صفحات، ويحاول الكاتب من خلال هذه الفضائح التشهير بالإسلام وإثبات أنه دين غجر وليس فيه إنسانية، وأن رسوله كان غجريا مجرما يخطف النساء والأطفال ويغتصب وليس فيه رحمة مقارنة بعيسى عليه السلام، والكاتب محق في ذلك إذا صدقنا على روايات البخاري والفقهاء، إنما لو حذفنا كلمة "المسلمين" – " الصحابة" – "النبي" التي أوردها الكاتب في مقالاته ووضعنا بدلا منها كلمة "العرب" لخرجنا بنتيجة مفادها أن هناك دين اخترعه الصحابة العرب من جاهليتهم الأولى والثانية، أما الإسلام الذي جاء به محمد فقد تركه أبي بكر وعمر وعثمان وجميعهم ركنوه واستعملوا ثقافتهم الهمجية الهكسوسية، وطالما نحن معجبين بهم فطبيعي نرى ممارساتهم الإجرامية جهاد في سبيل الله وطبيعي أن نسميهم صحابة كرام وندعو لهم ونقول " رضي الله عنهم" أيضا باعتبارهم قدوة ورموز دينية مقدسة لنا..

وفيما يلي نقدم للقارئ نموذج من سلسلة المقالات هذه للكاتب "سردار أمد" من موقع الحوار المتمدن بعنوان: " فقه الوطء والركوب في الإسلام ".

"فقه الوطء والركوب في الإسلام"

ونرجو من القارئ الكريم استبدال كلمات (الصحابة –المسلمين- النبي) بكلمة العرب كي يستقيم السياق في الحديث عن القومية العربية وليس دين الإسلام الذي شهوته القومية العربية ولطخته بظاهرة الخنزير البري، لأن ظاهرة الخنزير البري من سمات القومية العربية وليست من الإسلام، ولكن عندما مارسها الصحابة العرب ألصقوها بالإسلام فصارت دينا لنا !

يقول الكاتب: وطئ أي وضع قدمه على الأرض أو على الشيء وداس عليه، ونزل بالمكان، ووطئ الجارية ركوبها "مصطلحات إسلامية" فالجارية في الإسلام يحل لمالكها، سواء عن طريق السبي أو الشراء من السوق أن يطأها ويضاجعها بمجرد الملك،((وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) المؤمنون))، والإسلام نظم مسألة ركوب الجارية، وسن لها القوانين خاصة، وميزها عن ركوب الحرة المحصنة، حيث جعل ركوب الجارية واغتصاب أعراض الناس في متناول جميع المسلمين مكافأة لهم على غزوهم في سبيل الله وإيمانهم بالله والنبي المصطفى.

أما "وطئ الكافر للمسلمة فهو زنا محض" (الأنساب للسمعاني-ج١ ص٢٠٧)، فالمسلمون يحللون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم، ودعائهم " اللهم أجعل نسائهم سبايا للمسلمين" ما يدل إلا على شبق جنسي واسترخاص لحرمات الناس، وبعد كل ذلك يقول نبي الإسلام "إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاقِ."

* * *

الاغتصاب في سبيل الله:

السبي هو النهب وأخذ الناس عبيدا، وأما السبية فهي المرأة المنهوبة، والسبايا الأسرى من النساء والأطفال. والنبي محمد تاجر الرقيق المبشر بالجنة، أباح حرمة الناس عند السبي وأعتبرها من الغنيمة وجعل ذلك قانونا إلاهيا، وسلوكا للتقرب من الله، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

قال الفرزدق: وذات حليل أنكَحتها رماحنا ...... حلال لمن يبنى بها لم تطلق

وقال أبو عمار: هنيئا ببكرٍ في الفتوح نكحتها ...... وما قبضت غير المنية في النقد

وكذلك قال ابن خطيب سوسة: أنكحتها بكرا وما أمهرتها...... إلا قنا و صوارما و فوارسا

"يقول الأوزاعي: « له أن يطأها وهذا حلال من الله عز وجل بأن المسلمين وطئوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابوا من السبايا في غزوة بني المصطلق قبل أن يقفلوا» (معرفة السنن والآثار للبيهقي- وطأ السبايا بالملك قبل الخروج ج١٤ ص٤٣٦)

"قال الله تعالى: (والمحصنات) ذوات الأزواج الحرائر (إلا ما ملكت أيمانكم) فإذا هو لا يرى بما ملك اليمين بأسا أن ينزع الرجل الجارية من عبده فيطأها، وأخرجه ابن أبى شيبة من طريق أخرى عن التيمى بلفظ ذوات البعول وكان يقول بيعها طلاقها، والأكثر على أن المراد بالمحصنات ذوات الأزواج يعنى أنهن حرام وأن المراد بالاستثناء في قوله (إلا ما ملكت أيمانكم) المسبيات إذا كن متزوجات فإنهن حلال لمن سباهن." (فتح الباري لأبن حجر- باب ما يحل من النساء وما يحرم- ج١٤ ص٣٥١)

"أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا وتأثموا من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: { والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم } وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي " (تفسير ابن كثير- باب٢٤ ج٢ ص٢٥٧)

"لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا أصاب المسلمون سبايا، فكان الرجل إذا أراد أن يأتي المرأة منهن قالت: إن لي زوجا. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له، فأنزل الله {والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم} قال: السبايا من ذوات الأزواج. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس في قوله {والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم} قال: كل ذات زوج إتيانها زنا إلا ما سبيت " (الدر المنثور- باب٢٤ ج٣ ص٧٥)

وكلمات ابن المعتز التالية توضح لنا صورة الزوج والزوجة عند السبي أو الجهاد في سبيل الله:

فكَم أباحَ مِن حريمٍ مَمنوع .... وكَم قتيلٍ وجريحٍ مصروع

وكَم وكَم مِن حرَةٍ حواها .... سَبيَةً وزوجها يراها

ويقول الأسود بن قطبة ـ شاعر المسلمين آنذاك ـ توفي في ١٨هـ ٦٣٩م:

وليلى قد سَبَيناها جهارا .... وأروى بنت موذنَ في ضُروبِ

وريحانَ الهَذيلِ قد اِصطفَينا...... وقلنا دونكُم علَقَ الذنوبِ

ويقول أعشى همدان: وإلا تناولهنّ منكَ برحمَةٍ ...... يكُنّ سَبايا والبُعولة أعبُدا

ويقول الكاتب حكيم الليبي في مقالته تلاشي الأوهام وتهاوي الأصنام "من المعلوم في الجاهلية أن العرب كانوا يتحرجون من مواقعة السبايا إذا كن ذوات أزواج عسى أن يفديهن أزواجهن أو أبناؤهن من الأسر قبل أن تنتهك أعراضهن، وخوفا من أن يكن قد علقن شيئاً من أزواجهن"

* * *

الأحكام العامة للوطء:

..."لا يجوز أن تكون المرأة زوجة له ويحل فرجها لغيره. والأمة تكون مملوكة له وفرجها حلال لغيره إذا زوجها وحرام عليه وهو مالك رقبتها وليس هكذا المرأة يحل عقدها جماعها ولا يحرم جماعها والعقد ثابت عليها ..." (كتاب الأم المجلد الخامس ـ ص١٥٧٩)

"وقد منعت المقدتان وان ينام بين زوجتين حرتين لما فيه من الامتهان بهما أو يطاء حرة وفي البيت غيره وقد تقدم ولا بأس بهما في الإماء للأصل وانحطاطهن على الحراير في الاحترام، وعن مرسل ابن أبي نجران أن أبا الحسن عليه السلام كان ينام بين جاريتين وصحيح ابن أبي يعفور عن الصادق صلوات الله عليه في الرجل ينكح الجارية من جواريه ومعه في البيت من يرى ذلك ويسمعه قال لا بأس."(كشف اللثام (ط.ق)ـ الفاضل الهندي ج٢ـ ص٦٨)

"محمد بن الحسن بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الرجل ينكح الجارية من جواريه ومعه في البيت من يرى ذلك ويسمعه، قال: لا بأس." (وسائل الشيعة ج٢١ ص١٩٤)

"باب أن يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها: ولم ير الحسن بأسا أن يقبلها أو يباشرها وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا وهبت الوليدة التي توطأ أو بيعت أو عتقت فليستبرأ رحمها بحيضة ولا تستبرأ العذراء وقال عطاء لا بأس أن يصيب من جاريته الحامل ما دون الفرج (صحيح البخاري ج٧ ص٤٨١ـ فتح الباري، جامع الأصول)

"ويكره للرجل أن يطأ جاريته الفاجرة، ولا بأس أن يطأ أمة اشتراها من دار الحرب، وكان لها زوج هناك، وأن يشتري من الكافر بنته أو ابنه أو مما يسبيه الظلمة، ويستحل فرج نسائهم إذا كانوا مستحقين للسبي ... (من كتاب إصباح الشيعة بمفتاح الشريعة، تأليف قطب الدين البيهقي الكيدري)

... "عن عبد الله اللحام قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الرجل يشتري امرأة الرجل من أهل الشرك يتخذها، قال: لا بأس،... و قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل يشتري من رجل من أهل الشرك ابنته فيتخذها أمة؟ قال: لا بأس... ،... عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال: سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن سبي الأكراد إذا حاربوا ومن حارب من المشركين، هل يحل نكاحهم وشراؤهم؟ قال: نعم. (وسائل الشيعة ج٢١ـ ص١٨٩ـ١٩٠)

"إن الأمة تصير فراشا بالوطء، فإذا اعترف السيد بوطء أمته أو ثبت ذلك بأي طريق كان ثم أتت بولد لمدة الإمكان بعد الوطء لحقه من غير استلحاق كما في الزوجة، لكن الزوجة تصير فراشا بمجرد العقد فلا يشترط في الاستلحاق إلا الإمكان؛ لأنها تراد للوطء فجعل العقد عليها كالوطء. بخلاف الأمة فإنها تراد لمنافع أخرى فاشترط في حقها الوطء" (فتح الباري لأبن حجر ـ ج١٩ ص١٤٧)

"قال أبو حنيفة في رجل اشترى جارية فأصابها ثم جاء العلم بأنها حرة: أن على الذي وطئها مهر مثلها بمسيسه إياها إن علم بحريتها حين وطئها أو لم يعلم (الدرر السنية ج٣ ص١٩٦)

"إذا عالج الرجل جاريته فيما دون الفرج فأنزل فأخذت الجارية ماءه في شيء فاستدخلته فرجها في حدثان ذلك فعلقت الجارية وولدت فالولد ولده والجارية أم ولد له" (البحر الرائق شرح كنز الدقائق ـ ج١٢ ص٩٦)

"قول الشافعي في أن السباء يقطع العصمة {أي سبيها طلاقها} ، وقال ابن وهب وابن عبد الحكم وروياه عن مالك، وقال به أشهب. (تفسير القرطبي ج٥ ص١٢١)

"روى البيهقي أن ابن عمر قبَل التي وقعت في سهمه من سبايا أو طاس قبل الاستبراء، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة." (فتح الوهاب ـ ج٢ ص١٩٢)

"حل وطئ من قالت أرسلني مولاي هدية إليك " (حاشية رد المحتار ـ ج٤ ص١٨٧)

-قواعد وأحكام أخرى للوطء رأيت وجوب إعادة ذكرها، بالرغم من أن بعضها مذكور في الحلقة السابقة (الرابعة) في باب رهن أو بيع الجواري، لكن أعيد ذكر بعضها كون الحلقة مخصصة لوطئ الجواري:

"قال في رجل ابتاع جارية ولم تطمث، قال : «إن كانت صغيرة لا يتخوف عليها الحبل فليس له عليها عدة وليطأها إن شاء، وإن كانت قد بلغت ولم تطمث فإن عليها العدة» (الوسائل ، ج٢١ كتاب النكاح ، أبواب نكاح العبيد والاماء ، ب٣ ح ١)

..."سئل الصادق عليه السلام عن الجارية التي لا يخاف عليها الحبل قال ليس عليها عدة ... عن الصادق صلوات الله عليه في رجل ابتاع جارية ولم تطمث قال إن كانت صغيرة لا تتخوف عليها الحبل فليس عليها عدة وليطأها إن شاء" (كشف اللثام (ط.ق) الفاضل الهندي ج ٢ ص٦٦)

وقيل غير ذلك "...شمل وجوب الاستبراء إذا وطأها ما لو كانت صغيرة لا يتصور حبلها..." (تحفة المحتاج في شرح المنهاج- باب الاستبراء ج٣٥ ص٢٠٩)

قيل في شرح الوجيز، ج١٠ ص٩٦ "...فلو كانت الجارية المرهونة بكرا فليس للراهن وطؤها بحال لان الافتضاض ينقص قيمتها"...

"وذكر في وطئ الثيب: إن وطئ الراهن أمته المرهونة غصبا عن مرتهنها فإن لم يحبلها بقيت رهنا. (منح الجليل شرح مختصر خليل- ج١١ ص٤٧٩)

"صفة البكارة في الجارية بمنزلة جزء من عين، هو مال متقوم ولهذا استحق بالبيع شرطا، والدليل على الفرق أن المشتري بعدما وطئ البكر ليس له أن يبيعها مرابحة من غير بيان وفي الثيب له أن يبيعها مرابحة بعد الوطء من غير بيان، وكذلك لو كانت ذات زوج فوطئها الزوج عند المشتري، فإن كانت بكرا ليس للمشتري أن يردها بعيب النكاح بعد ذلك، وإن كانت ثيبا فله ذلك. وكذلك البائع إذا وطئ المبيعة قبل القبض، فإن كانت ثيبا لم يسقط شيئا من الثمن ولا يتخير المشتري به في قول أبي حنيفة بخلاف ما إذا كانت بكرا". (المبسوط- باب العيوب في البيوع- ج١٥ ص٤٨٩)

..."لو وكل رجلا بأن يشتري له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها..." (أحياء علوم الدين- الشك في السبب المحلل والمحرم- ص٤٧٧)

"قال أبو حنيفة في رجل دفع إلى رجل مالا مضاربة فعمل فيه فربح ثم اشترى من ربح المال جارية فوطئها فحملت منه فادعى الحبل فإن كان فيه فضل كانت أم ولده وغرم رأس المال _ الخ (الدرر السنية ج٣ ص٣٠) وقال أهل المدينة : أن أشتري جارية من ربح المال أو من جملته فوطئها فحملت منه ونقص المال

أخذت قيمة الجارية من ماله، وإن لم يكن له مال بيعت الجارية حتى يوفى المال من ثمنها (الدرر السنية ج٣ ص٣١)

"قضى النبي صلى الله عليه وسلم في رجل وطئ جارية امرأته إن كان استكرهها فهي حرة وعليه لسيدتها مثلها، وإن كانت طاوعته فهي له وعليه لسيدتها مثله" (سنن النسائي- إحلال الفرج ج١١ ص٢٠)

عن الغير مسلم " إن كان خرج إلى دار الإسلام ثم أسلم ثم ظهر المسلمون على الدار فأهله وماله وأولاده أجمعون فيء (غنيمة حرب للمسلمين)..." (المبسوط- بيع السبي من أهل الذمة ج١٢ ص١٣٠)

* * *

الوطء بين الابن والأب والجد:

"إن احتاج الأب إلى زوجة والابن موسر وجب عليه أن يزوجه أو يشتري له جارية". (درر الحكام شرح غرر الأحكام- نفقة الأمة ج٤ ص٤٨١)

"إذا وطئ الرجل جارية ابنه وإن كان الابن قد وطئ فلا حد على الأب" (القواعد لأبن رجب ج١ ص٣٠١) (لا حد أي ليس من الحدود ولا يعتبر زنا)

"لا حد على من وطئ جارية ولده وولد ولده وإن قال علمت أنها علي حرام) لأن الشبهة حكمية؛ لأنها نشأت عن دليل وهو قوله عليه الصلاة والسلام" {أنت ومالك لأبيك} والأبوة قائمة في حق الجد. (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ج٧ ص٣٩٢) فالنبي محمد لما يقول أنت ومالك لأبيك يعني أن الأب حر بمال أبنه والجارية (الدابة) جزء من ذلك المال فهو حر بركوبها.

..."أما لو كانت في ملكه (أي في ملك الأب) ثم باعها ثم أخبر بأنه وطئها حين كانت في ملكه لا تحل لابنه." (حاشية رد المحتار- ج٣ ص٣٥)

والأب "يجوز قياسا على ما لو وهب ولده جارية يحل له وطؤها مع جواز استرجاع الأب لها بعد وطء الولد. (مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للإمام الخطيب الشربيني) "لا يجوز لأب أن يطأ جارية ابنه من غير إذن أو عقد فإن فعل فلا حد سواء وطيها الابن قبل ذلك أو لا.... " تحرير الأحكام (ط.ق) - العلامة الحلي ج٢ ص١٢)

-أن الأب إذا وطئ جارية ابنه لم يحد؛ لأن الأب له في مال ابنه حق فكان كالشريك يطأ جارية له فيها شرك فيدرأ عنه الحد بما له فيها من الحق، وتقوم على الأب وإن لم تحمل ولا يلزم تقويمها على الشريك إلا أن تحمل، وذلك أن وطء الأب يحرمها على الابن، ولا يحرم وطء الشريك الأمة على شريكه وبالله التوفيق. (المنتقى- شرح الموطأ- ما لا حد فيه- ج٤ ص١٦٤)

"من وطئ جارية أبيه فولدت منه فادعاه فهي أم ولده، وعليه قيمتها" (مجمع الضمانات- باب في النكاح والطلاق- ج٦ ص٢٦٩)

"ويملك الأب أمة ولده بتلذذه بها بالوطء، أو مقدماته بالقيمة يوم التلذذ، ويتبع بها في ذمته أن أعدم، وتباع عليه في عدمه إن لم تحمل." (موسوعة الفقه الإسلامي- ولاية الأب في النكاح- ج١ ص٢٤)

"روي عن أبي يوسف {رحمه الله تعالى} في جارية بين رجل وابنه وجده جاءت بولد ادعوا جميعا معا فالجد أولى وعليهما مهر تام للجد إذا صدقهما الجد أنهما وطئاها ، فإن لم يصدقهما فلا شيء عليهما ولا تحل هذه الجارية للجد، وإن كذبهما في الوطء فليس هذا كالابن إذا ادعى أنه وطئ جارية أبيه وكذبه الأب فإنها لا تحرم عليه ، كذا في الحاوي." (الفتاوى الهندية- الفصل الرابع في دعوة ولد- ج٣٠ ص٨٧).

"لو وطئ جارية مشتركة بينه وبين ابنه فجاءت بولد فادعاه يجب عليه العقر مع أنه يملك البعض فهذا أولى لعدم ملكه ألبتة" (تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق- باب نكاح الرقيق- ج٦ ص٥٦)

"في رجل وطئ جارية مشتركة بين ابنه وبين أجنبي فولدت قال عليه نصف قيمة الأم للابن وعليه للآخر نصف قيمتها ونصف عقرها" (الفتاوى الهندية- ج٣٠ ص٨٦)

"وإن وطئ جارية مشتركة بينه وبين غيره أو جارية ابنه عزر، ولا يحد؛ لأن الحد يدرأ بالشبهة، وإن وطئ أخته بملك اليمين ففيه قولان أحدهما يحد؛ لأن ملك اليمين لم يبح وطأها فلم يسقط الحد. والثاني : يعزر وهو الأصح" (معالم القربة في طلب الحسبة- ج١ ص٢٤٩) ويعزر أي بما دون الحد.

"اتكأ جحا على جارية أبيه وهي نائمة، فقالت: من ذا؟ فقال: اسكتي، أنا أبي" (ربيع الأبرار- الملح والمداعبات والمضحك- ص٤٢٧).

* * *

أخت الجارية أو أمها:

"يجوز أن يملك أختين وله وطء إحداهما، فمتى وطئها حرمت أختها حتى تحرم الموطوءة بتزويج أو إخراج عن ملكه ويعلم أنها غير حامل، فإذا وطيء الثانية ثم عادت الأولى إلى ملكه لم تحل له حتى تحرم الأخرى وعمة الأمة وخالتها في هذا كأختها،...(موطأ الإمام مالك- كتاب الطلاق)

..."ويجوز أن يتزوج بأخت أخيه إذا لم تكن أختا له وروى أن تركه أفضل وكذا يجوز للسيد أن يتزوج باختى عبده إذا كانت احديهما أخته من أبيه والأخرى من أمه ويجوز أن يجمع بين المرأة وزوجة أبيها أو وليدته إذا لم تكن أمها وبين امرأة الرجل وبنت امرأته إذا كانت من غيره ...." تحرير الأحكام (ط.ق) - العلامة الحلي ج٢ ص١٣)

..."قال: ولو أن رجلا له امرأة من أهل الشرك فأسلم الزوج واشترى أخت امرأته فوطئها ثم أسلمت امرأته في العدة حرم عليه فرج جاريته التي اشترى ولم تبع عليه وكانت امرأته امرأته بحالها وكذلك لو كانت هي المسلمة قبله واشترى أختها أو كانت له فوطئها ثم أسلم وهي في العدة قال: ولو كانت عنده جارية فوطئها فلم يحرم عليه فرجها حتى وطئ أختها اجتنبت التي وطئ آخرا بوطء الأولى وأحب إلي لو اجتنب الأولى حتى يستبرئ الأخرة وإن لم يفعل فلا شيء عليه إن شاء الله تعالى. قال: سواء في هذا ولدت التي وطئت أولا أو آخرا أو هما أو لم تلد واحدة منهما ولو حرم فرج التي وطئ أولا بعد وطء الآخرة أبحت له وطء الآخرة ثم لوحل له فرج التي زوج فحرم فرجها عليه بأن يطلقها زوجها أو تكون مكاتبة فتعجز لم تحل له هي وكانت التي وطئ حلالا له حتى يحرم عليه فرجها فتحل له الأولى ثم هكذا ..." (كتاب الأم- المجلد الخامس- ص١٥٧٩)

"قال في التاترخانية:... وكذا (وطئ) الامة المملوكة إذا كانت محرمة عليه برضاع أو مصاهرة أو لكون أختها مثلا في نكاحه أو هي مجوسية أو مرتدة فلا حد عليه وإن علم الحرمة " (حاشية رد المحتار- ج٤ ص١٨٧) أي أن وطئ الأختين غير مسموح به، لكن لو فعلها المؤمن فلا حد عليه.

* * *

وطئ الجارية المشتركة:

"قيل فيمن أحلَ جاريته لأخيه حيث ورد فيها: قلت: أرأيت إن أحلَ له ما دون الفرج فغلبته الشهوة فافتضها؟ قال: لا ينبغي له ذلك. قلت: فإن فعل أ يكون زانيا ؟ قال: لا، ولكن يكون خائنا، ويغرم

لصاحبها عشر قيمتها إن كانت بكرا، وإن لم تكن فنصف عشر قيمتها." (الوسائل، ج ٢١ كتاب النكاح، أبواب نكاح العبيد والإماء، ب ٣٥ ح١)

"لو وطئ جارية مشتركة بينه وبين غيره فان توهما لحل فلا حد وان كان عالما بالتحريم سقط عنه بقدر نصيبه وحد بنسبة نصيب الشريك" تحرير الأحكام (ط.ق) ـ العلامة الحلي ج٢ ـ ص٢٢٠

"في رجل وطئ أمة نصفها له ونصفها حر لم يحد، ووجه ذلك أن له فيها شركا يوجب لها أحكام الرق كالتي نصفها رقيق لغيره" (المنتقى، شرح الموطأ ـ ما لا حد فيه ـ ج٤ ص ١٦٤)

"وطيء الشريكان الجارية المشتركة لزمها استبراءان على الصحيح كما لا تتداخل العدتان وقيل يكفي استبراء ذكره في العدد" (خبايا الزوايا ج١ ص٣٩١)

"لو وطئ الأمة شريكان في طهر أو حيض ثم باعها أو أراد تزويجها أو وطئ اثنان أمة رجل كان يظنها أمته وأراد الرجل تزويجها وجب استبراءان كالعدتين من شخصين" (تحفة المحتاج في شرح المنهاج ـ باب الاستبراء ـ ج٣٥ ص٢٠٨)

"إذا وطئ رجلان امرأة بشبهة، وأتت بولد يمكن من كل منهما فإنه يعرض على القائف فإن ألحقه بأحدهما فالأمر ظاهر. فإن لم يوجد قائف، أو تحير، أو نفاه عنهما، أو ألحقه بهما انتسب بعد كماله لمن يميل طبعه إليه، سواء كان الولد ذكرا، أو أنثى" (حاشية البجيرمي على الخطيب ـ ج١١ ص٤٥٥) ذكر في المعجم الوسيط: قاف أثره قوفا وقيافة اتبعه فهو قائف (ج) قافة.

... "أن عمر ابن الخطاب دعا القافة في رجلين، ادعيا ولد امرأة وقعا عليها في طهر واحد، وإن كان وقع عليها السيد بعد انقضاء العدة، فالولد لسيدها، وذكر النكال. (مصنف عبد الرزاق ـ ج٧ ص٢١٩)

"إذا اشترك ثلاثة في وطء أمة في طهرٍ ملكها كلٌ واحدٍ منهم فيه، فجاءت بولدٍ وادعوه جميعا فيقرع بينهم، ومن استحقه بالقرعة فعليه للآخرين ثلثا الدية. (الدرر البهية في المسائل الفقهية للإمام الشكواني)

..."وعن زيد بن أرقم قال: أتي علي في اليمن بثلاثة نفر وقعوا على جارية في طهر واحد فولدت ولدا فادعوه فقال علي لأحدهم: تطيب به نفسا لهذا؟ قال: لا. قال: أراكم شركاء متشاكسين، إني مقرع بينكم، فما أجابته القرعة أغرمته ثلثي القيمة وألزمته الولد، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أجد فيها إلا ما قال علي." (الرياض النضرة في مناقب العشرة- ج١ ص٢٦٩)

"عن عبد الكريم عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : الرجل يحل لأخيه فرج جاريته ؟ قال : نعم حل له ما أحل له منها ..... عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يكون له المملوكة فيحلها لغيره ؟ قال : لا بأس..." (بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ٣٢٦)

"وحدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا عبد العزيز بن الربيع بن سبرة بن معبد قال سمعت أبي الربيع بن سبرة يحدث عن أبيه سبرة بن معبد أن نبي الله صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة أمر أصحابه بالتمتع من النساء قال فخرجت أنا وصاحب لي من بني سليم حتى وجدنا جارية من بني عامر كأنها بكرة عيطاء فخطبناها إلى نفسها وعرضنا عليها بردينا فجعلت تنظر فتراني أجمل من صاحبي وترى برد صاحبي أحسن من بردي فآمرت نفسها ساعة ثم اختارتني على صاحبي فكن معنا ثلاثا ثم أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقهن" صحيح مسلم، وكما هو واضح من هذا الحديث الشريف أن الجنس الجماعي مسموح به في بعض الحالات، كحالة الغزو والسبي.

..."لو وطئ اثنان جارية مشتركة بينهما فاتت بولد اقرع بينهما فمن خرج اسمه لحق به الولد وتوارثا وضمن للباقين من الشركاء حصصهم فان وطأها نفسان في طهر واحد بعد انتقالها من واحد منهما إلى الآخر كان الولد لاحقا بمن عنده الجارية..." (تحرير الأحكام (ط.ق)- العلامة الحلي ج٢- ص١٧٤)

* * *

الوطء أثناء الجهاد (في سبيل الله):

فيئا للمسلمين أي غنيمة للجيش بحسب آية الأنفال، يقسم مال الفيء على خمس فرق يصرف خمسه على من يصرف عليهم خمس الغنيمة ويعطى أربعة أخماسها للمقاتلة {يسهم بينهم} وفي مصالح المسلمين.

"إن وطئ جارية من المغنم قبل القسمة وهو من الغانمين فلا حد عليه وإن قال: علمت أنها حرام لأن الغنيمة مشتركة بين الغانمين فله حكم الملك ولا يثبت نسب الولد" (الجوهرة النيرة- مسألة الشهادة على الإحسان-ج٥ ص١٣٢)

"الوطء في دار الحرب لا يجب فيه شيء وقد نقله في التتارخانية بصيغة قال محمد فكان هو المذهب قال وكذا إذا قتل واحدا من السبي أو استهلك شيئا من الغنيمة في دار الحرب فلا ضمان عليه لا فرق بين أن يكون المستهلك من الغانمين أو غيرهم" (البحر الرائق شرح كنز الدقائق- ج١٣ ص٣٣٩)

"ولا يجوز لأحد منهم أن يطأ جارية من السبي إلا بعد أن يعطاها بسهمه فيطأها بعد الاستبراء. فإن وطئها قبل القسمة عزر ولا يحد." (نهاية الأرب في فنون الدب- قادة الجيوش والجهاد- ج٢ ص٢١٤)

"قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إذا كان الإمام قد قال من أصاب شيئا فهو له فأصاب رجل جارية لا يطؤها ما كان في دار الحرب وقال الاوزاعي له أن يطأها وهذا حلال من الله عز وجل بأن المسلمين وطئوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابوا من السبايا في غزاة بني المصطلق قبل أن يقفلوا ولا يصلح للإمام أن ينفل سرية ما أصابت ولا ينفل سوى ذلك إلا بعد الخمس فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كان ينفل في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث" (الأم –ج٧ ص٣٧١)

"عن الجويني والقفال وغيرهما أنه يحرم وطئ السراري اللاتي يجلبن من الروم والهند والترك إلا أن يُنصب الإمام من يقسم الغنائم من غير ظلم أي يفرز خمس الخمس لأهله." (إعانة الطالبين ج٤ ص٦٤.)

* * *

كأن أعراض الناس وكرامتهم نِعم انزلها لله لمحمد وآله وأصحابه وبقية المغتصبين من السماء، والجنس هو الغاية والهدف الأسمى دنيا وآخرة، وهو السبب الرئيسي للجهاد عند ذلك القوم، فهذا (تعطير الأنام في تفسير الأحلام- باب الظهر ج١ ص٢٠٧) يقول: الظبية هي في المنام جارية حسناء عربية. فمن رأى

أنه ملك ظبية فإنه يمكر بجارية، وإن رماها بحجر فإنه يطأها. فإن رماها بسهم قذف جارية. فإن رأى أنه أخذ ظبيا فهو غلام.

"روى ثابت في الدلائل: إن خالدا رأى امرأة مالك وكانت فائقة في الجمال، فقال مالك بعد ذلك لامرأته: قتلتيني.(حيث أن خالدا بعد ذاك أتهم مالك بالردة وقتله) وقال الزمخشري وابن الأثير وأبو الفداء والزبيدي: إن مالك بن نويرة (رضي الله عنه) قال لامرأته يوم قتله خالد بن الوليد: أقتلتِني؟! وكانت جميلة." ومالك كان معروفا بإسلامه، ولم يكن هناك اتفاق على أنه مرتد، ورغم عدم الاتفاق إلا أن السيد خالد بن الوليد أخذ زوجة الرجل باعتبار أن زوجة المرتد تعتبر غنيمة.

حتى حاتم الطائي العربي وسيد قومه المعروف بأخلاقه العالية وكرمه، لم يسلم ولم يعفو له كل ذلك، وتعرضت قبيلته لغارة وأصبحت نساؤها سبايا، ولولا أن النبي محمد أعتق أبنته لكانت هي أيضا مركوبة للمؤمنين عظم الله أجرهم، لكن للأسف فحظ باقي قومها لم يكن كحظها وقد أصبحن سبايا القرشيين، قيل في (تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص٧٧). "..فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يحبسن بها."...

بعد كل ما ذكر لا بد من أن نذكر بعض سبايا النبي محمد: ـ جويرية بنت الحارث: وهي من بني المصطلق سباها الرسول في العام الخامس للهجرة. ـ ريحانة ابنة عمرو بن حذافة: وهي من سبى بني قريظة، و كانت متزوجة فيهم رجلا يقال له الحكم و كانت جميلة وسيمة، فأخذها الرسول كغنيمة حين وقعت في سبى بني قريظة، وذلك في السنة السادسة للهجرة. ـ صفية بنت حيَ: وهي أسيرة يهودية من سبايا خيبر، أغتنمها محمد في السنة السادس للهجرة، حيث قتل محمد زوجها كنانة بن الربيع صاحب حصن خيبر، وقتل أباها حيَ ابن احطب، وقتل أخاها، وأصفاها لنفسه. ـ نفيسة: وهبتها له زينب بنت جحش و كان هجرها "أي زينب" في صفية بنت حيى ذا الحجة و المحرم و صفر فلما كان في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم رضي عن زينب و دخل عليها فقالت: ما أدرى ما أجزيك به فوهبتها له. ـ مارية القبطية بنت شمعون أم ولده إبراهيم: أهداها له المقوقس صاحب مصر و الإسكندرية السنة السابعة للهجرة. "..

رابط المقال: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=171541

رابط موقع الكاتب على الحوار المتمدن: http://www.ahewar.org/m.asp?i=2379

وكما يبين من كلام الكاتب أنه لا يعرف الفرق بين الإسلام والصحابة الكرام الذين اخترعوا لهم دينا غير الإسلام ينتهكون به أعراض الناس ويمارسون الفسق باسم الإسلام غطاءً لجرائمهم.. فهؤلاء الذين نسميهم صحابة ونعتقد أنهم اتبعوا رسول الله، فهل كان هذا دينهم ! وهل يمكن اعتبار هذا دين ! فما الفائدة بينه وبين الكفر والشرك ! إذ أن الكفر والشرك مع الإنسانية والأدب والأخلاق أفضل من إيمان الصحابة الكرام مع كل هذا الفسق وقلة الأدب وانتهاك أعراض الناس..

أذكر أن الدكتور ذاكر نايك الداعية الإسلامي الشهير والذي نشر الإسلام في شرق آسيا وفي ربوع الأرض، وهو رجل إنساني عذب اللسان رقيق الخطاب، ما جعل الهنود والهندوس والبوذيون يقبلون على الإسلام بالملايين، وتقام مؤتمراته وندواته في أكبر القاعات ويحضرها مئات الآلاف من البشر للتعرف على الدين الإسلامي، وعادة ما يعتنق أغلبهم الإسلام قبل مغادرة القاعة، لم يكن يمسك بيده سيفا كـ"الشيطان المسلول"، ولم يستخدم السهام ولا الرماح في رشق الناس، فقط استخدم خطابه الإنساني الذي أسر قلوب الملايين كما كان يفعل النبي، لكنه في أحد المؤتمرات في اليابان تعرض لسؤال محرج من محامية، هذه السيدة أوشكت على اعتناق الدين الإسلامي، وقالت أنها لا تعتنق أي دين من الأديان في الوقت الحالي، لكنها تبحث عن أكثر الأديان احتراما للإنسانية.. ولما رد عليها الدكتور ذاكر بأن الإسلام هو خاتم الرسالات وأكثرها شمولية واحتراما للإنسانية، قاطعته قائلة: ماذا عن الفتوحات وغزو الهند في العصور الوسطى؟، وسألته عن المجازر التي وقعت خلال هذه الفتوحات وعن النساء التي تم اختطافهم تحت مسمى "سبي" وعن الأطفال الذين تم بيعهم في أسواق النخاسة والشباب الذين تم خصائهم ليعملوا في قصور الحكام، وقبل أن يرد عليها قالت له، هل تعتقد أن الإنسانية قديما تختلف عن الإنسانية حديثا؟ فلو كان الأمر كذلك، فمن الأفضل اعتناق ميثاق بالأمم المتحدة لحقوق الإنسان لأنه الأحدث والأكثر احتراما لحقوق الإنسان من الأديان القديمة..

فحاول الدكتور ذاكر الهروب من أسئلتها المحرجة قدر الإمكان ملفتا نظرها إلى أن أمريكا والغرب عموما يسعون دائما لتشويه الإسلام وهو دين السلام والرحمة، بينما يتهمونه بالإرهاب والقتل والترويع وسفك الدماء من خلال الحملات الدعائية المغرضة. قال لها إن الإسلام ومبادئه السمحة أفضل وأرقى من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، بل إن الإسلام قد سبق هذا الميثاق بألف وأربعمائة عام من الزمان

لكفالة حقوق الإنسان وضمان العيش في سلام وحماية الأوطان والأموال والنساء والأطفال للمسلمين وغير المسلمين. فحدثته عن حق المجاهدين في اغتصابها إذا تمكنوا من دخول بلدها كما فعل الصحابة في الفتوحات، أو أن يتخذها أحدهم زوجة له رغما عنها ليغتصبها في خيمته باعتبارها ملك يمينه أو يبيعها لتجار النخاسة، هل هذا من دينكم؟ هذا يتنافى مع الإنسانية.. غير أن أمريكا والغرب الذي يسعى لتشويه الدين بحملات دعائية لم يكن موجودا في تلك العصور.. بل إن هذه الوقائع وردت في كتبكم أنتم وتعاليمكم الدينية..

وهنا شعر الداعية أنه كاد أن يفقد مصداقيته أمام الجماهير إذا عجز عن الرد، فحاول التغطية على أسئلتها المحرجة بآيات من القرآن، لكن السيدة أشارت إلى شيء مرعب وهو عنوان الباب الوارد في صحيح البخاري الذي يقول المسلمون بأنه أصح كتاب بعد القرآن، وهو ((باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية)) ، فالواضح أن هذا الباب يعني بوضوح أحقية العرب في خطف الذرية (النساء والأطفال) واغتصابهن وبيعهن واسترقاقهن وإهدائهن للغير، هذا الباب في صحيح البخاري ، إذ أنه يهدم الإسلام بالكلية، ولا يمكن أن يقتنع بني البشر بأنه كتاب دين صدر عن رسول الله، وربما كان دين العرب، فكيف يصرح لأتباعه بخطف النساء والأطفال واغتصاب واسترقاق، ثم بيع وإهداء ! وهذا ما يخالف الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، فكيف وافق القرآن؟ وكيف يمكن القول بأن هذا الدين من عند الله أو أن الإسلام يضمن حقوق الإنسان قبل الميثاق بأربعة عشر قرنا ؟. لكنها ربما لم تنتبه إلى أن البخاري كان أذكى من أن يلوث دين الله بدمجه في ثقافة العرب وعاداتهم الهمجية البربرية، فالبخاري قال (من ملك من العرب، ولم يقل من المسلمين، إذن هو تاريخ العرب وليس تراث الإسلام) ومن الطبيعي أن يحاول المحاور مع هذه السيدة الهروب بها من نطاق المرويات من تاريخ العرب وسيرتهم الإجرامية بعد وفاة الرسول، لينتقل إلى القرآن ويثبت بالدليل أن الإسلام احترم حقوق المرأة والطفل، ولكن العرب انتهكوها، وكتبوا في مروياتهم أن الرسول صرح لهم بذلك لتبقى جرائمهم دينا مقدسا للناس، وهذا ما نقله عنهم البخاري وغيره من الرواة. لكنهم في الواقع لم يكونوا يعلموا أن هذه الفتوحات ليست من الدين وإنما من تاريخ العرب الهمج كما وصفهم عالم الاجتماع ابن خلدون.

والحقيقة أن كتاب البخاري ما هو إلا نتاج الفتن التي وقعت في المجتمع العربي بعد انقلابهم عن الإسلام عقب وفاة الرسول، لكن المسلمين اليوم لا يجرؤن على القول بذلك لأن الأجداد أقنعوهم بأن الصحابة جميعهم عدول وأبرار ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وهم خير من فهم الإسلام وطبقه، ولا بد أن

نصدق ما يردنا عنهم، حتى وإن خالف القرآن ! وأن ما ورد بكتب السنة هو صحيح ومن أنكره يخرج عن الدين ويستحق عقوبة القتل بعد الاستتابة ! أي أن المسلم مفروض عليه بأن يعتقد بأن جريمة القتل والاغتصاب وخطف الأطفال هي من شعائر العبادة وجهاد في سبيل الله وإلا يكون قد كفر بالله !

هكذا ذهب فقهاء الشريعة الإسلامية بعيدا جدا عن الدين وقواعده، وجعلوا من أشخاص الصحابة مرجعا للدين بغض النظر عن الموضوع، فنجدهم منذ بداية الفقه وعلى يد الشيخ البخاري أول من أرخ لعهد النبي عليه السلام وقد جمع الأحاديث والحكايات والروايات مركزا على سندها ومصدرها (المعيار الشخصي) دون موضوعها، لأن ثقافة العرب كاملة هي ثقافة أدبية شفهية قائمة على مصطبة القيل والقال، لدرجة أننا قد نجد بين مروياته حديثا نسبه تصاعديا للرسول عليه السلام يتحدث عن الذبابة إذا وقعت في إناء الشرب وينصح بغمسها كاملة في الإناء قبل إخراجها، وذلك لكون أحد أجنحتها يحمل داءً أو يفرز نوعا من السموم والجناح الآخر فيه الدواء أو أنه يفرز المضاد الحيوي الملائم للأول. برغم أننا لا ننكر شيئا مما قاله رسول الله إذا ثبت أنه قد قال فعلا، وبالتالي لا بد من إخضاع كافة المواد المروية لمعايير عدة من شأنها تنقية التراث والتثبت من صدقها، والأصل أن تكون هذه المعايير موضوعية بغض النظر عن شخصية الراوي؛ فالعلم قائم بذاته ودعائمه الذاتية ومعاييره الموضوعية وليس الأمر متعلق بشخصية من نقله أو رواه.

وبالتالي فإن مسألة التثبت من صدق الرواية هي مسألة موضوعية بحتة يتم فيها دراسة الظروف الاجتماعية والتاريخية والأدبية والفكرية لمن وجهت إليهم أولا؛ لأن كل الأحاديث التي نطق بها رسولنا الكريم كانت موجهة في الأساس إلى مجتمعه وأصدقائه وجيرانه وأعدائه من قريش واليهود وغيرهم، ومن ثم امتدت إلينا بالتواتر، فقبل أن نتقبلها ونتذوقها ونطبقها لا بد أن تأكد من كيفية تذوق مجتمع النبي لهذه الأحاديث والروايات وكيف تقبلها الأصدقاء والأعداء وكيف طبقوها ومن ثم نفهمها نحن في ظل الظروف التي ولدت فيها وليس بمنأى عنها ؛ لأنه كما قلنا بداية أن الحديث موجه إلى مجتمع النبي وليس مجتمعنا لأننا لم نكن موجودون كي يوجه لنا حديثا، ثم امتد إلينا بالتواتر، وبالتالي فإن معايير التحقيق تتعدد جميعها في ظل ظروف البيئة العربية المعاصرة للنبي بكافة طوائفها، الأعداء قبل الأصدقاء.

ومثال آخر؛ عن صيام يوم عاشوراء[١٣]: بعدما هاجر النبي محمد إلى يثرب وجد اليهود يصومون اليوم العاشر من المحرم. وتحكي الرواية الإسلامية ما حدث نقلا عن ابن عباس: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه" (البخاري ٢٠٠٤ – مسلم ٢٦٥٩، ٢٦٥٨). وإذا صحت هذه الرواية، ربما مثل هذا اللقاء فرصة لليهود المتوجسين من الدعوة الجديدة لاختبار صاحبها، لأن جواب هؤلاء النفر من اليهود انطوى على خدعة، سيمتد أثرها منذ ذلك الحين حتى اليوم بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ عام. ! فقد ذكر هؤلاء اليهود للنبي كذبا أن ذلك اليوم كان عيد نجاة موسى(الفصح)، بينما كان هو عيد الغفران(يوم كيبور). لأننا سنثبت أن كلامهم الشفوي الذي قالوه لرسولنا مخالف لما هو ثابت بكتبهم المقدسة، ومخالف لشريعتهم عقائديا.

وتعد هذه خدعة من اليهود لأن عيد الغفران هو الذي يقع في اليوم العاشر (١٠ تشري حسب التقويم العبري) وهو سبب تسمية هذا اليوم بعاشوراء، أما عيد الفصح(النجاة) سبعة أيام تبدأ في ١٥ ويستمر حتى ٢٢ نيسان حسب التقويم العبري. غير أنهم لا يصومون في عيد نجاة موسى وإنما يصومون في عيد الغفران. وذلك لأسباب كثيرة، منها أن عيد الفصح(النجاة) ليس عيد صيام، بل إن الصيام فيه حرام، بنص التوراة في سفر الخروج في الإصحاح ١٢. فعلى ما يبدوا أنهم كانوا صائمين في يوم الغفران وعندما سألهم النبي محمد قالوا له (عيد نجاة موسى).. والفرق شاسع بينهما. ثانيا: أن اليهود لا يصومون في المناسبات السعيدة مثل نجاة فرعون وبني إسرائيل وعبورهم البحر بمعجزة، إنما العقيدة اليهودية قائمة على صيام مناسبات مؤلمة فقط باعتبار الصيام تكفير للذنوب.. والسبب الثالث هو أن عيد الفصح(نجاة موسى) هذا ليس يوما واحدا وإنما سبعة أيام وليس فيهما صيام بل احتفال وولائم وذبائح مثل عيد الأضحى عند المسلمين، ومحرم فيه الصيام.. أما عيد الغفران الذي وجب فيه الصيام عندهم فهو يوم واحد وهو يوم العاشر من نيسان وكان ذلك بمناسبة خطيئتهم بعبادة العجل، فبعد خروج بني إسرائيل من مصر، ترك موسى قومه، وصعد ليقابل الرب على جبل سيناء، فجمع بني إسرائيل الحلي الذهبية وسبكوا منها عجلا وعبدوه، وكاد الرب أن يفنيهم لولا تدخل موسى فغفر لهم الرب، ومن هنا

(١٣) ـ بعد التصرف مقال منشور على موقع رصيف ٢٢ بقلم : محمد الفقي – بعنوان: يوم عاشوراء... هل صام النبي محمد مع اليهود في يوم الغفران؟ ـ منشور بتاريخ ٢٠١٨/٩/٨م على الرابط التالي: https://raseef22.com/culture/2018/09/18/

جاء صيام عيد الغفران بمناسبة مغفرة الرب، ولزم صيامهم لذكرى هذا اليوم في كل سنة على التقويم الشمسي.

ويذكر غازي السعدي في كتابه "الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود" أنه في عيد الفصح يُفرض على اليهود أكل خبز غير مخمر ناهيك عن قطعة مشوية من عظم الضأن، وبعض النباتات المرة، وكأس ماء مالح "لتذكيرهم بما عاناه أسلافهم أثناء فرارهم من الصحراء"، كما تشمل مائدة الفصح "أربع أقداح من النبيذ يشربها أفراد الأسرة وترمز لوعد الله لليهود بتخليصهم". ويقول إن الفصح هو "عيد خبز الفطير وموسم الحج والعيد الذي يضحى فيه بحمل أو شاه أو جدي من الماعز."... في المقابل، يُعدّ يوم كيبور يوم صيام حقا، وتعدد المشناه(كتاب الشريعة اليهودية) في صيام هذا اليوم قائمة من المحظورات تمثل طقوس الصيام اليهودي، في مبحث يوما (اليوم)، وتقول: "يُحرم في يوم الغفران الأكل، والشرب، والاستحمام، والدهان، وانتعال الصندل، والجماع." وبشكل عام، لا يكون الصيام في اليهودية إلا في المناسبات الحزينة، ويقول موسى بن ميمون في كتابه الموسوعي "تثنية التوراة، إن "الصوم هو تذكرة لأعمالنا السيئة وأعمال آبائنا التي كانت كأعمالنا اليوم مما سبب لهم ولنا المعاناة"، ونجاة الشعب كانت مناسبة سعيدة يحتفل بها اليهود في الفصح.

إذن كان يوم صوم اليهود الذي شهده النبي في المدينة هو يوم كيبور(الغفران)، أي عيد غفران خطيئة العجل الذهبي، وليس يوم أسبوع الاحتفال بنجاة موسى من فرعون (عيد الفصح)، ولما أدرك النبي ما حدث منهم، قال بعد ذلك: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم."... وفي كافة الأحوال فالأمر لم يعد في حدود بحث مصداقية الرواة وتسلسل الأسانيد وغيره، إنما لا بد في إعمال العقل في كل ما ورد لأن الله سيحاسبنا على ما فعلناه ولن يحاسب غيرنا نيابة عنا.. فقد توقف الشيعة عن صيام هذا اليوم واخترعوا له مناسبة أخرى ربما كانت وفاة الحسين، وجعلوا لذلك سببا جديدا لصيامه، بينما نحن السنة وقعنا في فخ الخداع اليهودي وصومنا معهم ولهم عيد الغفران ! والغريب أن أي خدعة قد لا تعيش أكثر من جيل أو اثنين على الأكثر، إنما اليهود خدعتهم عاشت أكثر من ألف عام وما زالت، وليست وحدها التي تمكنوا من دسها في تراثنا الديني، فهناك الكثير بحاجة إلى تنقيح عاجل وضروري جدا.

غير أن القومية العربية كما سبق وأوضحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، قومية أدبية لديها قدرة وبراعة خارقة ليس في البناء ولكن في التحوير والدهاء، وهو ما مكنهم دونا عن شعوب العالم أجمع من كتابة الشعر وتضفير الكلام بهذه الطريقة العجيبة، وكذلك تفردوا بقوة الذاكرة، وتفردوا بظاهرة النفاق والتمرد الديني، وظاهرة النفاق على وجه الخصوص ليست لعبة يمارسها الشخص وقتما يريد، بل إنها نبتة متأصلة في النسيج الذهني العربي ومغروسة قواعدها بقوة الشعر العربي، وهي مثل نبتة الخشاش في الطبيعة، وليس مجرد قطع المجتمع الخضري لنبتة الخشخاش أنها اندثرت، بل إنا جذورها الضاربة في التربة، وحبوب لقاحها التي تغرق المنطقة العربية بإمكانها أن تنبت حتى دون تغذية، وتصبح مثل مستعمرة البكتيريا. وبالنظر إلى أن العرب فيما بعد البعثة أصبحوا شركاء في النبوة أو أصبحوا صحابة على درجة نائب رسول، فلا ننس أن التربة الأصلية والماد الخام لهؤلاء الصحابة نابعة من ذات التربة العربية، وبالتالي فعلي أي ساذج أن يتوقع رشح ملامح البيئة العربية بعد رحيل النبي مباشرة ودون وعي ودون إدراك من الأشخاص أنفسهم بحقيقة ما يفعلون...

ومن هنا ظهرت فكرة تحول عادات العرب وأعرافهم إلى دين للشعوب، وأبسط الأمثلة على ذلك هو مرويات عذاب القبر وحسابه التي تتناقض كليا مع القرآن، وأسلوب الترهيب الذي صبغه العرب على الدين، وحكايات الثعبان الشجاع الأقرع وضمة القبر ..إلخ. بيمنا الله يقول صراحة :" وما ربك بظلامٍ للعبيد " وهذا ما يعني أنه من غير المنطقي أن يأمر الله بعقاب أحد في قبره قبل أن يتم عرضه على المحكمة العليا يوم القيامة أمام الله دون وسيط وتسليمه كتابه ليقرأه بنفسه وتشهد عليه جوارحه، وبعدما تكتمل كافة الأدلة وتستنفذ كل وسائل الإثبات يصدر الحكم الإلهي إما إلى نعيم الجنة وإما إلى عذاب النار.. أما أن يكون هناك عقاب في القبر قبل مرحلة الحساب ! فهذا افتئات على الله لأنه وعد البشر بألا عقاب إلا بعد حساب، وبضمانة مواجهة المذنب بكتابه وأدلة الإثبات كاملة في محاكمة علنية عادلة.. لكن هكذا المرويات العربية جعلت من القبر قيامة قبل القيامة، وعقاب قبل الحساب، وصورت لنا أن الميت يستيقظ بعد موته نصف ساعة كي يجيب على أسئلة الملكين ويتلقي صفحات وخربشات الثعبان الأقرع ثم يموت وذوب في الرمال إلى يوم البعث ! برغم أن الله قال أن البعث هو بعث واحد فقط يوم البعث يوم القيامة.. كما جعلت المرويات من نفسها دينا موازيا للقرآن، كما روى العرب كذبا على النبي قول : " أتيت بالقرآن ومثله معه " والمقصود من المثل هنا هو مرويات السنة التي دونها العرب بعد وفاة النبي بمائتي عام . وهذه المقولة في حد ذاتها نوعا من

الشرك العقائدي، لأن القرآن نص إلهي لا يوازيه نص آخر، ولا يمكن وصف السنة النبوية بأنها نظير للقرآن أو مثيل له، وإلا كان ذلك إنقاص من شأن القرآن، فالسنة على الأقل تكون تحت النص القرآني لا موازية له ومساوية له في المرتبة.

وكذلك هناك الكثير من العادات والأعراف أصبحت دينا للشعوب بدعم المرويات العربية، فيقول المستشار أحمد ماهر [١٤]: هذه مجرد أسئلة للتفكر... لعلكم تعقلون. قام الغراب بتعليمنا دفن الموتى ولم يُغسّله ...فهل غسل الميت من الدين؟... كما أنه لم يقم بتكفينه، فهل الكفن من الدين؟ والشهيد لا يُغسّل ويتم دفنه بملابسه بلا كفن... فهل عدم غسله وعدم تكفينه من الدين ؟ أنا أرى بأن جسم الميت كجلباب قديم خلعه الميت ومضى إلى حال سبيله، وما علينا إلا حفظ حرمته وعدم مساسه بسوء... وأن تغسيله أو عدم تغسيله لا يُقدّم ولا يؤخر فيما يقبل عليه البشر من دفن وبعث وحساب. أنا لا يهمني إن قمتم بتغسيل الميت أو عدم تغسيله وتكفينه أو عدم تكفينه، لكن فقط أقول بأنه من الواجب عدم اعتبار ذلك من الدين... بل هو من العادات والتقاليد كما اعتاد الفراعنة إجراء طقوس خاصة للميت وتغسيله وتكفينه وتحنيطه استعدادا ليوم البعث الآخر... وأجد بأنكم صنعتم فقها دينيا من اطلاع بعضكم على عورات بعض وتحسس أجسام موتاكم بأيديكم وخدش مواضع الحياء دون حياء !... وحشر القطن بمؤخرته وغير ذلك من طقوس تغسيل الميت أنه لا يمكن أن يكون دينا أبدا... فهل تحسس وكشف الأمة الإسلامية لعورات بعضها البعض من الدين؟!!! أليس للجسد خصوصية وسرية وحرمة؟ وهل أن كشف مواضع الحياء والعفة في جسد الميت يعتبر دين؟ إذا كان علي ابن أبي طالب في موقعة الخندق عندما انتصر على عدوه الكافر عمرو ابن هود، وصاح بعض الناس عليه أن يخلع عنه قناعه ليأخذه تحفة .. لكنه رد ردا بليغا حكيما، ورفض ذلك قائلا إنه صار في ذمة الله.. ورفض كشف جسد الميت أو حتى خلع قناعه عنه، حفاظا على حرمة الميت.. وبرغم ذلك فالفقهاء يقولون بأن غسل الميت وحلق شعر المواضع الحساسة في جسده وقص أظافره وحشر قطن في مخارجه..إلخ أنه دين وشريعة، فما الغاية أصلا من ذلك إذا كان الميت في طريقه إلى التعفن الكلي بعد ساعات؟ هذا مجرد غياب كلي للعقل، لأن ذلك الغسل لو كان طهرا ضروريا ومقدسا، لكان غسل الشهيد أولى، لأن نفسه طاهرة وصعدت في سبيل الله بإخلاص، فكيف نمنع عنه التطهر المادي الجسدي

---

[١٤] ـ مع التصرف

؟ أليس الشهيد أولى ليكتمل طهره ؟ إنما نحن اعتنقنا خزعبلات العرب دون نقاش، بل إننا قبلنا حكم العرب على النص القرآني ذاته ! وما قال عنه العرب بأنه ممسوخ فهو ممسوخ !.

وهذا ما يعني أن معيار شخصية الراوي عبر التاريخ هو آخر المعايير التي يمكن الانتباه لها، فالقرآن الكريم لم يستمد مصداقيته من شخصية من حمله إلينا (النبي عليه السلام) أو من حفظه من الصحابة أو من دونه من الخلفاء، ولكن يستمد مصداقيته وقدسيته من بلاغة التعبير وعظمة الإعجاز في النظم القرآني ما يدل بذاته وآياته على أنه نصّ سماوي تعجز قدرة البشر عن صياغته بهذه الدقة والبراعة. فمن يقرأ القرآن لن يلتفت إلى شخصية من حفظوه في صدورهم ومن دونوه في صحفهم بل سيلتفت إلى السماء مباشرة لأن شخصية الراوي لا صلة لها بموضوع النص، النص قائم بذاته متماسك في معناه متناهٍ في إعجازه، وكما وصفه الوليد ابن المغيرة عندما طلب منه عتاة قريش بأن يعلن موقفه من القرآن، قالَ : وماذا أقولُ ؟ فواللهِ ما فيكُمْ رَجلٌ أعلمَ بالأشعارِ منّي، ولا أعلمَ برَجزِهِ ولا بقصيدَتِهِ منّي، ولا بأشعارِ الجنِّ، واللهِ ما يُشبِهُ الذي يقولُ شيْئًا منْ هذا، وواللهِ إنَّ لقولِهِ الذي يقولُ حلاوةً، وإنَّ عليهِ لطلاوةً، وإنَّهُ لمُثمِرٌ أعلاهُ، مُغدِقٌ أسفلُهُ، وإنَّهُ ليَعلو ومَا يُعلا، وأنَّهُ ليَحطِمُ ما تحتَهُ" هكذا وصف الوليد المغيرة القرآن رغم شركه دون أن يرد على شخصية النبي أو مصداقيته.

وبالتالي، فإننا عندما نعمل أدواتنا ومساطرنا في تحقيق الروايات والأحاديث، فينبغي علينا إقصاء الأشخاص تماما وتجريد الموضوع من كل ما علق به ومن ثم إخضاعه للمعايير العلمية والتي يتصدرها طبيعة الجمهور المستقبل لهذا الكلام، ولكن لأن الشيخ البخاري لم يكن يركز على الموضوع وفقط تتبع السند والعنعنة، متتبعا سير الرواة الشخصية على مدار قرنين كاملين[١٥]، فأورد لنا حديث الذبابة ونصحنا فيه بغمس الذبابة في الإناء قبل إخراجها وقبل الشرب تحسبا لأن يكون الجناح الذي سقط أولا هو الجناح المفرز للداء! مع أن المصيبة الكارثية ليست في الجناح الغاطس ولا في الداء، المصيبة في أن جسد البعوضة يحمل من العدوى والأمراض والأوبئة وأخصها الجرب، وكذا المكروبات وما لا

(١٥)ـ وهذا مستحيل حدوثه مع هذا الكم الهائل الذي أورده البخاري بما يتجاوز الستة آلاف حديث ورواية خلال ستة عشر عاما، حتى وإن كان قد نقل الكثير من الأحاديث من مشايخه ودونها في محاضراته، فلن يسعفه الوقت لتحقيقها وتتبع السير الشخصية للرواة في طول البلاد وعرضها من بخارى إلى الشام إلى العراق إلى شبه الجزيرة العربية في زمن كانت أسرع وسيلة تنقل هي الجمل. فعدد الرواة الذين حملوا هذه الأحاديث يزيد عن مائة ألف راوٍ، ومن المستحيل على شخص واحد أن يقوم بدراسة سيرة حياة مائة ألف شخص في ١٦ سنة ، ثم دراسة مائة ألف نص حديث ورواية لاختيار الصحيح منها وتصفيتها على ألفين فقط أو ثلاثة. إن هذا العمل بحاجة إلى جامعة بأكملها كي تنجزه، ثم يحتاج جامعة أخرى لمراجعته، ثم جامعة ثالثة لاعتماد نصوصه، لا أن يقوم بكل ذلك شخص واحد خلال ستة عشر عاما كما قال.

حصر له من الأمراض التي تنتقل بالعدوى؛ إذ أن الذباب عادة ما يقف على القاذورات ومجاري الصرف والأماكن العفنة التي تأوي إليها الحشرات والخنازير والكلاب الضالة وغيرها، فإذا كان جناح الذبابة قادر على إفراز الداء الذي ينتجه الجناح الآخر فلا مشكلة لكن هل يفرز هذا الجناح أدوية علاجية شافية لكافة أنواع الأمراض والأوبئة التي يمكن أن تنتقل ملتصقة ببدن الذبابة؟ لو كان الأمر كذلك لكانت البشرية جمعاء تعالج أمراضها بمستعمرات الذباب! بدلا عن مصانع الأدوية باهظة التكاليف.

إن الطريقة التقليدية في تخريج الحديث والمعتمدة علي بحث سير الرواة لهي طريقة فقيرة للغاية في التحقق من العلم ولا تصلح كمعيار للعلم من الأساس حتى وإن صدق الراوي؛ لأننا إذا تركنا المبادئ القرآنية التي يمكن القياس عليها واعتمدنا معيار الثقة في شخص الراوي فنكون بذلك قد طرحنا القرآن جانبا وهجرنا مبادئه واستهترنا بها واشترينا وسيلة رخيصة لبناء العلم والأحكام الفقهية، إن النظرية الفقهية الكلاسيكية التي اتبعها الفقهاء علي مدار ألفٍ وأربعمائة عام كانت غاية في البداءة وافتقدت الكثير من مقوّمات العلم وفقدت صلاحيتها تماما ولا ينبغي الوقوف عليها طويلا بل لا بد من تجاوزها كمرحلة انتقالية. لأنها ببساطة كانت نتاج فكر العصور الوسطى، وهي نتاج غالبية فقهاء المجتمع، وقد سادها فساد فكري من ذات فصيلة الفساد التي سادت المجتمع في هذا العصر، فالفساد لم يكن سياسيا فقط، ولا عسكريا فقط، بل كان فساد المجتمع على كافة المستويات، فالصراع السياسي الذي وجدناه بين الخلفاء والولاة الذين قتلوا بعضهم بعضا لانتزاع السلطة، هو ذاته وجدناه بين الفقهاء وتلامذتهم، النفوس كانت مشحونة بالغضب طول الوقت، لدرجة أنهم جميعا لم يقبلوا الخلاف بينهم سواء كان سياسيا أو فقهيا أو دينيا أو عرقيا.

ولذلك استمرت الفتاوى والأحكام بقتل المرتد لأكثر من ألف عام دون سندٍ أو أصل من الدين، مع أن المرتد له الحق وحرية العقيدة وله الحق في أن يأخذ فرصته ليعود إلى دينه بمرور الوقت، وحتى لو ظل مرتدا فله الحق في الإنفاق على أسرته وأطفاله وتربيتهم ربما يخرج منهم عالم عظيم. وكذلك زوجته لها الحق في أن تعيش في كنف رجل يرعها وينفق عليها وأولادها.. لكن المجتمع ذاته لم يكن متسامحا مع النفس. ولذلك لابد من إعادة دراسة الحديث وتمحيصه بدقة وعناية مع تطبيق المعايير القرآنية وتنقية التراث الفقهي مما علق به من آفات فكرية غفل عنها السلف. ومن هنا تبدأ التساؤلات..

أين ما كتبه البخاري بخط يده ؟ وكيف نتحقق أن ما بيدنا هو ذاته الكتاب الذي كتبه البخاري بيده، ثم نتساءل كيف استطاع البخاري التحقق من كل هذه النصوص ورواتها عبر مائتي عام بتتبع سير الرواة وحياتهم الشخصية وما إذا كان معروفا عنهم الصدق أم الكذب، وغير ذلك إن كانت هذه تصلح كمعايير لمبادئ الإسلام.

يقول الأستاذ أحمد ماهر: نحن نتحارب على الأوهام ، أريد أن أقول عن كتاب البخاري الذي بين أيدينا هل هو ما كتبه البخاري؟، لابد أن نتبين حتى ننفذ قول ربنا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)/الحجرات. وقد تصدر للأمر كتاب (أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم)[١٦] وهي المخطوطات المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى القرن الخامس الهجري. وكشف الباحث بالكتاب عن المعلومات الخطيرة الآتية:

أولا: لا توجد أي مخطوطة لأي كتاب في القرنين الأول والثاني الهجريين سوى مخطوطات القرءان الكريم ويستثنى من هذا التعميم مخطوطة كتاب سيباويه.

ثانيا: البخاري (يرحمه الله) توفي عام ٢٥٦ هجرية وتوجد لكتاب البخاري المنسوب له مخطوطات ثلاثة هي كالتالي:

١ـ أولها وأقدمها بالعالم تمت كتابتها عام ٤٠٧ أي بعد رحيل الإمام البخاري ب١٥١ سنة وهي الوثيقة رقم ٣٠٣.

٢ـ ثانيها في القدم الوثيقة رقم ٣٠٤ والتي كتبت في عام ٤٢٤ بالقرن الرابع أي بعد رحيل الإمام البخاري ب ١٦٨ عام تقريبا.

٣ـ ثالثها في القدم الوثيقة رقم ٣٠٥ والتي كتبت في عام ٤٩٥ هجرية أي بعد رحيل الإمام ب ٢٣٩ عام.

ولم يذكر أي من المخطوطات الثلاثة المذكورة والمنسوبة زورا للبخاري اسم الذي قام بكتابتها. كما لم يذكر أيضا أنها مستنسخة من الأصل المكتوب بيد الإمام البخاري وهو الأصل غير الموجود له

(١٦) ـ الباحث العراقي عواد كوركيس عضو المجلس العلمي العراقي، كتاب (أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم) ونسخة الكتاب محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية بميدان التحرير بالقاهرة، وهو من منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية عام ١٩٨٢. وتم توثيق الكتاب بدار الكتب والوثائق المصرية عام ١٩٨٣.

أثر بالعالم.. وجدير بالبيان أن ابن حجر قد دون بكتابه [فتح الباري بشرح صحيح البخاري] بجزء مقدمة الكتاب بالفصل الثاني صفحة ١٠ نقلا عن الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن أحمد المستملي قال : (انتسخت البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه محمد بن يوسف الفربرى فرأيت فيه أشياء لم تتم، وأشياء مبيضة منها تراجم لم يثبت بعدها شيئا، ومنها أحاديث لم يترجم لها، فأضفنا بعض ذلك إلى بعض). وهو الأمر الذي يؤكد أنه حتى أصل البخاري [الذي لم يكن موجودا] تم العبث به وباعتراف شراح الحديث للبخاري، لأن ابن حجر الذي كتب هذا الكلام الأخير قد توفي عام ٨٥٢ هجرية. أي بعد وفاة البخاري بستمائة سنة ومع هذا فهو يؤكد العبث بتلك المخطوطات التي لم تكن بخط يد البخاري. وجدير بالبيان أيضا أنه لا توجد مخطوطة بخط يد الإمام مسلم عن صحيحه، لكن توجد مخطوطة كتبت عام ٣٦٨ هجرية على أنها صحيح مسلم، أي بعد وفاة الإمام مسلم بـ ١٠٧ سنة. وهكذا تجدنا نتصارع لأجل أوهام مزيفة على المسلمين بل ونجعلها مصدرا من مصادر الدين بينما ليس لها أي مصداقية تاريخية تثبت صحتها أو نسبتها لأصحابها.. وبهذه المناسبة فأنا أتحدى الأزهر وجميع المجامع الفقهية الإسلامية بالعالم أن تثبت غير ما ذكرت بهذا المقال.. ".[١٧]

****

إلى اللقاء في الجزء الخامس والأخير..



١٧ ـ أحمد عبده ماهر

الفهرس

باب تمهيدي ٣

الإضاءة الأولى: مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور ديني ١٦

الإضاءة الثانية: مسقط رأسي بين الفقه والفقهاء- المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي٧٤

- المعيار الشخصي والمعيار الموضوعي في الفقه.. ٧٩

- عبقرية قواعد الحكم على الحديث...٩٤

- عبقرية قواعد تدوين القرآن.. ١٠٣

- إشكالية المعيار الشخصي ١٢٣

- كذب الصحابة على رسول الله.. ١٣٠

- ظاهرة الخنزير البري..١٣٦

- " فقه الوطء والركوب في الإسلام"... ١٦٣